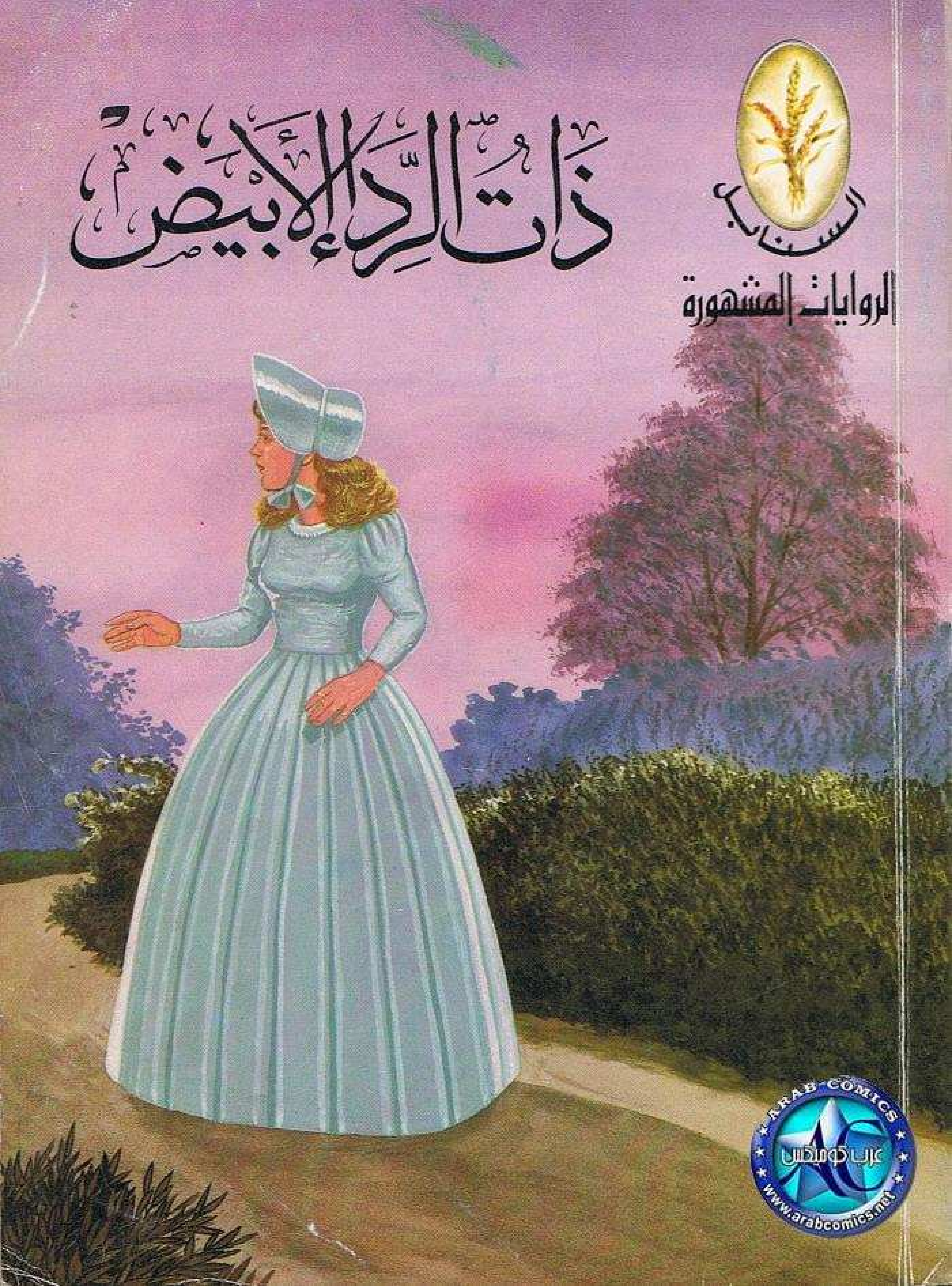


ذات الرداء الأبيض
السنابل
الروايات المشهورة



ذات الرداء الأبيض





تأليف : ولكي كولنز

أعدها بالعربية : حسن بعد المقصود حسن

رسوم : ممدوح الفرماوي

مكتبة لبنان

رئيس التحرير : وجدي رزق غالي

١٠ أ شارع حسين واصف ، ميدان المساحة ، الدقي – الجيزة ، مصر

الطبعة الأولى ١٩٩٢

رقم الإيداع : ٥٥٩٨ / ١٩٩٢

الترقيم الدولي : ISBN ٩٧٧ – ١٦ – ٠٠٩٦ – ٦

طبع في دار نوبار للطباعة

القِصَّةُ يَبْدَؤُها ولتر هارترايت ، مُدَرِّسُ الرَّسْم

الفَصْلُ الأَوَّل

هَذِهِ قِصَّةٌ تَرْوي ما يَسْتَطيعُ أَنْ يُطيقَهُ صَبْرُ المَرْأَةِ ، وَما يُمْكِنُ أَنْ يَفْعَلَهُ عَزْمُ الرَّجُلِ . وَسَيَقومُ بِسَرْدِ الأَجْزاءِ الرَّئيسيَّةِ مِنْها كُلُّ مَنْ يُجيدُ مَعْرِفَتَها ؛ حَتّى تَبْرُزَ الحَقيقَةُ دائِماً على نَحْوٍ مُباشِرٍ ما أَمْكَنَ ذَلِكَ . لَقَدْ كانَتِ الأَحْداثُ الَّتي تُمَثِّلُ بِدايَتَها وَثيقَةَ الصِّلَةِ بي ، أَنا « ولتر هارترايت » مُدَرِّسِ الرَّسْمِ البالِغِ مِنَ العُمْرِ ثَمانِيَةً وَعِشْرينَ عاماً . شَرَعْتُ قَلَمي لأَصِفَ المُغامَراتِ الَّتي قامَتْ بِها الفَتاةُ ذاتُ الرِّداءِ الأَبْيَضِ .

كانَ ذَلِكَ اليَوْمُ هُوَ آخِرَ أَيّامِ شَهْرِ يوليه . وَكُنّا نَحْنُ – أَهْلَ لَنْدن المُرْهَقينَ – قَدْ بَدَأْنا نُفَكِّرُ في ظِلالِ السُّحُبِ فَوْقَ حُقولِ القَمْحِ ، وَالنَّسَماتِ القَليلَةِ على شاطِئِ البَحْرِ ؛ فَقَدْ وَلّى الصَّيْفُ الطَّويلُ الحارُّ ، حَيْثُ تَرَكَني عَليلاً وَمُكْتَئِباً ، و للحَقِّ كُنْتُ مُفْلِساً .

وَلَمْ يَكُنْ بِمَقْدوري أَنْ أَدَّخِرَ ما اعْتَدْتُ ادِّخارَهُ ، فَبَدا لي أَنَّهُ يَتَعَيَّنُ عَلَيَّ أَنْ أَمْكُثَ في لَنْدَن وَأَنْ أَمْضِيَ وَقْتي بَيْنَ بَيْتِ أُمّي الصَّغيرِ في « هامپستيد » وَشَقَّتي في العاصِمَةِ .

كانَ المَساءُ ساكِناً ، تُظَلِّلُهُ الغُيومُ ، وَكانَ جَوُّ لَنْدَن كَئيباً ، فَأَلْقَيْتُ بِكِتابي وَانْطَلَقْتُ إلى بَيْتِ أُمّي ، كَما اعْتَدْتُ ذَلِكَ مَرَّتَيْنِ في الأُسْبوعِ ، وَكانَ أَبي قَدْ تُوُفِّيَ مُنْذُ سَنواتٍ ، وَلَكِنَّهُ كانَ قَدْ تَرَكَ مِنَ المالِ ما يَكْفي والِدَتي وَأُخْتي لِيَعيشا في بُحْبوحَةٍ مِنَ العَيْشِ .

وَعِنْدَما وَصَلْتُ إلى البَيْتِ وَضَغَطْتُ على الجَرَسِ ، وَسْطَ الظَّلامِ المُتَجَمِّعِ ، فُتِحَ البابُ . لَمْ تَفْتَحْهُ الخادِمَةُ ، بَلْ فَتَحَهُ صَديقي الإيطاليُّ العزيزُ الأُسْتاذُ بيسكا ، الَّذي انْدَفَعَ إلى الخارِجِ في سَعادَةٍ غامِرَةٍ لاسْتِقْبالي . وَما دامَتِ الصُّدْفَةُ قَدْ جَعَلَتْ مِنْهُ نُقْطَةَ الانْطِلاقِ لِما سَيَرِدُ مِنْ مُغامَراتٍ ، فَإِنَّهُ خَليقٌ بِمُقَدِّمَةٍ تَليقُ بِهِ .

كُنْتُ قَدْ قابَلْتُهُ لأَوَّلِ مَرَّةٍ ، حَيْثُ كانَ يُدَرِّسُ لُغَتَهُ ، وَكُنْتُ أَنا أُدَرِّسُ مادَّةَ الرَّسْمِ . وَكانَ يَشْغَلُ – قَبْلَ ذَلِكَ – وَظيفَةً في جامِعَةِ بادوا ، وَلَكِنَّهُ رَحَلَ مِنْ إيطاليا لأَسْبابٍ سِياسيَّةٍ ما كانَ لِيُطْلِعَ أَحَداً على طَبيعَتِها . وَها هُوَ ذا الآنَ ، وَمُنْذُ سَنواتٍ ، يَقومُ بِتَدْريسِ اللُّغاتِ بِلَنْدن . كانَ في غايَةِ الامْتِنانِ لِلْبَلَدِ الَّذي وَفَّرَ لَهُ عَمَلاً وَحِمايَةً ،

وَكانَ رَجُلاً ضَئيلَ الجِسْمِ ، فَريداً في طِباعِهِ . كانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ مِن واجِبِهِ أَنْ يَعيشَ كَما يَعيشُ الإِنْجليزُ ؛ لِذا كانَ يُجاريهِمْ في عاداتِهِمْ في كُلِّ كَبيرَةٍ وَصَغيرَةٍ ؛ فَكانَ يَحْمِلُ دائِماً مِظَلَّةً ، وَيَلْبَسُ قُبَّعَةً بَيْضاءَ . وَلأَنَّهُ وَجَدَ أَنَّنا أُمَّةٌ مُتَميِّزَةٌ بِفَضْلِ حُبِّنا لِلرِّياضَةِ ؛ فَقَدْ أَسْلَمَ نَفْسَهُ لِكُلِّ أَنْواعِها ، سَواءٌ أَ كانَ لائِقاً لَها أَمْ لَمْ يَكُنْ . لَمْ يَتَرَدَّدْ في المُخاطَرَةِ بِذِراعَيْهِ وَساقَيْهِ في مُمارَسَةِ هِوايَةِ الصَّيْدِ بِالخَيْلِ ، أَوْ بِحَياتِهِ في البَحْرِ ؛ فَقَدْ كانَ يَرى الإِنْجليزَ يَرْكَبونَ الخَيْلَ ، وَيَسْبَحونَ .

وَذاتَ يَوْمٍ ، تَقابَلْنا أَنا وَهُوَ صُدْفَةً ، في برايتون . كانَ قَدْ قَذَفَ بِنَفْسِهِ ، في سَعادَةٍ غامِرَةٍ في الماءِ وَهُوَ لا يَعْرِفُ شَيْئاً بِالمَرَّةِ عَنِ السِّباحَةِ . وَتَلَفَّتُّ حَوْلي أَبْحَثُ عَنْ صَديقي ، وَصُدِمْتُ صَدْمَةً عَنيفَةً ؛ إِذْ لَمْ أَرَ شَيْئاً بَيْني وَبَيْنَ الشّاطِئِ سِوى ذِراعَيْنِ بَيْضاوَيْنِ مُلَوِّحَتَيْنِ سَرْعانَ ما اخْتَفَتا تَحْتَ سَطْحِ البَحْرِ . وَغُصْتُ أَبْحَثُ عَنْهُ ، فَوَجَدْتُهُ مُمَدَّداً على ظَهْرِهِ وَقَدْ بَدا أَصْغَرَ حَجْماً مِمّا كانَ . وَلِحُسْنِ الحَظِّ اسْتَطَعْتُ أَنْ أَنْتَشِلَهُ إِلى الشّاطِئِ ، حَيْثُ أَفاقَ شَيْئاً فَشَيْئاً مِنْ نَكْبَتِهِ . وَما إِنْ شَعَرَ بِتَحَسُّنِ حالَتِهِ ثانِيَةً ، حَتّى راحَ يُمْطِرُني بِعِباراتِ شُكْرِهِ المُفْعَمَةِ بِالانْفِعالِ ، مُعْلِناً أَنَّني قَدْ أَنْقَذْتُ حَياتَهُ الّتي سَتَكونُ في المُسْتَقْبَلِ في خِدْمَتي تَماماً . وَأَضافَ أَنَّهُ لَنْ يَكونَ سَعيداً إِلّا بَعْدَ مُكافَأَتي على نَحْوٍ أَتَذَكَّرُهُ حَتّى نِهايَةِ عُمْري .

وَبَذَلْتُ قُصارى جَهْدي لإِيقافِ ذَلِكَ الفَيْضِ مِنَ الصِّياحِ وَالدُّموعِ بِتَناوُلِ المَوْضوعِ كُلِّهِ كَنُكْتَةٍ مُضْحِكَةٍ . لَمْ أُفَكِّرْ كَثيراً وَقْتَئِذٍ ، أَنَّ فُرْصَةَ خِدْمَتِهِ لي كانَتْ في طَريقِها إِلَيَّ بِأَسْرَعَ مِمّا كُنْتُ أَتَصَوَّرُ ، وَأَنَّهُ سَيُغَيِّرُ – آنَذاكَ – كُلَّ مَجْرَياتِ حَياتي .

وَعِنْدَما الْتَقاني بيسكا عِنْدَ بابِ بَيْتِ والِدَتي ، في ذَلِكَ المَساءِ ، كانَ وَجْهُهُ يَنْطِقُ بِأَنَّ شَيْئاً غَيْرَ عادِيٍّ قَدْ حَدَثَ . وَما إِنْ وَصَلْنا إِلى غُرْفَةِ المَعيشَةِ حَتّى قالَتْ والِدَتي إِنَّهُ قَدْ جاءَ بِخَبَرٍ رائِعٍ ، وَلَكِنَّهُ رَفَضَ أَنْ يَذْكُرَهُ قَبْلَ وُصولي . وَبَيْنَما كانَ بيسكا يَتَكَلَّمُ ، جَذَبَ مَقْعَداً وَثيراً إِلى نِهايَةِ الغُرْفَةِ ، وَقَفَزَ إِلَيْهِ على رُكْبَتَيْهِ وَاسْتَمَرَّ يَتَحَدَّثُ إِلَيْنا .

بَدَأَ بِصَوْتٍ يَغْلِبُ عَلَيْهِ الانْفِعالُ : « وَالآنَ ، يا أَعِزّائي ، أَنْصِتوا إِلَيَّ . أَخيراً حانَ الوَقْتُ لأَتَكَلَّمَ .»

قالَتْ أُخْتي : « سَيُحَطِّمُ ظَهْرَ المَقْعَدِ .»

وَمَضى يَقولُ : « كَثيراً ما قُلْتُ إِنَّ حَياتي مِلْكٌ لِصَديقي العَزيزِ ولتر ، وَإِنَّني لَنْ أَكونَ سَعيداً حَتّى أَفْعَلَ شَيْئاً مِنْ أَجْلِهِ .» ثُمَّ صاحَ بِأَعْلى صَوْتِهِ : « يا لَسَعادَتي ! لَقَدْ تَحَقَّقَ هَذا الشَّيْءُ أَخيراً .»

وَأَعْلَنّا لَهُ أَنَّنا مُتَلَهِّفونَ إِلى سَماعِ ما سَيَقولُهُ ؛ فَأَخْبَرَنا أَنَّهُ كانَ يُدَرِّسُ الإِيطالِيَّةَ في أَحَدِ قُصورِ لَنْدَن ، وَإِذا بِوالِدِ تِلْميذٍ لَهُ يَطْلُبُ

منهُ أنْ يَدُلَّهُ على مُدرِّسِ رَسْمٍ يَذْهَبُ إلى أُسْرَةٍ في الرِّيفِ ، فَقالَ إنَّهُ يَعْرِفُ الرَّجُلَ المَنْشودَ ، فَأَعْطِي خِطاباً يَتَضَمَّنُ مَهامَّ عَمَلِ مُدَرِّسِ الرَّسْمِ المُرْتَقَبِ . ثُمَّ ناوَلَني الخِطابَ وَهُوَ يُلَوِّحُ بِيَدِهِ .

قالَ الرَّجُلُ الضَّئيلُ الجِسْمِ بِلَهْجَةٍ آمِرَةٍ ، وَكَأَنَّهُ مَلِكٌ : « اِقْرَأْ .» وَقَرَأْتُ الخِطابَ ، وَكانَ واضِحاً وَموجَزاً .

قالَ : « إنَّ السَّيِّدَ فردريك فيرلي مالِكُ ليميريدج هاوس ، بِكامبرلاند ، كانَ يُريدُ خِدْماتِ مُدَرِّسِ رَسْمٍ لِمُدَّةِ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ؛ لِتَعْليمِ الرَّسْمِ لِفَتاتَيْنِ ، وَإعادَةِ تَرْتيبِ مَجْموعَةٍ قَيِّمَةٍ مِنَ اللَّوْحاتِ بِالبَيْتِ ، وَسَوْفَ يَكونُ راتِبُهُ أَرْبَعَةَ جُنَيْهاتٍ أُسْبوعِيًّا ، وَيَعيشُ سَواءً بِسَواءٍ مَعَ أُسْرَةٍ بِليميريدج هاوس . وَلَنْ يُسْمَحَ بِهَذِهِ الوَظيفَةِ إلّا لِمَنْ كانَتْ شَخْصِيَّتُهُ وَقُدْراتُهُ جَديرَةً بِها . »

كانَ هَذا العَرْضُ - بِكُلِّ تَأْكيدٍ - مُغْرِيًا ، وَقَدْ جاءَ في وَقْتٍ لَمْ يَكُنْ لي فيهِ مَشاغِلُ في لندن . كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّني سَأَكونُ مَحْظوظًا لِلْغايَةِ إذْ أَحْصُلُ على هَذِهِ الوَظيفَةِ . وَمَعَ ذَلِكَ كُنْتُ أَشْعُرُ أَنَّني لا أُريدُ أَنْ أَتَقَدَّمَ إِلَيْها لِسَبَبٍ غامِضٍ ، وَلَكِنَّ تَشْجيعَ بيسكا وَ والِدَتي وَأُخْتي لي تَغَلَّبَ أَخيراً على شُكوكي ، وَجَعَلَني أُوافِقُ على إرْسالِ طَلَبي ، وَإنْ ظَلَّتِ الشُّكوكُ تُساوِرُني .

وَ وَفاءً بِوَعْدي ، أَرْسَلْتُ طَلَبي في صَبيحَةِ اليَوْمِ التّالي . وَمَضَتْ ثَلاثَةُ أَيّامٍ ، وَفي اليَوْمِ الرّابِعِ تَلَقَّيْتُ خِطاباً يُخْطِرُني أَنَّ السَّيِّدَ فيرلي قَدْ وافَقَ على طَلَبي ، وَيَطْلُبُ إِلَيَّ أَنْ أُسافِرَ فَوْراً إلى كمبرلاند . وَفي مَساءِ اليَوْمِ نَفْسِهِ جاءَ بيسكا لِرُؤْيَتي ، وَبَعْدَ أَنِ انْصَرَفَ ذَهَبْتُ إلى بَيْتِ أُمّي لِوَداعِها .

وَأَفاضَتْ أُمّي وَأُخْتي في حَديثِهِما وَكَلِماتِ الوَداعِ لي حَتّى مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ ، حَيْثُ تَرَكْتُهُما . وكانَ القَمَرُ بَدْراً ، فَقَرَّرْتُ أَنْ أَسْلُكَ أَوْعَرَ الطُّرُقِ وَأَقْفَرَها أَثْناءَ عَوْدَتي إلى بَيْتي ؛ حَتّى أَقْضِيَ أَطْوَلَ وَقْتٍ مُمْكِنٍ في الهَواءِ الطَّلْقِ . وَكُنْتُ أَسيرُ ، وَأَنا أُفَكِّرُ في المُسْتَقْبَلِ ، وَأَتَخَيَّلُ - قَدْرَ إمْكاني - حَياتي القادِمَةَ في ليميريدج هاوس ، عِنْدَما أَجْفَلْتُ فَجْأَةً إثْرَ لَمْسَةٍ مِنْ يَدٍ وُضِعَتْ على كَتِفَيَّ مِنَ الخَلْفِ . واسْتَدَرْتُ في الحالِ ، وَقَدْ أَطْبَقْتُ أَصابِعي على مِقْبَضِ عَصايَ .

وَهُناكَ ، في وَسَطِ الطَّريقِ ، كانَتْ تَقِفُ فَتاةٌ تَرْتَدي ، مِنْ قِمَّةِ الرَّأْسِ إلى أَخْمَصِ القَدَمَيْنِ ، مَلابِسَ بَيْضاءَ . كُنْتُ في غايَةِ الدَّهْشَةِ إذْ أَراها في ذَلِكَ المَكانِ المُوحِشِ ، حَتّى إنَّني في بادِئِ الأَمْرِ لَمْ أَقُلْ شَيْئًا . وكانَتِ الفَتاةُ الغَريبَةُ هِيَ الَّتي بادَرَتْني بِالحَديثِ .

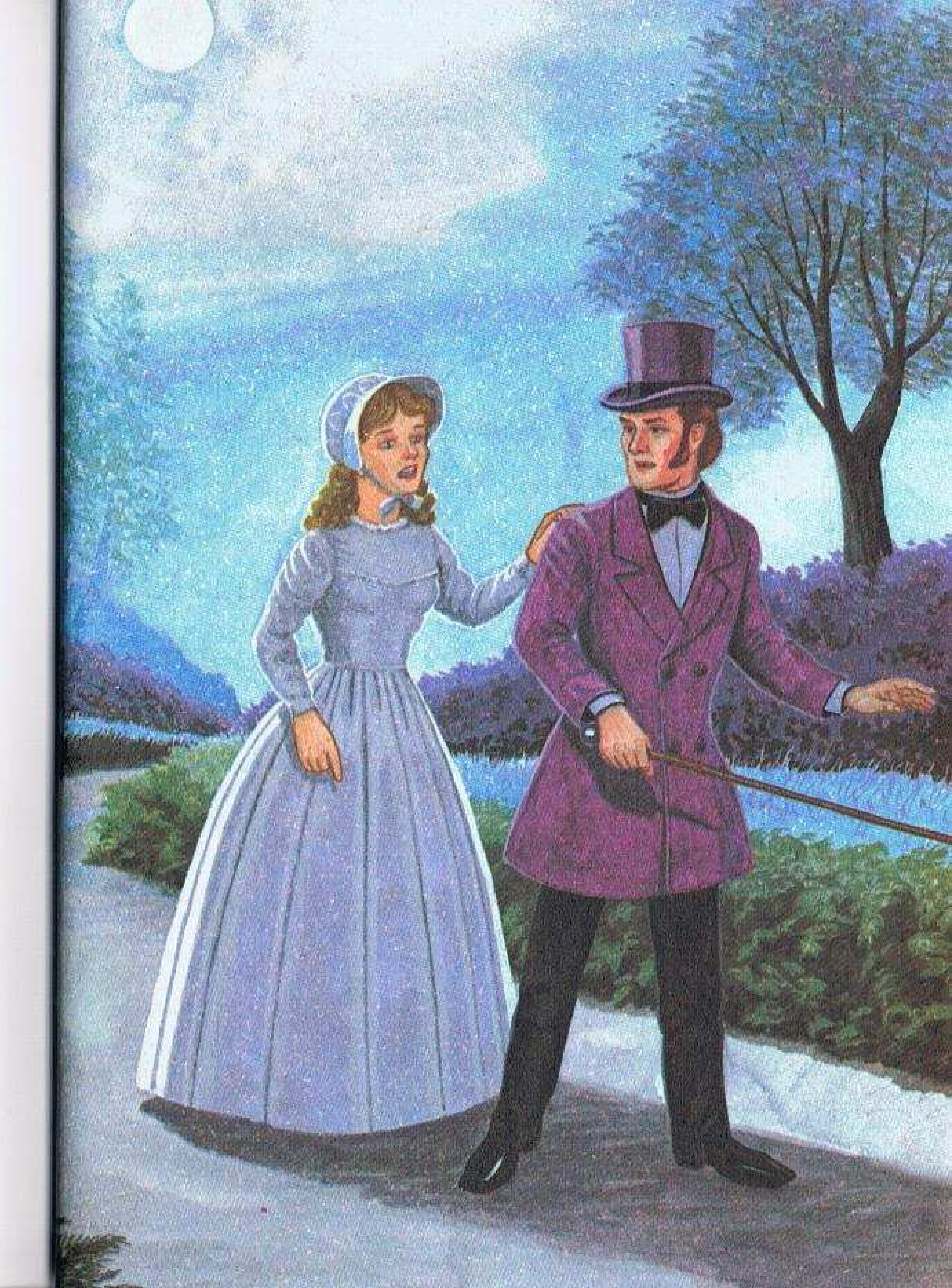
سألتْ : « أ هَذا هُوَ الطَّريقُ إلى لَنْدَن ؟ »

وَنظَرْتُ إلَيْها بِإمْعانٍ ، وكانَتِ السّاعَةُ الواحِدَةَ تَقْريباً . وكانَ كُلُّ ما استَطَعْتُ أنْ أراهُ ، وَجْهَ فَتاةٍ شابَّةٍ ذاتِ وَجْنَتَيْنِ تُنْبِئانِ عَنْ سَقَمٍ وَهُزالٍ ، وَعَيْنَيْنِ تَنْطِقانِ بِحُزْنٍ دَفينٍ ، وَشَفَتَيْنِ تَنُمّانِ عَنْ عَصَبِيَّةٍ وَانْفِعالٍ ، وَشَعْراً ذَهَبِيًّا انْطَفَأ بَريقُهُ . ولَمْ تَكُنْ مَلابِسُها بِالفاخِرَةِ أوِ الرَّخيصَةِ . وَعَجَزْتُ تَماماً عَنِ التَّكَهُّنِ بِمَرْتَبَتِها بَيْنَ النِّساءِ ، وَكَيْفَ أنَّها كانَتْ بِالخارِجِ وَحيدَةً في هَذا الطَّريقِ العامِّ ، وَفي السّاعَةِ الواحِدَةِ بَعْدَ مُنْتَصَفِ اللَّيْلِ .

قالَتْ في هُدوءٍ وَسُرْعَةٍ : « أ سَمِعْتَني ؟ سَأَلْتُكَ إنْ كانَ هَذا هُوَ الطَّريقَ إلى لَنْدَن . »

أجَبْتُها: « نَعَمْ ، إنَّهُ هُوَ. أرْجو المَعْذِرَةَ لِتَأخُّري في الإجابَةِ ؛ لَقَدْ تَمَلَّكَتْني الدَّهْشَةُ لِظُهورِكِ في الطَّريقِ . كَيْفَ أسْتَطيعُ أنْ أساعِدَكِ ؟ »

قالَتْ : « لَمْ أذْهَبْ إلى لَنْدَن إلّا مَرَّةً واحِدَةً ، وَلا أعْرِفُ سِوى القَليلِ عَنْها . أ يُمْكِنُني الحُصولُ عَلى مَرْكَبَةٍ ؟ إنْ كُنْتَ تَسْتَطيعُ أنْ تَدُلَّني عَلى مَكانِ الحُصولِ عَلَيْها . لي صَديقَةٌ في لَنْدَن يَسُرُّها أنْ تَسْتَقْبِلَني ... هَذا كُلُّ ما أريدُهُ . هَلّا ساعَدْتَني ؟ »



كانَتْ كَلِماتُها تَتلاحَقُ بِسُرْعَةٍ ، وَكانَ صَوْتُها غَريباً .

وافَقْتُ على أنْ أبْذُلَ قُصارى جَهْدي . وَتَوَجَّهْنا شَطْرَ لَندن ، وَنحنُ نَمْشي مَعاً في السّاعاتِ الأولى الهادِئَةِ مِنَ اليَوْمِ الجَديدِ ، أنا وَهَذِهِ الفَتاةُ الّتي كُنْتُ أجْهَلُ هُوِيَّتَها وَقِصَّتَها . كانَ ذَلِكَ أشْبَهَ بِحُلْمٍ .

وَفَجْأةً تَكَلَّمَتْ .

قالَتْ : « أريدُ أنْ أسْألَكَ ... أ تَعرِفُ أناساً كَثيرينَ في لَندن ؟»

« أجَلْ ، أعرِفُ كَثيرينَ جِدًّا .»

« رِجالاً مِنْ ذَوي الألْقابِ ؟»

قُلْتُ بَعْدَ فَتْرَةِ صَمْتٍ : « بَعْضَهُمْ .»

« رِجالاً كَثيرينَ مِنَ الباروناتِ ؟»

قُلْتُ مُسْتَغْرِبًا : « لِمَ تَسْألينَ ؟»

« لأنّني آمُلُ ، مِنْ أجْلِكَ أنْتَ ، أنَّ يَكونَ ثَمَّ واحِدٌ مِنَ الباروناتِ لا تَعْرِفُهُ .»

« هَلاّ أخبَرْتَني بِاسْمِهِ ؟»

قالَتْ بِصَوْتٍ عالٍ وَبِوَحْشِيَّةٍ : « لا أسْتَطيعُ . لا أجْرُؤُ على

ذَلِكَ . وَلكِنْ قُلْ لي أيُّهُمْ تَعْرِفُ ؟»

لَمْ أسْتَطِعْ أنْ أرْفُضَ مِثْلَ هَذا الرَّجاءِ البَسيطِ فَذَكَرْتُ لَها ثَلاثَةَ أسْماءٍ .

قالَتْ وَهِيَ تَتَنَهَّدُ مُمْتَنَّةً : « آهٍ أنْتَ لا تَعْرِفُهُ . هَلْ أنْتَ الآخَرُ مِنْ ذَوي الألْقابِ ؟»

« لا ، أنا لَسْتُ إلّا مُدَرِّسَ رَسْمٍ .»

كَرَّرَتْ قَوْلَها : « لَسْتَ مِنْ ذَوي الألْقابِ . الحَمْدُ لِلّهِ ! إذاً أسْتَطيعُ أنْ أثِقَ بِكَ .»

وَ واصَلْنا المَسيرَ وَأنا أقَلِّبُ كَلِماتِها في ذِهْني. لا بُدَّ أنَّ أحَدَ الباروناتِ قَدْ ألْحَقَ بِها ظُلْماً فادِحاً ، وَلكِنَّها ما كانَتْ لِتَشْرَحَ المَزيدَ . وَكُنّا قَدْ وَصَلْنا إلى أوَّلِ المَنازِلِ قَبْلَ أنْ تَتَحَدَّثَ ثانِيَةً .

سَألَتْ : « أ تُقيمُ في لَندن ؟»

« نَعَمْ . وَلكِنّي ذاهِبٌ إلى الرّيفِ غَداً ؛ إلى كمبرلاند .»

رَدَّدَتِ الكَلِمَةَ في رِقَّةٍ وَحُنُوٍّ : « كمبرلاند ! آه ! بِوُدّي لَوْ أنّني كُنْتُ ذاهِبَةً إلى هُناكَ أيْضاً . كُنْتُ - ذاتَ مَرَّةٍ - سَعيدَةً في كمبرلاند .»

سَأَلْتُها : « رُبَّما وُلِدْتِ في مَنْطِقَةِ البُحَيْراتِ الجَميلَةِ ؟ »

أجابَتْ : « لا ، لَقَدْ وُلِدْتُ في هامْبشير ، وَلكِنَّني ذَهَبْتُ لِمُدَّةٍ قَصيرَةٍ لِمَدْرَسَةٍ في كمبرلاند ، في قَرْيَةِ ليميريدج . »

واعْتَرَتْني الدَّهْشَةُ ، وَتَوَقَّفْتُ فَجْأَةً ، حَتّى إنَّها سَأَلَتْ بِقَلَقٍ إنْ كُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ أحَدًا يُنادينا .

« لا ، لا ، لَقَدْ دَهِشْتُ فَقَطْ لِسَماعي اسْمَ ليميريدج . سَمِعْتُهُ مِنْ بَعْضِ أهالي كمبرلاند مُنْذُ أيّامٍ قَلائِلَ . »

« آهٍ ! لَيْسَ مِمَّنْ أعْرِفُهُمْ . لَقَدْ ماتَتِ السَّيِّدَةُ فيرلي ، وَكانَتْ عَطُوفًا عَلَيَّ ، في أيّامٍ مَضَتْ . »

وَبَعْدَ أنْ مَضَيْنا في سَيْرِنا قَليلاً ، رَأَيْتُ عَرَبَةً تَقِفُ عَلى مَقْرُبَةٍ مِنّا فَنادَيْتُ السّائِقَ . وَبَيْنَما كانَتْ تَرْكَبُها ، عَرَضْتُ عَلَيْها أنْ أذْهَبَ مَعَها ؛ كَي أطْمَئِنَّ عَلى سَلامَتِها حَتّى نِهايَةِ رِحْلَتِها ، وَلكِنَّها رَفَضَتْ قائِلَةً إنَّها ، الآنَ ، آمِنَةٌ وَسَعيدَةٌ وَأضافَتْ: « دَعْهُ يَنْطَلِقْ حَتّى أصِلَ . شُكْرًا لَكَ . آهٍ ! شُكْرًا ! شُكْرًا ! »

وَكانَتْ يَدي عَلى البابِ ، وَانْطَلَقَتِ العَرَبَةُ في نَفْسِ اللَّحْظَةِ ، وَسُرْعانَ ما تَلاشى صَوْتُ العَجَلاتِ بِابْتِعادِها .

وَمَرَّتْ عَشْرُ دَقائِقَ أوْ ما يَزيدُ وَأنا لا أزالُ عَلى نَفْسِ الجانِبِ مِنَ

الطَّريقِ . كُنْتُ أواصِلُ السَّيْرَ ، أحْيانًا عَلى نَحْوٍ آلِيٍّ ، وَأتَوَقَّفُ أحْيانًا أُخْرى ، وَأنا أُفَكِّرُ في مُغامَرَتي ، مُتَحَيِّرًا مُضْطَرِبَ الفِكْرِ ؛ فَقَدِ اسْتَحْوَذَ عَلَيَّ شُعورٌ بِأنَّني قَدْ أخْطَأْتُ وَلكِنَّني لَمْ أسْتَطِعْ مَعْرِفَةَ ماذا كانَ يَنْبَغي عَلَيَّ عَمَلُهُ . وَعَلى حينِ غِرَّةٍ ، عادَتْ أفْكاري الشّارِدَةُ إلى عالَمِ الحَقيقَةِ عَلى صَوْتِ عَجَلاتٍ خَلْفي . وَمَرَّتْ بي مَرْكَبَةٌ مَكْشوفَةٌ بِها رَجُلانِ . وَعِنْدَما تَلَفَّتُّ حَوْلي رَأَيْتُ شُرْطِيًّا يَتَهادى في مِشْيَتِهِ عَلى الجانِبِ الآخَرِ مِنَ الطَّريقِ .

صاحَ أحَدُ الرَّجُلَيْنِ : « تَوَقَّفْ ! هُناكَ شُرْطِيٌّ ! فَلْنَسْألْهُ . »

وَتَوَقَّفَتِ المَرْكَبَةُ وَصاحَ الرَّجُلُ : « أيُّها الشُّرْطِيُّ ! أ رَأَيْتَ فَتاةً تَمُرُّ بِهَذا الطَّريقِ ؟ »

« ما أوْصافُها ، يا سَيِّدي ؟ »

« فَتاةٌ تَلْبَسُ رِداءً أبْيَضَ . »

« لَمْ أرَها ، يا سَيِّدي . »

« إنْ قابَلْتَها ؛ أوْ رَآها أحَدٌ مِنْ رِجالِكَ ، فاسْتَوْقِفْها وَأرْسِلْها في حِراسَةٍ مُشَدَّدَةٍ عَلى هَذا العُنْوانِ . وَسَأدْفَعُ لَكَ بِسَخاءٍ . »

وَنَظَرَ الشُّرْطِيُّ إلى البِطاقَةِ الَّتي أعْطَيْتُ لَهُ ثُمَّ سَأَلَ : « وَلِمَ

نَسْتَوْقِفُها ، يا سَيِّدي ؟ ماذا فَعَلَتْ ؟»

« فَعَلَتْ ؟ لَقَدْ هَرَبَتْ مِنْ مُسْتَشْفايَ – مُسْتَشْفى الأَمْراضِ العَقْلِيَّةِ . لا تَنْسَ ، فَتاةٌ تَلْبَسُ رِداءٍ أَبْيَضَ .» ثُمَّ قالَ مُخاطِباً السّائِقَ :
« هَيّا .»

الفَصْلُ الثّاني

« لَقَدْ هَرَبَتْ مِنْ مُسْتَشْفايَ – مُسْتَشْفى الأَمْراضِ العَقْلِيَّةِ . »

لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَقولَ إِنَّني دَهِشْتُ كُلَّ الدَّهْشَةِ ؛ فَقَدْ كانَتْ بَعْضُ أَسْئِلَتِها غَريبَةً حَقًّا ، إِلّا أَنَّ فِكْرَةَ جُنونِها لَمْ تَخْطِرْ لي بِبالٍ . سَأَلْتُ نَفْسي : « ماذا فَعَلْتُ ؟ أَ ساعَدْتُ مَخْلوقَةً تَعِسَةً عَلى الفِرارِ مِنْ أَسْوَإِ أَيّامِ سِجْنٍ مُلَفَّقٍ ؟ أَمْ تُرى أَنَّني قَدْ أَطْلَقْتُ – وَفي لَنْدَن – سَراحَ فَتاةٍ مَجْنونَةٍ مِسْكينَةٍ كانَ يَجِبُ عَلى كُلِّ إِنْسانٍ أَنْ يَمْنَعَها مِنَ الهَرَبِ ؟ » وَتَمَلَّكَني شُعورٌ بِالحُزْنِ وَالقَلَقِ . وَعِنْدَما وَصَلْتُ إِلى مَسْكَني كانَ مِنَ الواضِحِ أَنْ لا فائِدَةَ مِنْ مُحاوَلَةِ النَّوْمِ . جَلَسْتُ وَحاوَلْتُ أَنْ أَرْسُمَ ، وَلَكِنَّ أَفْكاري عَنْ تِلْكَ الفَتاةِ ذاتِ الرِّداءِ الأَبْيَضِ صَرَفَتْ عَقْلي تَماماً عَنِ العَمَلِ . تُرى أَ أَصابَها مَكْروهٌ ؟ أَيْنَ أَوْقَفَتِ المَرْكَبَةَ؟ ماذا حَدَثَ لَها الآنَ ؟ هَلْ أَمْسَكَ بِها الرِّجالُ في المَرْكَبَةِ الثّانِيَةِ ، أَمْ أَنَّها ما زالَتْ حُرَّةً طَليقَةً ؟

وَتَنَفَّسْتُ الصُّعَداءَ عِنْدَما حانَتْ ساعَةُ إغْلاقِ بابِ شَقَّتي وَالرَّحيلِ مِنْ لَنْدَن إلى الشَّمالِ .

وَتَعَطَّلَ القِطارُ بِسَبَبِ حادِثٍ بَسيطٍ ، فَلَمْ أَصِلْ إلى ليميريدج هاوس إلّا بَعْدَ أنْ أَوَتِ الأَسْرَةُ إلى الفِراشِ . وَقادَني خادِمٌ إلى غُرْفَةٍ رَحيبَةٍ حَيْثُ كانَ عَشائي بِانْتِظاري ، ثُمَّ قادَني بَعْدَ رُبْعِ ساعَةٍ إلى غُرْفَةِ نَوْمي .

قالَ وَهُوَ يَنْصَرِفُ بَعْدَ أنْ أَلْقى حَوْلَهُ نَظْرَةً أَخيرَةً لِيَتَأَكَّدَ أنَّ كُلَّ شَيْءٍ على ما يُرامُ : « الإفْطارُ في السّاعَةِ التّاسِعَةِ .»

اِنْتابَني شُعورٌ غَريبٌ وَأَنا أَنامُ في هَذا البَيْتِ كَصَديقٍ لِلأُسْرَةِ ، وَإنْ كُنْتُ لا أَعْرِفُ بَعْدُ أَحَداً مِنْهُمْ .

وَعِنْدَما اسْتَيْقَظْتُ في الصَّباحِ رُحْتُ أَتَطَلَّعُ مِنْ خِلالِ النّافِذَةِ : كانَ البَحْرُ مُنْبَسِطاً تَحْتَ شَمْسِ أُغُسْطُسَ السّاطِعَةِ ، وَكانَ المَنْظَرُ فَريداً في جَمالِهِ وَرَوْعَتِهِ بِالمُقارَنَةِ بِمَساكِنِ لَنْدَن المُتَلاصِقَةِ ، حَتّى بَدا لي كُلَّما وَقَعَتْ عَيْنايَ عَلَيْهِ أَنَّني أَتَفَجَّرُ بِحَياةٍ جَديدَةٍ .

وَقُبَيْلَ السّاعَةِ التّاسِعَةِ هَبَطْتُ إلى الطّابَقِ الأَرْضِيِّ . وَأَرْشَدَني خادِمُ اللَّيْلَةِ البارِحَةِ إلى غُرْفَةِ الطَّعامِ .

وَفَتَحَ البابَ ، فَرَأَيْتُ مائِدَةً كَبيرَةً في وَسَطِ غُرْفَةٍ مُسْتَطيلَةٍ ذاتِ

نَوافِذَ عَديدَةٍ . وَهُناكَ عِنْدَ آخِرِ نافِذَةٍ كانَتْ تَقِفُ سَيِّدَةٌ وَقَدْ أَوْلَتْ ظَهْرَها نَحْوي ، وَاسْتَوْقَفَني جَمالُ وِقْفَتِها . كانَتْ مَمْشوقَةَ القَدِّ وَإنْ لَمْ تَكُنْ فارِعَةَ القَوامِ . لَمْ تَكُنْ قَدْ فَطِنَتْ إلى دُخولي ، فَجَذَبْتُ انْتِباهَها بِتَحْريكِ أَحَدِ المَقاعِدِ مِنْ مَوْضِعِهِ ، فاسْتَدارَتْ وَاتَّجَهَتْ صَوْبي ؛ فَلاحَظْتُ أَنَّها فَتاةٌ سَمْراءُ . وَتَقَدَّمَتْ نَحْوي بِضْعَ خُطُواتٍ ، فَقُلْتُ لِنَفْسي : « إنَّها شابَّةٌ في رَيْعانِ الشَّبابِ . » وَلَكِنَّها حينَ دَنَتْ مِنّي أَكْثَرَ فَأَكْثَرَ ، أَلْفَيْتُها فَتاةً دَميمَةً .

سَأَلَتْ وَقَدْ أَشْرَقَ وَجْهُها بِابْتِسامَةٍ : « السَّيِّدُ هارترايت ؟ لَقَدْ فَقَدْنا الأَمَلَ في وُصولِكَ بِالأَمْسِ فَأَوَيْنا إلى مَضاجِعِنا . هَلّا قَبِلْتَ اعْتِذاري ؟ اِسْمَحْ لي أن أُقَدِّمَ نَفْسي إلَيْكَ كَإحْدى تِلْميذاتِكَ . دَعْنا نَتَصافَحْ .»

فاهَتْ بِهَذِهِ الكَلِماتِ بِصَوْتٍ طَروبٍ واضِحِ النَّبَراتِ . وَجَلَسْنا إلى مائِدَةِ الإفْطارِ وَكَأَنَّنا صَديقانِ حَميمانِ الْتَقَيا لِيَتَحَدَّثا عَنِ الأَيّامِ الخَوالي .

قالَتْ : « أُخْتي في غُرْفَتِها تُعاني صُداعاً خَفيفاً ، وَالسَّيِّدَةُ ڤيزي ، المُرَبِّيَةُ العَجوزُ تَقومُ على رِعايَتِها . وَعَمّي السَّيِّدُ فيرلي لا يُشارِكُنا في أَيٍّ مِنْ وَجَباتِنا ؛ إنَّهُ رَجُلٌ مَريضٌ . لِذا سَأَكونُ اليَوْمَ رَفيقَتَكَ الوَحيدَةَ على الإفْطارِ .

وَقَدَّمَتْ لِيَ الشّايَ ، وَانْطَلَقَتْ تَتَحَدَّثُ وَتَضْحَكُ في بَهْجَةٍ وَمَرَحٍ . قالَتْ : « يَحْسُنُ أَنْ أَقولَ لَكَ شَيْئًا عَنْ أُسْرَتِنا : اِسْمي ماريان هالكوم. والِدَتي تَزَوَّجَتْ مَرَّتَيْنِ : في الأولى بِأَبي – السَّيِّدِ هالكوم ، فَلَمّا تُوُفِّيَ تَزَوَّجَتِ السَّيِّدَ فيرلي والِدَ أُخْتي غَيْرِ الشَّقيقَةِ ، وَتُوُفِّيَ أَبوها هِيَ الأُخْرى .

« أَنا وَهِيَ مُخْتَلِفَتانِ تَمامًا . كانَ أَبي فَقيرًا ، أَمّا أَبوها فَكانَ غَنِيًّا ، وَأَنا سَمْراءُ وَدَميمَةٌ ، أَمّا هِيَ فَشَقْراءُ وَجَميلَةٌ . ماذا أَقولُ لَكَ عَنْ عَمِّها السَّيِّدِ فيرلي ؟ مِنَ المُؤَكَّدِ أَنَّهُ سَيَبْعَثُ في طَلَبِكَ بَعْدَ الإِفْطارِ ، وَحينَئِذٍ تَسْتَطيعُ أَنْ تَدْرُسَهُ بِنَفْسِكَ ، وَلَكِنَّني قَدْ أُنَبِّئُكَ الآنَ. أَوَّلاً : إِنَّهُ الأَخُ الأَصْغَرُ لأَبيها ، ثانِيًا : إِنَّهُ رَجُلٌ عازِبٌ ، وَثالِثًا : إِنَّهُ الوَصِيُّ عَلى الآنِسَةِ فيرلي . أَنا لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَعيشَ بِدونِها ، وَهِيَ لا تَسْتَطيعُ أَنْ تَعيشَ بِدوني . هَذا هُوَ سَبَبُ وُجودي هُنا . أَنا وَأُخْتي شَغِفَتانِ إِحْدانا بِالأُخْرى ، وَعَلَيْكَ أَلا تَنْحازَ لأَيٍّ مِنّا . سَنَكونُ في صُحْبَتِكَ ؛ لأَنَّ السَّيِّدَةَ ڤيزي عَلى الرَّغْمِ مِنِ امْتِيازِ فَضائِلِها ، فَلا وُجودَ لَها . وَالسَّيِّدُ فيرلي في حالَةٍ مَرَضِيَّةٍ يَتَعَذَّرُ مَعَها أَنْ يَكونَ رَفيقًا لأَيِّ إِنْسانٍ . وَلا يَعْرِفُ أَحَدٌ ما دَهاهُ . الكُلُّ يَقولُ إِنَّها الأَعْصابُ وَإِنْ كُنّا لا نَدْري ما نَعْنيهِ بِذَلِكَ . وَلَكِنْ إِنْ أَظْهَرْتَ إِعْجابَكَ بِلَوْحاتِهِ وَرُسومِهِ فَإِنَّكَ سَتَحْظى بِرِضاهُ . »

وَبَيْنَما كُنّا نَتَحَدَّثُ عَنْ ليميريدج هاوس تَحَوَّلَتْ أَفْكاري إِلى لِقائي بِالفَتاةِ ذاتِ الرِّداءِ الأَبْيَضِ . فَلَمّا سَنَحَتِ الفُرْصَةُ حَدَّثْتُها عَنْ مُغامَرَتي في الطَّريقِ بِالقُرْبِ مِنْ لَنْدن ، وَتَلاقَتْ عَيْناها البَرّاقَتانِ بِعَيْنَيَّ مِنْ بِدايَةِ الحِكايَةِ إِلى نِهايَتِها ، وَنَمَّ وَجْهُها عَنِ اهْتِمامٍ وَدَهْشَةٍ .

قُلْتُ : « مِنَ المُؤَكَّدِ أَنَّ تِلْكَ الفَتاةَ كانَتْ بِمَدْرَسَةِ هَذِهِ القَرْيَةِ ، وَكانَتْ تُعامَلُ بِعَطْفٍ وَحَنانٍ مِنْ قِبَلِ السَّيِّدَةِ فيرلي .»

« هَلْ عَجَزْتَ تَمامًا عَنِ اكْتِشافِ اسْمِها ؟»

« تَمامًا .»

« عَلَيْنا أَنْ نَحُلَّ هَذا اللُّغْزَ بِطَريقَةٍ ما . مِنَ الأَفْضَلِ أَلا نَتَكَلَّمَ عَنْهُ الآنَ لِلسَّيِّدِ فيرلي أَو لأُخْتي ؛ لأَنَّهُما عَصَبِيّا المِزاجِ ، شَديدا الحَساسِيَةِ . لَكِنَّني أَنْوي أَن أَحُلَّ هَذا اللُّغْزَ فَحينَ قَدِمَتْ أُمّي إِلى هَذا المَكانِ ، أَنْشَأَتْ مَدْرَسَةَ القَرْيَةِ ، وَلَكِنَّ كُلَّ قُدامى المُدَرِّسينَ إِمّا تُوُفّوا وَإِمّا رَحَلوا .»

وَهُنا دَخَلَ خادِمٌ وَمَعَهُ رِسالَةٌ لِيُخْبِرَنا أَنَّ السَّيِّدَ فيرلي يُسْعِدُهُ أَنْ يَراني عَقِبَ تَناوُلِ إِفْطاري .

قالَتْ لَهُ الآنِسَةُ هالكوم : « اِنْتَظِرْ في القاعَةِ . سَيَجيءُ السَّيِّدُ

هارترايت حالاً .» ثُمَّ الْتَفَتَتْ إليَّ و واصلَتِ الحديثَ : « أريدُ أنْ
أقولَ لكَ إنَّ لَدَيَّ مَجْموعَةً كَبيرَةً مِنْ رَسائِلِ أمّي القَديمَةِ ، سأقومُ
بِتَصفُّحِها . كانَتْ تَكْتُبُ إلى زَوْجِها أثْناءَ أسْفارِهِ لِتُنْبِئَهُ عَنْ أخْبارِ
القَرْيَةِ .

« الغَداءُ السّاعَةَ الثّانِيَةَ ، يا سَيِّدُ هارترايت ، وَحَتّى يَحينَ ذَلِكَ
الوَقْتُ ، سَيُسْعِدُني أنْ أُقَدِّمَ أُخْتي إلَيْكَ . إلى اللِّقاءِ .»

وَأوْمأتْ لي في رِقَّةٍ وَعُذوبَةٍ ، واسْتَدَرْتُ في إثْرِ الخادِمِ
كَيْ أذْهَبَ لِلْمَرَّةِ الأولى لِلِقاءِ السَّيِّدِ فيرلي .

الفَصْلُ الثّالِثُ

اجْتَزْنا بَعْضَ المَمَرّاتِ ، ثُمَّ دَلَفْنا مِنْ بابَيْنِ ، وَخَلْفَ البابِ الثّاني
كانَتْ تَنْسَدِلُ سِتارَتانِ مِنَ الحَريرِ الأخْضَرِ الفاتِحِ . وَأزاحَ الخادِمُ
إحْداها في هُدوءٍ ، ثُمَّ قالَ بِصَوْتٍ خَفيضٍ : « السَّيِّدُ هارترايت . »
وَتَرَكَني .

وَجَدْتُ نَفْسي في غُرْفَةٍ رَحيبَةٍ ، تَكْسوها سَجّادَةٌ كَثيفَةٌ لِلْغايَةِ ،
وَقَدِ امْتَدَّتْ عَلى طولِ أحَدِ جُدْرانِها خِزانَةُ كُتُبٍ تَعْلوها الزَّخارِفُ ،
وَانْبَثَّتْ في كُلِّ أرْجاءِ الغُرْفَةِ مَناضِدُ تَحْمِلُ حِلْياتٍ وَتَماثيلَ
صَغيرَةً. كانَ كُلُّ شَيءٍ مُضاءً بِنورٍ خافِتٍ يُطِلُّ مِنَ النَّوافِذِ المَكْسُوَّةِ
بِالسَّتائِرِ. وَكانَ رَبُّ البَيْتِ يَجْلِسُ في مَقْعَدٍ وَثيرٍ كَبيرٍ . كانَ رَجُلاً
بَيْنَ الخَمْسينَ وَالسِّتّينَ مِنَ العُمْرِ ، شاحِبَ الوَجْهِ ، واسِعَ العَيْنَيْنِ ،
أشْيَبَ الشَّعْرِ . وَكانَ يُزَيِّنُ يَدَيْهِ الصَّغيرَتَيْنِ خاتَمانِ نَفيسانِ . كانَ
مَظْهَرُهُ يوحي بِنُعومَةٍ لا تَليقُ بِرَجُلٍ ، فَشَعَرْتُ لِتَوّي بِكَراهِيَةٍ نَحْوَهُ .

قالَ بِصَوْتٍ عالٍ مُتكاسِلٍ : « أنا سَعيدٌ جِدًّا بِقُدومِكَ إلى ليميريدج ، يا سَيِّدُ هارترايت . تَفَضَّلْ بِالجُلوسِ ، وَلكِنْ لا تُحَرِّكِ المَقْعَدَ ؛ فَأيُّ حَرَكَةٍ تُؤْلِمُني كثيراً نَظَرًا لِحالَةِ أعْصابي . أ يَطيبُ لكَ المُقامُ في جَناحِكَ ؟ »

« جِدًّا . »

وَلكِنَّهُ قاطَعَني قائِلاً : « مَعْذِرَةً . هَلْ تَسْتَطيعُ أنْ تَخْفِضَ مِنْ صَوْتِكَ ؟ الصَّوْتُ العالي ضارٌّ جِدًّا لأعْصابي . »

قُلْتُ بِصَوْتٍ خَفيضٍ : « أنا مُرْتاحٌ لِلْغايَةِ . »

« عَظيمٌ ، عَظيمٌ ! وَالآنَ ، هَلْ يَكْفيكَ مُرَتَّبُكَ ؟ »

« كُلَّ الكِفايَةِ ، يا سَيِّدُ فيرلي . »

« عَظيمٌ . و ... ماذا بَعْدُ ؟ أمْرٌ غَريبٌ . أ لَيْسَ كَذَلِكَ ؟ كانَ لَدَيَّ الكَثيرُ لأقولَهُ ، وَلكِنْ يَبْدو أنَّني نَسيتُ تَماماً . هَلْ تَسْمَحُ بِلَمْسِ الجَرَسِ ؟ في الرُّكْنِ . نَعَمْ ، شُكْرًا . »

وَضَغَطْتُ بِرِفْقٍ عَلى زِرِّ الجَرَسِ وَهُوَ يُغْمِضُ عَيْنَيْهِ بِطَريقَةِ المُتْعَبِ المَكْدودِ . وَجاءَ خادِمٌ آخَرُ ، فَطَلَبَ مِنْهُ السَّيِّدُ فيرلي أنْ يُناوِلَهُ مُفَكِّرَةً أخَذَ يُقَلِّبُ صَفَحاتِها ، ثُمَّ طَلَبَ مِنْهُ أنْ يُنْزِلَ بَعْضَ اللَّوْحاتِ الَّتي عَلى الرَّفِّ ، وَأرْدَفَ يَقولُ :

« إيّاكَ أنْ توقِعَها ! فَأنْتَ لَنْ تَتَصَوَّرَ مَدى الألَمِ الَّذي سَأعانيهِ إنْ أوْقَعْتَها. أ هِيَ في أمانٍ وَهِيَ عَلى المَقْعَدِ ؟ أ تَعْتَقِدُ أنَّها في أمانٍ ، يا سَيِّدُ هارترايت ؟ نَعَمْ .. عَظيمٌ جِدًّا . اِنْصَرِفْ ، يا لويس . أ تَتَكَرَّمُ بِالنَّظَرِ إلى هَذِهِ اللَّوْحاتِ ، يا سَيِّدُ هارترايت ؟ ما رَأْيُكَ فيها ؟ حَصَلْنا عَلَيْها في مَزادٍ وَهِيَ في حالَةٍ يُرْثى لَها ، وَتَفوحُ مِنْها رائِحَةٌ كَريهَةٌ . أ يُمْكِنُكَ أن تُصْلِحَ مِنْ حالِها ؟ »

حَقًّا ، كانَتْ مِثالاً رائِعًا لِلْفَنِّ الإنْجليزِيِّ ، فَقُلْتُ إنَّها قَيِّمَةٌ لِلْغايَةِ ، وَتَسْتَحِقُّ كُلَّ عِنايَةٍ .

كانَ السَّيِّدُ فيرلي يُنْصِتُ إلَيَّ وَعَيْناهُ مُغْمَضَتانِ ، وَلكِنَّهُ فَتَحَهُما فَجْأَةً قائِلاً : « أرْجوكَ أنْ تَعْذُرَني ، يا سَيِّدُ هارترايت . وَلكِنَّني أسْمَعُ صَوْتَ أطْفالٍ مُزْعِجينَ في حَديقَتي . »

قُلْتُ : « أنا لا أسْمَعُ شَيْئًا . »

« هَلّا تَكَرَّمْتَ بِأنْ تُطِلَّ مِنَ النّافِذَةِ ، وَلكِنْ لا تَدَعِ الشَّمْسَ تَدْخُلُ وَتَتَسَلَّطُ عَلَيَّ ، يا سَيِّدُ هارترايت . »

وَفَعَلْتُ ما طَلَبَهُ ، وَلكِنَّ الحَديقَةَ كانَتْ خالِيَةً .

« ألْفُ شُكْرٍ . إنَّهُ خَيالي الَّذي صَوَّرَ لي ذَلِكَ ، كَما أظُنُّ . كَمْ أكْرَهُ الأطْفالَ ! أ هُناكَ شَيْءٌ آخَرُ نُناقِشُهُ ؟ »

كُنْتُ في ذَلِكَ الوَقْتِ مُتلهِّفاً مِثْلَهُ على إنْهاءِ حديثِنا ، فوَجَّهْتُ إلَيْهِ سُؤالاً واحِداً كانَ عالِقاً بِذِهْني .

« النُّقْطَةُ الوَحيدَةُ والأخيرَةُ ، يا سَيِّدُ فيرلي ، تَتعلَّقُ بِعَمَلي مَعَ الآنِسَتَيْنِ . »

قالَ : « آهِ بِالضَّبْطِ ! لَيْتَني كُنْتُ أشْعُرُ أنَّني مِنَ القُوَّةِ بِحَيْثُ أسْتَطيعُ مُناقَشَةَ الأمْرِ . ولَكِنَّني لا أشْعُرُ بِذَلِكَ الآنَ . الآنِستانِ ، يا سَيِّدُ هارترايت ، يَجِبُ أنْ يُقرِّرا لِنَفْسَيْهِما . أ هُناكَ شَيْءٌ آخَرُ ؟ لا ؟ إذاً فَنَحْنُ مُتَفاهِمانِ تَماماً . أ لَيْسَ كَذَلِكَ ؟ لا يَنْبَغي أنْ أُبْقِيَكَ أكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ . أ تَتَفَضَّلُ بِإغْلاقِ الأبْوابِ بِلُطْفٍ ، وبِألا توقعَ اللَّوْحاتِ ؟ شُكْراً لَكَ . رِفْقاً بِالسَّتائِرِ . إنَّ أخفَّ ضَوْضاءٍ تُؤَثِّرُ فِيَّ وكأنَّها سِكِّينٌ تَشْطُرُني . نَعِمْتَ صَباحاً . »

وتَنَفَّسْتُ الصُّعَداءَ حينَ خَرَجْتُ مِنْ عِنْدِهِ . وذَهَبْتُ إلى غُرْفَةِ الجُلوسِ المُخَصَّصَةِ لي . وقَرَّرْتُ – في التَّوِّ واللَّحْظَةِ – ألا أذْهَبَ مَرَّةً أُخرى لِرُؤْيَةِ السَّيِّدِ فيرلي ما لَمْ أُدْعَ إلَيْهِ . وبِفَضْلِ هذا القَرارِ ، بَدَأْتُ العَمَلَ على لَوْحاتِهِ بِحالَةٍ نَفْسِيَّةٍ مُطْمَئِنَّةٍ .

وفي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ نَزَلْتُ لِتَناوُلِ الغَداءِ . ولَكِنْ لَمْ يَظْهَرْ أثَرٌ لِلآنِسَةِ فيرلي فَتَناوَلْنا الطَّعامَ بِدونِها . وبَعْدَ الغَداءِ قادَتْني الآنِسَةُ

هالكوم إلى الحَديقَةِ ، وأخْبَرَتْني أنَّها لَمْ تَكْتَشِفْ بَعْدُ أيَّ شَيْءٍ في خِطاباتِ أُمِّها .

ومَضَتْ تَقولُ : « ولَكِنَّني لَمْ أفْحَصْ كُلَّ الخِطاباتِ ، فَما زالَ لَدَيَّ ثَلاثُ مَجْموعاتٍ أُخْرى . اِطْمَئِنَّ ؛ سأُكَرِّسُ المَساءَ لَها . »

كُنّا نَسيرُ ، ونَحْنُ نَتَحَدَّثُ ، نَحْوَ بَيْتٍ صَيْفِيٍّ مِنَ الخَشَبِ وإذا بي أرى في غُرْفَتِهِ الوَحيدَةِ فَتاةً في رَيْعانِ شَبابِها . كانَتْ تَقِفُ بِجِوارِ مِنْضَدَةٍ وهِيَ تُطِلُّ عَلى المَنْظَرِ أمامَها ، وتُقَلِّبُ بِلا اهْتِمامٍ صَفَحاتِ كُرّاسَةِ رَسْمٍ . كَيْفَ أصِفُها ؟ كَيْفَ أُفَرِّقُ بَيْنَها وبَيْنَ مَشاعِري وبَيْنَ كُلِّ ما حَدَثَ فيما بَعْدُ ؟ كَيْفَ أراها ثانِيَةً كَما تَبَدَّتْ عِنْدَما اسْتَقَرَّتْ عَلَيْها عَيْنايَ لأوَّلِ مَرَّةٍ ؟

رَأيْتُ فَتاةً رَقيقَةً في رِداءٍ بَسيطٍ ، يُتَوِّجُ رَأْسَها شَعْرٌ كَسْتَنائِيٌّ فاتِحٌ تَعْلوهُ قُبَّعَةٌ صَغيرَةٌ . كانَتْ عَيْناها زَرْقاوَيْنِ جَميلَتَيْنِ مُتَأمِّلَتَيْنِ ، تَنُمّانِ عَنْ صِدْقٍ وطَهارَةٍ . كانَتا مِنَ الرَّوْعَةِ حَتّى لَيَتَعَذَّرُ النَّظَرُ إلى باقي وَجْهِها . وكانَتْ شَفَتاها خَلاّبَتَيْنِ رَغْمَ ما كانَ يَبْدو عَلَيْها مِنْ حَياءٍ حالَ ابْتِسامَتِها . كانَ صَوْتُها عِنْدَما تَتَكَلَّمُ حُلْوَ النَّغَماتِ . وكانَتْ خُطُواتُ مِشْيَتِها رَقيقَةً هَيِّنَةً . ولَكِنَّ تَعْبيرَها العَذْبَ وبَساطَةَ أُسْلوبِها مَمْزوجانِ بِتَأثيرِ وَجْهِها الجَذّابِ . كانَ يوحي إلَيَّ بِشُعورٍ خاصٍّ . كُنْتُ أشْعُرُ بِشَيْءٍ أفْتَقِدُهُ ، إمّا فيها وإمّا في نَفْسي . ولَكِنْ

ما هَذا الشَّيْءُ ؟ لَمْ أدْرِ .

وَقَدَّمَتْنا الآنِسَةُ هالكوم ثُمَّ أشارَتْ ضاحِكَةً إلى كُرّاسَةِ الرَّسْمِ بِيَدِ أخْتِها قائِلَةً: « يا لَها مِنْ تِلْميذَةٍ رائِعَةٍ ، يا سَيِّدُ هارترايت ! ما إنْ تَسْمَعْ أنَّكَ في البَيْتِ حَتّى تُمْسِكَ بِكُرّاسَةِ رَسْمِها تُريدُ أنْ تَبْدَأ .»

قالَتِ الآنِسَةُ فيرلي : « نَعَمْ ، أخْشى البِدايَةَ . أشْعُرُ وَكَأنَّني فَتاةٌ صَغيرَةٌ تُراجِعُ دُروسَها قَبْلَ الذَّهابِ إلى المَدْرَسَةِ .»

قالَتِ الآنِسَةُ هالكوم : « سَواءٌ أ كانَتْ رسومُ التِّلْميذَةِ جَيِّدَةً أمْ رَديئَةً ، فَلا بُدَّ أنْ تَجْتازَ نيرانَ حُكْمِ الأسْتاذِ . دَعونا نَخْرُجْ لِلنُّزْهَةِ



وَنَأْخُذْها مَعَنا . هَيّا أريها لِلسَّيِّدِ هارترايت – لأوَّلِ مَرَّةٍ – لَحْظَةَ كَوْنِهِ غَيْرَ قادِرٍ على تَرْكيزِ كُلِّ انْتِباهِهِ عَلَيْها .»

وَرَكِبْنا العَرَبَةَ ، واسْتَحالَ كُلُّ نَقْدٍ جادٍّ لِلرُّسومِ إلى هَذَرٍ في ظِلِّ حَديثِ الآنِسَةِ هالكوم السّاخِرِ ، عَنِ الآنِساتِ والسَّيِّداتِ اللّاتي يَتَعَلَّمْنَ الفُنونَ الجَميلَةَ . كُنْتُ أنْظُرُ أحْيانًا إلى كُرّاسَةِ الرَّسْمِ ، وَلَكِنَّني أعْتَرِفُ بِأنَّني كُنْتُ أنْظُرُ إلى الآنِسَةِ فيرلي أكْثَرَ وَأكْثَرَ . كُنْتُ أسْتَمْتِعُ بِالنُّزْهَةِ بِصِفَتي ضَيْفًا أكْثَرَ مِنّي مُدَرِّسَ رَسْمٍ .

كانَتِ السّاعَةُ الثّالِثَةَ قَبْلَ أنْ نَعودَ إلى البَيْتِ . وَعِنْدَما انْصَرَفَتِ الفَتاتانِ لارْتِداءِ مَلابِسِهِما لِلْغَداءِ ، وَانْفَرَدْتُ بِنَفْسي ثانِيَةً ، في غُرْفَتي ، تَبَدَّدَتْ سَعادَتي فَجْأةً ؛ إذْ شَعَرْتُ بِعَدَمِ الرِّضا عَنْ نَفْسي . رُبَّما كانَ السَّبَبُ يَكْمُنُ في الشُّعورِ بِأنَّني أفْتَقِدُ شَيْئًا ما ، إمّا في الآنِسَةِ فيرلى وَإمّا في نَفْسي .

وَفي غُرْفَةِ الجُلوسِ بَعْدَ الغَداءِ ، انْسَلَّتِ الآنِسَةُ هالكوم إلى النّافِذَةِ واسْتَمَرَّتْ في تَفَحُّصِ خِطاباتِ والِدَتِها ، عَلى حينَ راحَتِ الآنِسَةُ فيرلي تَعْزِفُ على البيانو . كانَتْ أمْسِيَةً لَنْ أنْساها بِموسيقاها العَذْبَةِ وَاطْمِئْناني النَّفْسِيِّ ، وَنورُ القَمَرِ يَتَلألأُ عَلى الأزْهارِ بِالحَديقَةِ . كانَ يَغْمُرُني شُعورٌ بِالهُدوءِ وَالارْتِياحِ .

بَعْدَ ذَلِكَ ، خَرَجَتِ الآنِسَةُ فيرلي تَسْتَنْشِقُ الهَواءَ ، فَنادَتْني الآنِسَةُ هالكوم هامِسَةً . كانَتْ تُمسِكُ بِخِطابٍ كَتَبَتْهُ أُمُّها إلى السَّيِّدِ فيليب فيرلي مُنْذُ إحْدى عَشْرَةَ أوِ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ سَنَةً ، وَأخَذَتْ تَقْرَأُ لي جُزْءاً مِنْهُ . كانَ كَما يَلي :

« لَعَلَّكَ تَعرِفُ السَّيِّدَةَ العَجوزَ كِمب صاحِبَةَ حانوتِ القَرْيَةِ . إنَّها تُحْتَضَرُ ، وَقَدْ وَصَلَتْ أُخْتُها السَّيِّدَةُ كاثيريك مِنْ هامْبشير لِرِعايَتِها . إنَّها امْرَأَةٌ مَحْمودَةُ السِّيرَةِ ، في مُنْتَصَفِ العُمْرِ ، وَلَكِنْ يَبْدو أنَّ لَدَيْها سِرًّا دَفيناً ، لِذا تَتَراءى نَظْرَةٌ غَريبَةٌ عَلى وَجْهِها . لَقَدْ طَلَبَتْ مِنّي أنْ أَقْبَلَ ابْنَتَها الصَّغيرَةَ في مَدْرَسَتي ؛ وَبِالطَّبْعِ قَبِلْتُ . إنّي أُحِبُّ تِلْميذَتي الصَّغيرَةَ حُبّاً شَديداً ، رَغْمَ أنَّ عَقْلَ المِسْكينَةِ لَيْسَ مِنَ النُّضْجِ كَما يَنْبَغي أنْ يَكونَ لِمَنْ هُوَ في مِثْلِ سِنِّها . وَقَدْ طَلَبْتُ مِنَ الطَّبيبِ أنْ يُراقِبَها ، وَهُوَ يَظُنُّ أنَّها سَتَتَغَلَّبُ عَلى هَذا النَّقْصِ ، وَلَكِنَّهُ حَذَّرَني أنَّها لِبُطْئِها في تَقَبُّلِ الأفْكارِ الجَديدَةِ ، فَإنَّها تَخْتَزِنُها في ذِهْنِها لِمُدَّةٍ طَويلَةٍ بَعْدَ أنْ تَفْهَمَها . إنَّها فَتاةٌ لَطيفَةٌ وَدودٌ ، يا عَزيزي فيليب ، وَلَكِنَّ مَلابِسَها لَمْ تَكُنْ مُناسِبَةً عِنْدَما أَقْبَلَتْ حَتّى إنّني قَدَّمْتُ لَها بَعْضاً مِنْ مَلابِسِ ابْنَتِنا العَزيزَةِ لورا البَيْضاءِ القَديمَةِ .

« فَقَبَّلَتْ يَدَيَّ وَقالَتْ : « آهِ ، يا سَيِّدَتي ، لا بُدَّ أنْ أرْتَدِيَ

مَلابِسَ بَيْضاءَ طيلَةَ حَياتي ؛ لأنَّها سَتُذَكِّرُني بِعَطْفِكِ وَحَنانِكِ نَحْوي وَتَجْعَلُني أعْتَقِدُ دائِماً أنّني أُرْضيكِ .» »

وَتَوَقَّفَتِ الآنِسَةُ هالكوم وَسَأَلَتْني إنْ كانَتِ الفَتاةُ الَّتي قابَلْتُها في الطَّريقِ تَبْدو شابَّةً في الثّانِيَةِ وَالعِشْرينَ أوِ الثّالِثَةِ وَالعِشْرينَ .

« نَعَمْ ، إنَّها في مِثْلِ هَذِهِ السِّنِّ .»

« وَكانَتْ كُلُّ مَلابِسِها بَيْضاءَ ؟»

« كُلُّها بَيْضاءُ .»

« رُبَّما كانَ الطَّبيبُ مُخْطِئاً عِنْدَما قالَ إنَّها سَتَتَخَلَّصُ مِنْ نِقاطِ ضَعْفِها ، قَدْ لا تَتَخَلَّصُ مِنْها أبَداً . رُبَّما كانَ هَذا هُوَ السَّبَبَ في أنَّها لا تَزالُ تَرْتَدي المَلابِسَ البَيْضاءَ .»

وَبَعْدَ هَذِهِ الكَلِماتِ عادَتِ الآنِسَةُ هالكوم إلى الخِطابِ :

« وَالآنَ يَنْبَغي عَلَيَّ أنْ أُخْبِرَكَ عَنْ سِرِّ شَغَفي بِآنَّ كاثيريك ، يا عَزيزي فيليب ؛ فَبِالرَّغْمِ مِنْ أنَّها لَيْسَتْ رائِعَةَ الجَمالِ ، إلّا أنَّها تُشْبِهُ ، إلى حَدٍّ كَبيرٍ ، في شَعْرِها ، وَلَوْنِ عَيْنَيْها ، وَشَكْلِ وَجْهِها ...»

وَقَفَزْتُ مِنْ مَقْعَدي ، قَبْلَ أنْ تُكْمِلَ الآنِسَةُ هالكوم قِراءَةَ

الكَلماتِ التّالِيَةِ ، إلى الخارِجِ ، في نورِ القَمَرِ حَيْثُ رَأَيْتُها ، كانَتْ تَقِفُ الآنِسَةُ فيرلي وَهِيَ تُشْبِهُ تَماماً الفَتاةَ ذاتَ الرِّداءِ الأَبْيَضِ . لَقَدْ فَهِمْتُ الآنَ ما كُنْتُ أَفْتَقِدُهُ عِنْدَما رَأَيْتُها أَوَّلَ مَرَّةٍ . كُنْتُ أَفْتَقِدُ الشَّبَهَ بَيْنَها وَبَيْنَ الفَتاةِ الَّتي كانَتْ تَسيرُ بِمُفْرَدِها في الطَّريقِ !

صاحَتِ الآنِسَةُ هالكوم : « أَ رَأَيْتَ ! هَذا ما رَأَتْهُ أُمّي مُنْذُ إِحْدى عَشْرَةَ سَنَةً ! »

« نَعَمْ أَراهُ ، وَإِنْ كُنْتُ كارِهاً لَهُ ؛ فالرَّبْطُ بَيْنَ الاثْنَيْنِ يُلْقي بِظِلالٍ عَلى مُسْتَقْبَلِ تِلْكَ المُتَأَلِّقَةِ الَّتي تَقِفُ الآنَ ناظِرَةً إِلَيْنا . فَلْنَدْعُها إلينا . »

« صَهٍ ! إِنَّها قادِمَةٌ إِلَيْنا مِنْ تِلْقاءِ نَفْسِها . لا تَذْكُرْ لَها شَيْئاً عَنْ هَذا . تَعالَيْ يا لورا . السَّيِّدُ هارترايت يُريدُ المَزيدَ مِنَ الموسيقى . يُريدُها هَذِهِ المَرَّةَ مِنْ نَوْعٍ مَرِحٍ . »

وَهَكَذا انْتَهى يَوْمِي الأَوَّلُ بِليميريدج هاوس .

الفَصْلُ الرّابع

وَمَرَّتِ الأَيّامُ وَالأَسابيعُ ، وَبَدَأَ الصَّيْفُ يَسْتَسْلِمُ لِلْخَريفِ . يا لَهُ مِنْ وَقْتٍ آمِنٍ سَعيدٍ ! كُنْتُ في الصَّباحِ أُصْلِحُ مِنْ حالِ لَوْحاتِ السَّيِّدِ فيرلي ، وَأَقْضي ما بَعْدَ الظَّهيرَةِ وَالأُمْسِيّاتِ ، أُسْبوعاً وَراءَ أُسْبوعٍ ، وَحيداً في رِفْقَةِ فَتاتَيْنِ كانَتْ إِحْداهُما تَحْظى بِكُلِّ الجَمالِ وَالرِّقَّةِ وَالصِّدْقِ الخالِصِ الَّذي يَأْسِرُ قَلْبَ الإِنْسانِ . لَقَدْ كَشَفَتِ الكَلِماتُ الَّتي حاوَلْتُ أَنْ أَصِفَ بِها الآنِسَةَ فيرلي عَنْ سِرّي ؛ لَقَدْ أَحْبَبْتُها .

كانَ عَلَيَّ أَنْ أَتَذَكَّرَ وَضْعي ، وَأَنْ أَتَحَكَّمَ في مَشاعِري عَلى نَحْوٍ أَكْثَرَ حِرْصاً . فَفي عَمَلي قُمْتُ كَثيراً بِتَعْليمِ فَتَياتٍ مِنْ مُخْتَلِفِ دَرَجاتِ الجَمالِ ، وَلَكِنَّني كُنْتُ قَدْ تَعَلَّمْتُ أَنْ أَتْرُكَ قَلْبي في القاعَةِ الخارِجِيَّةِ بِمِثْلِ الهُدوءِ الَّذي كُنْتُ أَتْرُكُ فيهِ مِظَلَّتي هُناكَ . لَقَدْ تَعَلَّمْتُ أَنَّ تِلْميذاتي ، بِحُكْمِ مَرْكَزِيَ المُتَواضِعِ في

الحَياةِ ، لَنْ يَشْعُرْنَ بِاهْتِمامٍ نَحْوي ، وَهَذِهِ الخِبْرَةُ وَفَّرَتْ لِيَ السَّلامَةَ في الماضي ، وَلَكِنْ ها هِيَ ذي قَدْ تَخَلَّتْ عَنّي ؛ لَقَدْ أَحْبَبْتُها .

وَافْتَرَقْنا كالعادَةِ ذاتَ مَساءٍ . وَلَمْ تَكُنْ كَلِمَةٌ واحِدَةٌ ، في أَيِّ وَقْتٍ مَضى ، قَدْ أَفْلَتَتْ مِنْ بَيْنِ شَفَتَيَّ بِحَيْثُ تُمَكِّنُها مِنْ مَعْرِفَةِ سِرّي . وَلَكِنْ عِنْدَما تَقابَلْنا في الصَّباحِ لاحَظْتُ عَلَيْها بَعْضَ تَغَيُّرٍ أَفْصَحَ لي عَنْ كُلِّ شَيْءٍ ؛ لَقَدِ اكْتَشَفَتِ الحَقيقَةَ ، وَكانَتْ تَشْعُرُ بِالأَسَفِ نَحْوي .

تَغَيَّرَتْ طَريقَتُها . أَصْبَحَتْ حَزينَةً وَعَصَبِيَّةً في وُجودي ، وَنَدَرَ ابْتِسامُها . كُنْتُ أَلْمِسُ بُرودَةً في يَدِها ، وَأَحْياناً خَوْفاً في تَعْبيراتِ وَجْهِها . وَانْعَكَسَ هَذا التَّغَيُّرُ لَدَيْها في سُلوكِ أُخْتِها غَيْرِ الشَّقيقَةِ عَلى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ لَمْ تُفْلِتْ مِنَ الآنِسَةِ هالكوم مُجَرَّدُ كَلِمَةٍ واحِدَةٍ حَوْلَ هَذا المَوْضوعِ . صارَتْ عَيْناها تَرْقُباني . وَكانَ يَبْدو عَلَيْها الغَضَبُ أَحْياناً ، وَالخَوْفُ أَحْياناً . لَمْ يَعُدْ وَضْعي يُطاقُ ، وَلَكِنَّني لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ كَيْفَ أَتَصَرَّفُ عَلى نَحْوٍ أَفْضَلَ . وَأَخيراً أَعانَتْني الآنِسَةُ هالكوم الَّتي أَنْبَأَتْني شَفَتاها بِالحَقيقَةِ المُرَّةِ غَيْرِ المُتَوَقَّعَةِ ، وَالَّتي كانَ لا بُدَّ مِنْها . كانَ هَذا يَوْمَ خَميسٍ ، وَكُنْتُ تَقْريباً في نِهايَةِ شَهْرِيَ الثّالِثِ في ليميريدج .

كانَ إِفْطارُنا ، الَّذي كانَ يَحْفِلُ فيما مَضى بِالمُناقَشَةِ المَرِحَةِ عَنْ خُطَطِ اليَوْمِ ، مُقْتَضَباً وَصامِتاً . وَأَخيراً تَكَلَّمَتِ الآنِسَةُ هالكوم .

قالَتْ : « لَقَدْ رَأَيْتُ عَمَّكِ هَذا الصَّباحَ يا لورا . قالَ إِنَّ الاثْنَيْنِ لا الثُّلاثاءَ هُوَ اليَوْمُ المُحَدَّدُ . »

وَأَطْرَقَتِ الآنِسَةُ فيرلي بِرَأْسِها إِلى الأَرْضِ ، وَتَحَرَّكَتْ أَصابِعُها في عَصَبِيَّةٍ ، وَاخْتَلَجَتْ شَفَتاها . وَلاحَظَتِ الآنِسَةُ هالكوم بُؤْسَ حالَةِ أُخْتِها فَنَهَضَتْ مِنْ جِلْسَتِها أَمامَ المائِدَةِ . وَعِنْدَما هَمَّتْ بِالانْصِرافِ ، طَلَبَتْ مِنّي أَنْ أَسيرَ مَعَها في الحَديقَةِ قَبْلَ أَنْ أَبْدَأَ عَمَلي صَباحَ ذَلِكَ اليَوْمِ . وَعِنْدَما خَرَجْنا إِلَيْها مَرَّ بِنا بُسْتانِيٌّ وَبِيَدِهِ خِطابٌ ، وَقالَ إِنَّهُ خاصٌّ بِالآنِسَةِ فيرلي .

وَنَظَرَتِ الآنِسَةُ هالكوم إِلَيْهِ ، وَلاحَظَتْ أَنَّ الخَطَّ كانَ غَريباً عَلَيْها فَسَأَلَتْهُ مِنْ أَيْنَ جاءَ ، فَقالَ إِنَّ امْرَأَةً عَجوزاً قَدْ أَعْطَتْهُ إِيّاهُ ثُمَّ مَضَتْ إِلى حالِ سَبيلِها .

قالَتِ الآنِسَةُ هالكوم : « أَظُنُّ أَنَّهُ خِطابٌ تَسْأَلُ فيهِ إِحْساناً . أَعْطِهِ لأَحَدِ الخَدَمِ . »

وَذَهَبْنا إِلى البَيْتِ الصَّيْفِيِّ ، وَهُناكَ صارَحَتْني بِأَنَّها تَعْرِفُ سِرّي ، وَأَنَّها مُعْجَبَةٌ بي إِذْ لَمْ أُفْصِحْ عَنْ مَشاعِري لأُخْتِها ، وَلَمْ أَسْتَغِلَّ

وُجودي في البَيْتِ . وأرْدَفَتْ تقولُ : « وَلكِنْ لا بُدَّ أنْ تَرْحَلَ ، يا سَيِّدُ هارتَرايت ، قَبْلَ وُقوعِ ضَررٍ أكْبَرَ ، لا لأنَّكَ مُدرِّسُ رَسْمٍ ، وَلكِنْ لأنَّ لورا فيرلي مَخْطوبَةٌ لِرَجُلٍ آخَرَ .»

وَاخْتَرقَتِ الكَلِماتُ الأخيرةُ قَلْبي وَكَأنَّها رَصاصَةٌ . وَبَعْدَ أنْ زالَ الألَمُ الموجِعُ أصابَني شُعورٌ بِالكَآبَةِ ، وَاسْتَحالَتْ زَهراتُ آمالي الحَمْقاءِ إلى أوْراقٍ ذابلَةٍ . وَانْتَظَرْتُ مُتَرفِّقَةً حَتّى أفَقْتُ مِنْ صَدْمَتي .

قالَتْ :« لا بُدَّ أنْ تَرْحَلَ مِنْ أجلِها . لَقَدْ ظَلَّتْ تَلومُ نَفْسَها عَلى ما حَدَثَ ، وَهَذا يُلْقي بِظِلالٍ قاتِمَةٍ عَلى خِطْبَتِها . إنَّها خِطْبَةٌ مَبْنِيَّةٌ عَلى كَلِمَةِ شَرَفٍ ، لا عَلى الحُبِّ . بارَكَها أبوها وَهُوَ عَلى فِراشِ المَوْتِ مُنْذُ سَنَتَيْنِ ، وَرَضِيَتْ هِيَ بِالأمْرِ الواقِعِ مِثْلَما تَرْتَضيهِ بَناتٌ أخْرَياتٌ . لا بُدَّ أنْ تَنْساكَ ، وَسَيُساعِدُها غِيابُكَ عَلى ذَلِكَ . إنَّني أثِقُ بِكَ كَصَديقٍ .»

قُلْتُ : « ما العُذْرُ الَّذي أقَدِّمُهُ لِلسَّيِّدِ فيرلي لِرَحيلي عَلى هَذا النَّحْوِ المُفاجِئِ ؟ وَمَتى أرْحَلُ ؟»

أجابَتْ : « إنَّ خَطيبَها سَيَأتي يَوْمَ الاثْنَيْنِ . قَدْ يَصِلُكَ غَداً بَعْضُ خِطاباتٍ . انْتَظِرْ حَتّى الغَدِ ، وَقُلْ لِلسَّيِّدِ فيرلي إنَّ هُناكَ مُهِمَّةً

تَقْتَضي عَوْدَتَكَ إلى لَنْدَن . وَيُمْكِنُكَ الرَّحيلُ يَوْمَ السَّبْتِ .»

وَفي تِلْكَ اللَّحْظَةِ قَدِمَ أحَدُ الخَدَمِ لِيُخْبِرَ الآنِسَةَ هالكوم أنَّ الآنِسَةَ فيرلي كانَتْ في غايَةِ القَلَقِ بِسَبَبِ رِسالَةٍ تَلَقَّتْها ، وَلَكِنْ ، قَبْلَ أنْ تَتْرُكَني رَفيقَتي لِمُرافَقَةِ أخْتِها اضْطُرِرْتُ أنْ أسْألَ عَنْ ذَلِكَ الخَطيبِ .

« إنَّهُ رَجُلٌ ثَرِيٌّ وَصاحِبُ أمْلاكٍ في هامْبشير .»

« ما اسْمُهُ ؟»

« سير بيرسيڤال غلايد .»

سير بيرسيڤال ! هامْبشير ! تَذَكَّرْتُ آن كاثيريك وَسُؤالَها .

سَألْتُها : « بِمَرْتَبَةِ (فارِس) أوْ (بارون) ؟»

أجابَتْ بِشَيْءٍ مِنَ البُرودِ : « طَبْعاً بِمَرْتَبَةِ البارون .» ثُمَّ مَضَتْ لِرُؤيَةِ أخْتِها ، وَتَرَكَتْني لأفْكاري المُضْطَرِبَةِ المَهْمومَةِ . وَما إنْ صِرْتُ وَحيداً حَتّى راحَتْ تِلْكَ الأفْكارُ تَتَزاحَمُ في ذِهْني : سير بيرسيڤال غلايد ! بارون ! صاحِبُ أمْلاكٍ في هامْبشير ! أ كُنْتُ أحْمَقَ عِنْدَما رَبَطْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ آن كاثيريك ؟ حَقّاً كانَ هُناكَ المِئاتُ مِنَ البارونات في إنْجِلْترا ، إلّا أنَّني شَعَرْتُ أنَّ ثَمَّةَ خَطَراً في ظِلالِ

المُسْتَقْبَلِ ، خَطَرًا كانَ أقوى بِكَثيرٍ مِنَ العَذابِ المَريرِ الّذي سَبَّبَتْهُ النِّهايَةُ التَّعِسَةُ لِحُبِّيَ القَصيرِ .

كُنْتُ أعْمَلُ في لَوْحاتي ، حينَ فوجِئْتُ بِدُخولِ الآنِسَةِ هالكوم غُرْفَتي ، وَكانَتْ غاضِبَةً وَمُضْطَرِبَةً .

قالَتْ : « سَيِّدُ هارترايت ، لَقَدْ تَلَقَّتْ أخْتي رِسالَةً بِلا تَوْقيعٍ ، وَلكِنَّها مُحاوَلَةٌ شِرّيرَةٌ لِلإساءَةِ إلى سُمْعَةِ سير بيرسيفال في نَظَرِ أخْتي . لَقَدْ وَجَدْتُ صُعوبَةً كَبيرَةً في تَهْدِئَتِها . إنَّها مَسْألَةٌ عائِلِيَّةٌ ، وَلكِنَّكَ الرَّجُلُ الوَحيدُ الّذي أسْتَطيعُ اسْتِشارَتَهُ . أ يَنْبَغي عَلَيَّ أنْ أكْتَشِفَ تَوًّا مَنْ كَتَبَ هَذِهِ الرِّسالَةَ ، أمْ أنْ أنْتَظِرَ حَتّى الغَدِ حينَ يَقْدَمُ إلَيْنا مُحامي السَّيِّدِ فيرلي ؟ »

وَأعْطَتْني الرِّسالَةَ وَهِيَ تَتَكَلَّمُ . وَلاحَظْتُ أنَّ بِدايَتَها كانَتْ بِدونِ أيَّةِ مُقَدِّمَةٍ :

« هَلْ تَعْتَقِدينَ في الأحْلامِ ؟ بِالأمْسِ رَأيْتُكِ في مَنامي ، يا آنِسَةُ فيرلي : كُنْتِ موشِكَةً عَلى الزَّواجِ ، وَكانَ مَظْهَرُ الرَّجُلِ بِجانِبِكِ يَبْعَثُ عَلى الرِّضا ؛ كانَ مُتَوَسِّطَ القامَةِ ، وَيَبْلُغُ مِنَ العُمْرِ خَمْسَةً وَأرْبَعينَ عامًا . وَكانَ ذا وَجْهٍ شاحِبٍ ، وَشَعْرٍ أسْوَدَ ، وَعَيْنَيْنِ عَسَلِيَّتَيْنِ بَرّاقَتَيْنِ ، وَلكِنْ كانَ يَنْتابُهُ سُعالٌ بَيْنَ آنٍ وَآخَرَ ،

وَكانَ بِظَهْرِ يَدِهِ اليُمْنى أثَرُ جُرْحٍ قَديمٍ ، تُرى أ كانَ حُلْمي هَذا عَنْ ذَلِكَ الرَّجُلِ بِعَيْنِهِ ؟

« وَلكِنَّني اسْتَطَعْتُ أنْ أنْفُذَ إلى قَلْبِهِ . كانَ أسْوَدَ سَوادَ اللَّيْلِ ، كُتِبَتْ عَلَيْهِ ، وَبِحُروفٍ مُلْتَهِبَةٍ ، هَذِهِ الكَلِماتُ « جَبّارٌ لا يَرْحَمُ . لَقَدْ أشْقى أخْرَياتٍ وَسَوْفَ يُتْعِسُ هَذِهِ الفَتاةَ بِجانِبِهِ . » ثُمَّ جاءَتْ أشِعَّةُ الضَّوْءِ بَيْنَكِ وَبَيْنَهُ ، وَباعَدَتْ بَيْنَكُما . وَلَمْ يَسْتَطِعْ رَجُلُ الدّينِ أنْ يَقْرَأ مَراسيمَ الزَّواجِ . إنَّني أعْتَقِدُ في الأحْلامِ ، يا آنِسَةُ فيرلي ، وَأحَذِّرُكِ لا مِنْ أجْلي وَلكِنْ مِنْ أجْلِكِ أنْتِ . إنَّ أخْتَكِ لِوالِدَتِكِ لَها مَكانٌ كَبيرٌ في قَلْبي ؛ فَقَدْ كانَتْ أمُّكِ صَديقَتي الأولى الحَميمَةَ وَالوَحيدَةَ . »

هُنا انْتَهى الخِطابُ الغَريبُ بِلا اسْمٍ أوْ تَوْقيعٍ .

عَقَّبْتُ قائِلاً : « يَبْدو أنَّهُ خِطابٌ كَتَبَتْهُ امْرَأةٌ – امْرَأةٌ عَقْلُها مُخْتَلٌّ بَعْضَ الشَّيْءِ . » وَأمَّنَتِ الآنِسَةُ هالكوم عَلى قَوْلي .

لَقَدْ أوْحَتْ إلَيَّ تِلْكَ الكَلِماتُ الأخيرَةُ بِفِكْرَةٍ ما ، وَلكِنَّني لَمْ أذْكُرْها ، فَقَدْ كُنْتُ أخْشى أنَّني واهِمٌ .

قُلْتُ : « لَوْ أتيحَتْ لَنا أيَّةُ فُرْصَةٍ لِلْعُثورِ عَلى مَنْ كَتَبَ هَذِهِ الرِّسالَةَ فَلَنْ يُضيرَنا أنْ نَسْتَغِلَّ فُرْصَتَنا . عَلَيْنا أنْ نَسْألَ البُسْتانِيَّ عَنِ

المَرْأةِ العَجوزِ الّتي سَلَّمَتْها لَهُ ، ثُمَّ أ لَيْسَ هُناكَ احْتِمالُ اسْتِشارَةِ مُحامي السَّيِّدِ فيرلي اليَوْمَ ؟»

قالَتْ : « إنَّهُ قادِمٌ إلَيْنا غَدًا . إنَّ سير بيرسيڤال يُريدُ أنْ يُحَدِّدَ تاريخَ زَواجِهِ عِنْدَما يَأتي يَوْمَ الاثْنَيْنِ ، وَسَوْفَ يُناقِشُ السَّيِّدُ غيلمور ، المُحامي ، هَذا الأمْرَ مَعَهُ . إنَّهُ صَديقٌ قَديمٌ لآلِ فيرلي ، وَيُمْكِنُنا أنْ نَثِقَ بِهِ . وَإنْ هُوَ اتَّفَقَ مَعَ سير بيرسيڤال فَسَيَعودُ إلى لَنْدَن لِكِتابَةِ اتِّفاقِيَّةِ هِبَةِ الزَّواجِ . »

وَعلى الرَّغْمِ مِنْ صُعوبَةِ الاعْتِرافِ بِما سَأقولُهُ ، فَإنَّني بَدَأْتُ التَّفْكيرَ بِشَغَفٍ شَديدٍ ، وَبِأمَلٍ كَبيرٍ ، في صِدْقِ الاتِّهاماتِ الوارِدَةِ بِتِلْكَ الرِّسالَةِ . ماذا يَحْدُثُ لَوْ كانَتْ صَحيحَةً ؟ لا بُدَّ أنْ أكونَ أمينًا فَأعْتَرِفَ بِأنَّني كُنْتُ أُكِنُّ كَراهِيَةً شَديدَةً لِلرَّجُلِ الّذي كانَ سَيَتَزَوَّجُ الآنِسَةَ فيرلي .

وَعِنْدَما انْطَلَقْنا لِلْعُثورِ على مَعْلوماتٍ عَنْ مَصْدَرِ الرِّسالَةِ ، سَألْتُ الآنِسَةَ هالكوم إنْ كانَ وَصْفُ ذَلِكَ الرَّجُلِ في الحُلْمِ الّذي رَأتْهُ يَنْطَبِقُ عَلى سير بيرسيڤال .

أجابَتْ : « في كُلِّ شَيْءٍ ، وَلَكِنَّني لَمْ أسْمَعْ هَمْسَةً واحِدَةً تَنالُ سُمْعَتَهُ .»

وَلَمْ يَسْتَطِعِ البُسْتانِيُّ أنْ يُخْبِرَنا أكْثَرَ مِمّا قالَهُ مِنْ قَبْلُ ، فَكانَ أنْ ذَهَبْنا ، بَعْدَ ذَلِكَ ، إلى القَرْيَةِ وَلَكِنْ حَتّى هُناكَ ، لَمْ تُسْفِرِ اسْتِفْساراتُنا عَنْ شَيْءٍ إلى أنْ جِئْنا إلى المَدْرَسَةِ .

وَهُناكَ وَجَدْنا مُعَلِّمَ المَدْرَسَةِ يَتَحَدَّثُ إلى تَلاميذِهِ . كانَ يَقولُ لَهُمْ : « لَنْ أسْمَعَ مِنْكُمْ ، بَعْدَ ذَلِكَ ، كَلِمَةً عَنْ الأشْباحِ . لَيْسَ هُناكَ مِثْلُ هَذِهِ الأشْياءِ ، وَسَيُعاقَبُ أيُّ وَلَدٍ يَقولُ بِوُجودِ الأشْباحِ . كُلُّكُمْ تَرَوْنَ جاكوب بوسلثويت . ها هُوَ ذا واقِفٌ هُناكَ وَحْدَهُ . لَقَدْ عاقَبْتُهُ لا لأنَّهُ يَقولُ إنَّهُ رَأى شَبَحًا ، وَلَكِنَّهُ لا يَسْتَمِعُ إلى ما يُمْليهِ العَقْلُ عِنْدَما أقولُ لَهُ لَيْسَ هُناكَ أيَّةُ أشْباحٍ . قَدْ أضْطَرُّ إلى ضَرْبِهِ ، وَإذا انْتَشَرَتْ هَذِهِ الشّائِعَةُ أكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ، فَقَدْ أضْطَرُّ إلى ضَرْبِكُمْ جَميعًا ! وَالآنَ ، انْصَرِفوا إلى بُيوتِكُمْ ما عَدا جاكوب .»

سَألَتِ الآنِسَةُ هالكوم : « ماذا حَدَثَ ، يا سَيِّدُ ديمبستر ؟»

أجابَ : « هَذا الوَلَدُ اللَّعينُ يُخيفُ المَدْرَسَةَ كُلَّها بِتَرْديدِ قَوْلِهِ إنَّهُ رَأى شَبَحًا اللَّيْلَةَ البارِحَةَ .»

وَالْتَفَتَتِ الآنِسَةُ هالكوم إلى جاكوب ، وَسَألَتْهُ أيْنَ رَآهُ .

«في المَدافِنِ ، مُتَّشِحًا كُلُّهُ بِالبَياضِ كَما يَنْبَغي أنْ يَكونَ الشَّبَحُ .»

« وَكانَ شَبَحَ مَنْ ؟»

قالَ دونَ تردُّدٍ : « شَبَحَ السيِّدةِ فيرلي .»

وَمِنَ الطَّبيعيِّ أنْ تَغْضَبَ الآنِسَةُ هالكوم لِذِكْرِ أمِّها المُتوفاةِ ، على هَذا النَّحْوِ ، وَلكِنَّ السيِّدَ ديمبستر بَذَلَ كُلَّ ما في وُسْعِهِ لِيُطَيِّبَ خاطِرَها .

قالَ : « لَقَدْ رأى الوَلَدُ ، أوْ تَخَيَّلَ أنَّهُ رأى امْرَأةً ترْتدي مَلابِسَ بَيْضاءَ بِجوارِ مَقْبَرَةِ السيِّدةِ فيرلي . وَهَذا يُفَسِّرُ إجابَتَهُ .»

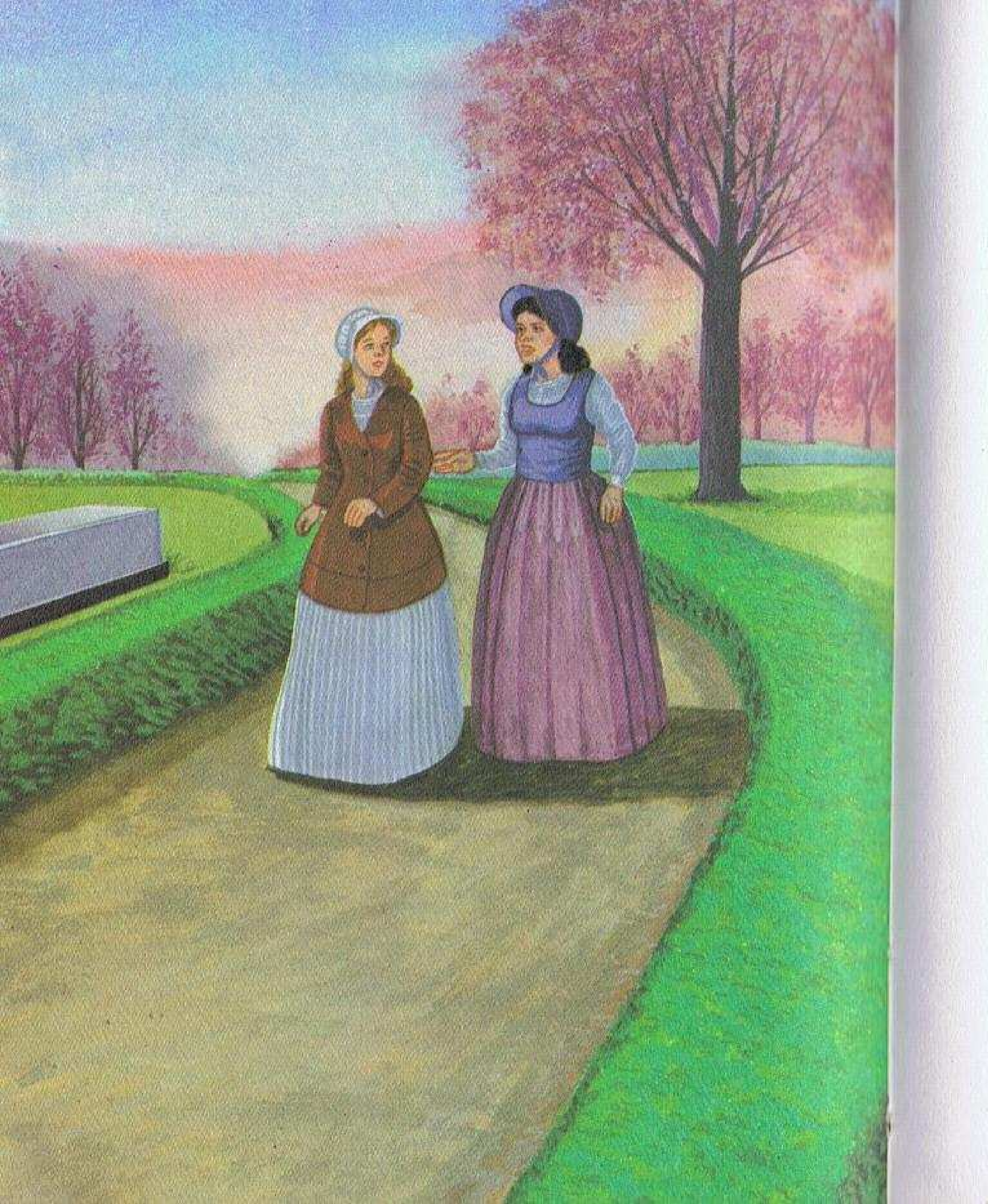
وَبَيْنَما كُنّا نُغادِرُ المَدْرَسَةَ أخْبَرْتُ الآنِسَةَ هالكوم بِشَكّي في أنْ تكونَ الرِّسالَةُ قَدْ جاءَتْ مِنَ الفَتاةِ ذاتِ الرِّداءِ الأبْيَضِ ، وَبيَّنْتُ لَها أنَّ رِوايَةَ الوَلَدِ تَدْعَمُ قَوْلي ، ثُمَّ اسْتَطْرَدْتُ أقولُ إنَّ كاتِبَتَها هِيَ آن كاثيريك .

وَتَوَقَّفَتْ وَقَدِ اعْتَراها الشُّحوبُ ، ثُمَّ دونَ مَزيدٍ مِنَ المُناقَشَةِ ، أخَذَتْني إلى المَدافِنِ لِتُرِيَني قَبْرَ أمِّها ، وَتَرَكَتْني هُناكَ ، وَتَفَحَّصْتُ شاهِدَ القَبْرِ بِإمْعانٍ . كانَ بَياضُهُ غائِماً ، وَلَكِنَّني لاحَظْتُ أنَّ جُزْءاً مِنْهُ قَدْ نُظِّفَ مُؤَخَّراً . وَتَساءَلْتُ مُسْتَغْرِباً : « تُرى مَنْ فَعَلَ هَذا ؟»

وَوَقَعَتْ عَيْنايَ عَلى كوخٍ لا يَبْعُدُ كَثيراً عَنِ المَدافِنِ . واتَّجَهْتُ إلَيْهِ فَوَجَدْتُ امْرأةً عَجوزاً أخْبَرَتْني أنَّ زَوْجَها كانَ مَريضاً وَطَريحَ الفِراشِ مُنْذُ عِدَّةِ أشْهُرٍ ، وَأنَّهُ لَمْ يَسْتَطِعْ أنْ يَعْتَنِيَ بِالمَقابِرِ كَعادَتِهِ .

إذاً لَمْ يَكُنْ هُوَ الَّذي قامَ بِذَلِكَ العَمَلِ .

وَعُدْتُ مُفَكِّراً إلى ليميريدج هاوس ، وَقَرَّرْتُ أنْ أراقِبَ المَقْبَرَةَ سِرّاً في تِلْكَ اللَّيْلَةِ . وَأبْلَغْتُ الآنِسَةَ هالكوم بِنِيَّتي ، وَلَكِنْ عَلى الرَّغْمِ مِنْ أنَّها لَمْ تُبْدِ اعْتِراضاً ، فَقَدْ أدْرَكْتُ أنَّها كانَتْ تَشُكُّ في جَدْواها .



الفَصْلُ الخامِس

وَعِنْدَما أقْبَلَ المَساءُ ، اتَّخَذْتُ مَوْضِعًا لي في مَدْخَلِ المَدافِنِ ، كُنْتُ أرى مِنْهُ ، بِوُضوحٍ ، قَبْرَ السَّيِّدَةِ فيرلي . ما كُنْتَ تَرى هُناكَ مَخْلوقًا حَيًّا ، وَلا طائِرًا يُحَلِّقُ في السَّماءِ ، أوْ كَلْبًا هائِمًا . كانَ مَنْظرًا موحِشًا ، وَكانَتْ ساعَةً مُقْبِضَةً . كُنْتُ أشْعُرُ بِاكْتِئابٍ وأنا أحْصي الثَّوانيَ .

وَقَبْلَ أنْ يُسْدِلَ الظَّلامُ أسْتارَهُ ، سَمِعْتُ وَقْعَ خُطُواتٍ ، وَصَوْتًا مُقْبِلاً ، كانَ صَوْتَ امْرَأةٍ .

قالَ الصَّوْتُ : « لا تَقْلَقي عَلى الرِّسالَةِ ؛ لَقَدْ سَلَّمْتُها في أمانٍ إلى الرَّجُلِ ، فَأخَذَها دونَ كَلِمَةٍ واحِدَةٍ . لَمْ يَرَني أحَدٌ ، بِكُلِّ تَأكيدٍ . »

وَانْتَظَرْتُ وَقَدِ اسْتَبَدَّ بِيَ القَلَقُ ، وَالخُطُواتُ تَتَوالى تِباعًا . وَبَعْدَ

هُنَيْهَةٍ رَأَيْتُ امرأتَينِ تَمْشِيانِ صَوْبَ المَقْبَرَة . كانَتْ إحْداهُنَّ تَرْتَدي مِعْطَفاً فَوقَ فُسْتانِها ، وَكانَ جُزْءٌ مِنْهُ يَظْهَر تَحْتَهُ . كانَ فُسْتاناً أَبْيَضَ ! وَاتَّجَهَتِ المَرْأةُ الأخرى بِمُفْرَدِها صَوبَ المَقبَرَةِ ، وَكانَتْ في مُنْتَصَفِ العُمْرِ ، وَاخْتَفَتْ عِنْدَ ناصِيَةِ المَبْنى . لَمْ أَتْبَعْها لاعْتِقادي بِأنَّ الشَّخْصَ الَّذي سَلَّمَ الرِّسالَةَ لَمْ يَكُنْ ذا أَهَمِّيَّةٍ تُذْكَرُ. كُنْتُ أُريدُ أنْ أَتحدَّثَ إلى مَنْ كَتَبَها ، وَكُنْتُ موقِناً مِنْ أنَّ هَذا الشَّخْصَ كانَ أمامي في المَدافِنِ .

وَ وَقَفَتْ شاخِصَةً بِبَصَرِها إلى القَبْرِ ، ثُمَّ أَخْرَجَتْ قِطْعَةَ قُماشٍ أَبْيَضَ ، وَبَلَّلَتْها في جَدْوَلِ مِياهٍ ، وَشَرَعَتْ تُنَظِّفُ شاهِدَ القَبْرِ . وَمَشَيْتُ بِرِفْقٍ نَحْوَها ، وَما إنْ رَأَتْني حَتّى أَجْفَلَتْ .

قُلْتُ لَها : « لا تَخافي . لا شَكَّ أَنَّكِ تَذْكُرينني ؟ لَقَدْ تَقابَلْنا في ساعَةٍ مُتَأَخِّرَةٍ مِنْ إحْدى اللَّيالي ، وَقَدْ ساعَدْتُكِ في مَعْرِفَةِ الطَّريقِ إلى لَنْدَن .»

وَتَنفَّسَتِ الصُّعَداءَ ، ثُمَّ تَبَدَّدَ الخَوْفُ شَيْئاً فَشَيْئاً ، وَزايَلَ وَجْهَها.

قالَتْ : « لَقَدْ كُنْتَ في غايَةِ العَطْفِ عَلَيَّ . كَيْفَ جِئْتَ إلى هُنا ؟»

« ألا تَذْكُرينَ ما قُلْتُهُ لَكِ ؟ إنَّني أُقيمُ في ليميريدج هاوس ؟»

« في ليميريدج هاوس ! آهٍ ! ما أسْعَدَكَ !» وَنَظَرَتْ إلَيَّ نَظْرَةً لَيْسَ فيها أيُّ إشارَةٍ مِنْ شَكِّها السّابِقِ .

وَتَأَمَّلْتُ وَجْهَها ، وَإذْ بي أرى شَبَهَ الآنِسَةِ فيرلي فيها ، بَيْدَ أنَّهُ كانَ هُناكَ بَعْضُ فُروقٍ ، فَالجَمالُ الرَّقيقُ لِوَجْهِ الآنِسَةِ فيرلي ، وَصَفاءُ العَيْنَيْنِ ، وَنَقاءُ البَشَرَةِ ، لَمْ يَكُنْ لَها وُجودٌ في الوَجْهِ المُجْهَدِ المُضْنى الَّذي كان يُواجِهُني آنَذاكَ . وَعَلى الرَّغْمِ مِنَ أنَّني كَرِهْتُ نَفْسي لِمُجَرَّدِ التَّفْكيرِ عَلى هَذا النَّحْوِ ، فَقَدْ أَدْرَكْتُ أنَّهُ لَوْ حَدَثَ وَتَرَكَ الحُزْنُ وَالأَلَمُ آثارَهُما عَلى وَجْهِ الآنِسَةِ فيرلي ، إذاً لَبَدَتْ هِيَ وَآن كاثيريك مُتَماثِلَتَيْنِ تَماماً . وَبَيْنَما كانَتْ هَذِهِ الأَفْكارُ الحَزينَةُ تَخْطُرُ بِبالي ، سَأَلَتْني فيما كُنْتُ أُفَكِّرُ .

قُلْتُ : « كُنْتُ أَتَساءَلُ .. كَيْفَ جِئْتِ إلى هُنا ؟ »

« جِئْتُ مَعَ صَديقَةٍ طَيِّبَةٍ لَمْ أَمْكُثْ مَعَها سِوى يَوْمَيْنِ . إلى أيِّ مَكانٍ آخَرَ أَذْهَبُ ؟ إنَّ أَعَزَّ صَديقَةٍ لي تَرْقُدُ هُنا . كَمْ يَحُزُّ في قَلْبي أنْ أرى شاهِدَ قَبْرِها مُتَّسِخاً !»

قُلْتُ : « أنا سَعيدٌ بِرُؤْيَتِكِ هُنا . بَعْدَ أنِ افْتَرَقْنا في تِلْكَ اللَّيْلَةِ ، وَصَلَ رَجُلانِ في مَرْكَبَةٍ وَأَخبرا شُرْطِيًّا بِأنَّكِ هَرَبْتِ مِنْ مُسْتَشْفى الأمْراضِ العَقْلِيَّةِ . كُنْتُ أَخْشى أنْ يَعْثُرا عَلَيْكِ .»

وَصَرَخَتْ وَكَأَنَّ كَلِماتي الأَخيرَةَ قَدْ أَفْزَعَتْها .

وَأَضَفْتُ قائِلاً : « وَلَكِنَّني لَمْ أُخْبِرْهُما إِلى أَيْنَ ذَهَبْتِ . »

وَهَدَّأَتْ كَلِماتي مِنْ رَوْعِها إِذْ فَهِمَتْ أَنَّني صَديقٌ مُخْلِصٌ لَها . وَسَأَلْتُها عَنْ مَكانِ هَذا المُسْتَشْفى ، فَذَكَرَتْ مُسْتَشْفًى خاصًّا لا يَبْعُدُ كَثيراً عَنِ المَكانِ الَّذي تَقابَلْنا فيهِ ، وَأَرْدَفَتْ تَقولُ : « أَظُنُّكَ لا تَعْتَقِدُ في إِعادَتي إِلَيْهِ ثانِيَةً . أَ لَيْسَ كَذَلِكَ ؟ »

قُلْتُ : « أَنا سَعيدٌ أَنَّكِ هَرَبْتِ . هَلْ وَجَدْتِ صَديقَتَكِ ؟ »

« نَعَمْ . كانَ الوَقْتُ مُتَأَخِّراً جِدًّا ، وَلَكِنَّ السَّيِّدَةَ كليمنتس كانَتْ سَعيدَةً لِرُؤْيَتي . »

« أَ لَيْسَ لَكِ أَبٌ أَوْ أُمٌّ ؟ »

« أَبٌ ! آهٍ ، لَقَدْ تُوُفِّيَ أَوْ أَظُنُّ أَنَّهُ كَذَلِكَ . أَمّا أُمّي فَلَسْتُ عَلى وِئامٍ مَعَها . لا تَتَكَلَّمْ عَنْها . تَكَلَّمْ عَنِ السَّيِّدَةِ كليمنتس . إِنَّها صَديقَتي ؛ لَقَدْ بَكَتْ لِمُصيبَتي . »

« أَيَّةُ مُصيبَةٍ ؟ »

أَجابَتْ : « مُصيبَةُ احْتِجازي وَحَبْسي . أَيَّةُ مُصيبَةٍ أُخْرى يُمْكِنُ أَنْ تَقَعَ لِإِنْسانٍ ؟ »

« هَلْ تُقيمينَ بِالقَرْيَةِ الآنَ ؟ »

« لا ، لا أُقيمُ بِالقَرْيَةِ . بَلْ أُقيمُ في مَزْرَعَةٍ عَلى بُعْدِ خَمْسَةِ كيلومِتْراتٍ . أَ تَعْرِفُها ؟ يُسَمّونَها تودز كورنر . أَصْحابُها أَقارِبُ لِلسَّيِّدَةِ كليمنتس . وَقَدْ ذَهَبْنا لِلإِقامَةِ مَعَهُمْ طَلَباً لِلْهُدوءِ وَالهَواءِ النَّقِيِّ . كَمْ كُنْتُ سَعيدَةً أَنْ آتِيَ بِالقُرْبِ مِنْ ليميريدج ! إِنَّهُمْ أُناسٌ اسْتَضافونا عِنْدَهُمْ . وَلَكِنْ كَيْفَ حالُ الآنِسَةِ فيرلي ؟ أَ هِيَ بِخَيْرٍ ؟ »

[illegible] : « لا هِيَ سَعيدَةٌ وَلا هِيَ بِخَيْرٍ هَذا الصَّباحَ . لَقَدْ تَلَقَّتْ رِسالَتَكِ . »

وَتَسَبَّبَتْ كَلِماتي في تَوَقُّفِها عَنْ تَنْظيفِ شاهِدِ القَبْرِ ، وَانْفَرَجَتْ شَفَتاها .

سَأَلَتْ : « كَيْفَ عَرَفْتَ ذَلِكَ ؟ مَنْ أَراكَ إِيّاها ؟ أَنا لَمْ أَكْتُبْها . »

قُلْتُ : « لا ، أَنا واثِقٌ أَنَّكِ كَتَبْتِها ، وَتَعْرِفينَ كُلَّ شَيْءٍ عَنْها . لَقَدْ أَخْطَأْتِ بِكِتابَةِ هَذِهِ الرِّسالَةِ . كانَ عَلَيْكِ أَنْ تَذْهَبي إِلى البَيْتِ وَتُكَلِّمي الآنِسَةَ فيرلي بِنَفْسِكِ . أَ تَذْهَبينَ لِرُؤْيَتِها ؟ إِنَّها عَطوفٌ كَأُمِّها . هَلْ سَتَرَيْنَها غَداً في المَزْرَعَةِ ، أَمْ في حَديقَةِ ليميريدج

هاوس ؟»

وَانْفَرجَتْ شَفَتاها عَنْ بِضْعِ كَلِماتٍ على مَقْرَبَةٍ مِنْ شاهِدِ القَبْرِ : « أَنْتِ تَعْرِفِينَ كَمْ أُحِبُّ ابْنَتَكِ ، مِنْ أَجْلِكِ ! أَخْبِريني ، يا عَزيزَتي فيرلي ، أَخْبِريني ما هُوَ أَفْضَلُ شَيْءٍ أَفْعَلُهُ .»

وَقَبَّلَتِ الحَجَرَ وَرَبَّتَتْ بِيَدَيْها عَلَيْهِ . وَتَمَلَّكَنِي الحُزْنُ وَالأسى ، وَأَخَذْتُ يَدَيْها في يَدَيَّ مُحاوِلاً مُواساتِها ، وَلَكِنْ دونَ جَدْوى ، وَما لَبِثَتْ أَنِ انْتَزَعَتْهُما مِنّي .

قُلْتُ بِرِفْقٍ « اِهْدَئي . لا تَدَعيني أَظُنُّ أَنَّ مَنْ أَوْدَعَكِ مُسْتَشْفى الأَمْراضِ العَقْلِيَّةِ كانَ مُحِقًّا فِي ذَلِكِ .»

وَأَحْدَثَتْ كَلِماتي تَغَيُّراً مُفاجِئاً ؛ اِرْبَدَّ وَجْهُها بِالكَراهِيَةِ وَالفَزَعِ ، وَقالَتْ وَهِيَ تَعَضُّ عَلى نَواجِذِها: « تَكَلَّمْ عَنْ شَيْءٍ آخَرَ ؛ فَسَأَفْقِدُ أَعْصابي إِنْ تَكَلَّمْتَ عَلى هَذا النَّحْوِ !»

كانَ مِنَ الواضِحِ أَنَّ ذِكْرى الشَّخْصِ الَّذي حَبَسَها يُؤَثِّرُ فيها تَأْثيراً عَميقاً . كانَتْ في غايَةِ الاضْطِرابِ ، وَبَذَلْتُ قُصارى جَهْدي بِكَلِماتٍ رَقيقَةٍ ، كَيْ أُهَدِّئَ مِنْ رَوْعِها ، ثُمَّ طَلَبْتُ إِلَيْها لِلمَرَّةِ الثَّانِيَةِ أَنْ تُقابِلَ الآنِسَةَ فيرلي ، كَما أَخْبَرْتُها أَنَّ اسْمَ الرَّجُلِ المَوْصوفِ في رِسالَتِها كانَ مَعْروفاً . وَلَكِنْ ما إِنْ ذَكَرْتُ اسْمَ سير

بيرسيڤال غلايد حَتّى نَدَّتْ عَنْها صَرْخَةٌ دَوَّتْ في أَرْجاءِ ساحَةِ المَدافِنِ ، وَعاوَدَتْها نَظْرَةُ الحِقْدِ وَالكَراهِيَةِ . لَمْ يَبْقَ لَدَيَّ أَدْنى شَكٍّ ؛ لَقَدْ كانَ هُوَ الَّذي احْتَجَزَها في مُسْتَشْفى الأَمْراضِ العَقْلِيَّةِ .

كانَتْ صَرْخَتُها قَدْ وَصَلَتْ إِلى آذانٍ أُخْرى ، فَهَرْوَلَتِ المَرْأَةُ المَدْعُوَّةُ بِالسَّيِّدَةِ كليمنتس نَحْوَنا ، وَلَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أُقْنِعَها أَنَّني صَديقٌ وَأَنَّ الصَّرْخَةَ لَمْ تَكُنْ فَزَعاً مِنّي ، إِلّا بَعْدَ جَهْدٍ جَهيدٍ ، وَلَكِنَّها فَهِمَتْ آخِرَ الأَمْرِ ، وَأَخَذَتْ تَقودُ آن كاثيريك بَعيداً .

وَلَمْ يَبْتَعِدا سِوى بِضْعِ خُطُواتٍ عِنْدَما تَوَقَّفَتْ آن وَعادَتْ إِلى القَبْرِ ، وَقَبَّلَتْهُ ثُمَّ قالَتْ لي : « لا بُدَّ أَنْ أَقولَ لَكَ وَداعاً . أَنا الآنَ بِخَيْرٍ ، وَقَدْ سامَحْتُكَ . »

وَنَظَرْتُ في إِثْرِها وَهِيَ تَخْتَفي عَنِ الأَنْظارِ بِقَلَقٍ وَحُزْنٍ ، وَكَأَنَّما كانَتْ تِلْكَ المَرَّةُ هِيَ آخِرَ مَرَّةٍ أَرى في هَذا العالَمِ البائِسِ تِلْكَ الفَتاةَ ذاتَ الرِّداءِ الأَبْيَضِ .

وَعُدْتُ إِلى البَيْتِ وَأَخْبَرْتُ الآنِسَةَ هالكوم بِما حَدَثَ . وَرَفَضَتِ اقْتِراحي بِأَنْ تَذْهَبَ الآنِسَةُ فيرلي لِرُؤْيَةِ آن ، وَلَكِنَّها وافَقَتْ عَلى أَنْ تَذْهَبَ مَعي بِنَفْسِها إِلى المَزْرَعَةِ في اليَوْمِ التّالي . كَما أَخْبَرَتْني أَنَّ الابْنَةَ الثّانِيَةَ لِفَلّاحِ المَزْرَعَةِ كانَتْ إِحْدى الخادِماتِ بِليميريدج هاوس .

قالَتْ: « قَدْ تكونُ قَدْ سَمِعتْ شيْئاً يُفيدُنا مَعْرِفَتُهُ ، وَسأسْألُها غداً. وَلكِنْ أ مُتأكِّدٌ أنْتَ أنَّ سير بيرسيڤال هُوَ الرَّجُلُ الَّذي أرسَلَ آن كاثيريك إلى مُسْتَشْفى الأمْراضِ العَقْلِيَّةِ ؟»

« تَمامَ التَّأكُّدِ . هُوَ الَّذي أرْسَلَها إلى مُسْتَشْفًى خاصٍّ ، وَلا بُدَّ أنَّهُ دَفَعَ مَبْلَغاً مِنَ المالِ لِحَجْزِها هُناكَ ، وَلكِنَّني لا أفْهَمُ لِمَ فَعَلَ ذلِكَ .»

« أنا مُتأكِّدَةٌ ، يا سَيِّدُ هارترايت ، أنَّ سير بيرسيڤال لَنْ يَطولَ بِهِ البَقاءُ في هَذا البَيْتِ ما لَمْ أقْتَنِعْ أنا وَالسَّيِّدُ غيلمور بِهِ . إنَّ مُسْتَقْبَلَ أخْتي هُوَ أغْلى ما أحْرِصُ عَلَيْهِ في الحَياةِ .»

وَ وَصَلَتْ خِطاباتي في صَباحِ اليَوْمِ التّالي ، فَبَعَثْتُ بِرِسالَةٍ إلى السَّيِّدِ فيرلي أطْلُبُ مِنْهُ السَّماحَ لي بِالرَّحيلِ فَوْراً ؛ مُتَعَلِّلاً بِأنَّ ثَمَّةَ مُهِمَّةً تَسْتَدْعي عَوْدَتي إلى لَنْدَن ، فَكانَ أنْ ذَكَرَ في إجابَتِهِ أنَّني لا حَقَّ لي في الرَّحيلِ ، على أنَّهُ كانَ يُمْكِنُني أنْ أرْحَلَ لأنَّ وُجودي المُسْتَمِرَّ رَغْمَ إرادَتي في البَيْتِ قَدْ يُثيرُ أعْصابَهُ ، وَأخْبَرْتُ الآنِسَةَ هالكوم بِالإذْنِ بِرَحيلي ، وَانْطَلَقْنا إلى المَزْرَعَةِ .

وَدَخَلَتِ الآنِسَةُ هالكوم كوخَ المَزْرَعَةِ وَحْدَها ، وَلكِنَّها سُرْعانَ ما عادَتْ قائِلَةً : « لَقَدْ رَحَلَتْ آن كاثيريك وَالسَّيِّدَةُ كليمنتس .

رَحَلَتا في السّاعَةِ الثّانِيَةِ مِنْ صَباحِ اليَوْمِ تارِكَتَيْنِ السَّيِّدَةَ تود في غايَةِ الدَّهْشَةِ وَالغَضَبِ مِنْ قَرارِهِما المُفاجِئِ . يَبْدو أنَّ آن ، عِنْدَما وَصَلَتْ إلى الكوخِ لَيْلَةَ أمْسِ ، شَعَرَتْ على نحوٍ مُفاجِئٍ بِدُوارٍ ، وَإنْ كانَ السَّبَبُ سِرًّا لا يَعْلَمُهُ أحَدٌ . وَكانَتِ الزّائِرَةُ الوَحيدَةُ هِيَ خادِمَتَنا الَّتي سَبَقَ أنْ قُلْتُ لَكِ عَنْها إنَّها إحْدى ابْنَتَي السَّيِّدِ تود ، وَأخَذَتْ آن إلى الفِراشِ ، وَظَلَّتِ السَّيِّدَةُ كليمنتس تَتَحَدَّثُ إلَيْها وَقْتاً طَويلاً ، وَفي ساعَةٍ مُبَكِّرَةٍ مِنْ هَذا الصَّباحِ رَحَلَتا .»

« عَمَّ كانَ يَدورُ الحَديثُ عِنْدَما شَعَرَتْ آن بِدُوارٍ ؟»

« لا شَيْءَ غَيْرَ عادِيٍّ . إنَّهُما لا يَسْتَطيعانِ تَذَكُّرَ شَيْءٍ غَيْرِ عادِيٍّ .»

قُلْتُ : « فَلْنَسْألِ الخادِمَةَ ؛ فَقَدْ تَكونُ أقْوى ذاكِرَةً .»

وَسَألْناها بِمُجَرَّدِ أنْ عُدْنا إلى البَيْتِ ، فَقالَتْ : « لَقَدْ ذَكَرْتُ الزِّيارَةَ القادِمَةَ لِسير بيرسيڤال غلايد لِليميريدج . أرْجو ألاّ أكونَ قَدِ ارْتَكَبْتُ خَطَأً .»

وَما إنِ انْفَرَدْنا ثانِيَةً حَتّى سَألْتُ الآنِسَةَ هالكوم : « أ لا يَزالُ يُساوِرُكِ أيُّ شَكٍّ الآنَ ؟»

الفَصلُ السّادِس

وَصلَتْ إلى بابِ البَيْتِ مَرْكَبَةٌ مِنَ المَحطَّةِ ، وَذَهبَتِ الآنِسةُ هالكوم لِمُقابَلَةِ سَيِّدٍ عَجوزٍ هَبَطَ مِنَ المَرْكَبَةِ بِخُطُواتٍ نَشِطَةٍ . لَقَدْ كانَ السَّيِّدَ غيلمور .

كانَ يَخْتَلِفُ تَمامَ الاخْتِلافِ عَنِ المُحامي القَديمِ المَألوفِ . كانَ ذا وَجْهٍ أحْمَرَ ، وَشَعْرٍ أبْيَضَ مُمَشَّطٍ بِعِنايَةٍ . وَكانَ زِيُّهُ الأنيقُ وَأسْلوبُهُ اللَّطيفُ يُسْبِغانِ عَلَيْهِ روحَ الرَّجُلِ العَصْرِيِّ المُهَذَّبِ . وَكانَ يَتَمَيَّزُ بِقُدْراتٍ وَسُرْعَةِ بَديهَةِ رَجُلٍ يُساعِدُهُ عَمَلُهُ عَلى الحِفاظِ عَلَيْها . لَقَدْ كانَ رَجُلاً ذا شَيْخوخَةٍ مَرِحَةٍ تَحظى بِاحْتِرامٍ كَبيرٍ .

وَبَعْدَ أنْ قَدَّمْتُ إلَيْهِ ، ذَهَبْتُ بِمُفْرَدي في جَوْلَةٍ أخيرَةٍ لِوَداعِ المَشاهِدِ المُرْتَبِطَةِ بِحُلْمِ سَعادَتي وَحُبِّيَ القَصيرِ – ذَهَبْتُ إلى حَديقَةِ الوَرْدِ ، وَلَكِنَّ الشِّتاءَ كانَ قَدْ هاجَمَها ، وَكانَتِ الأزْهارُ الَّتي

عَلَّمْتُ الآنِسَةَ لورا أنْ تَرْسُمَها قَدْ ذَبُلَتْ ، ثُمَّ ذَهَبْتُ إلى الأشْجارِ ، وَلَكِنَّ أوْراقَها كانَتْ تَتَساقَطُ حَوْلي مِنْ أغْصانِها ، وَاسْتَحالَ العُشْبُ الَّذي كُنْتُ أرْسُمُهُ لَها إلى بِرْكَةٍ مِنَ المِياهِ . لَمْ يَعُدِ المَنْظَرُ الَّذي تَذَكَّرْتُهُ كَما كانَ . لَقَدْ ذَهَبَ ضِياءُ وُجودِها وَضِياءُ الصَّيْفِ مَعًا .

وَفي أثْناءِ عَوْدَتي إلى البَيْتِ ، قابَلْتُ السَّيِّدَ غيلمور الَّذي طَلَبَ أن يَتَحَدَّثَ إليَّ . قالَ إنَّ الآنِسَةَ هالكوم قَدْ أخْبَرَتْهُ عَنْ مَوْضوعِ الرِّسالَةِ البَغيضِ ، وَإنَّ التَّصرُّفَ في ذَلِكَ المَوْضوعِ سَيُتْرَكُ كُلُّهُ في يَدَيْهِ .

وَاسْتَطْرَدَ قائِلاً : « سَأُرْسِلُ نُسْخَةً مِنَ الخِطابِ إلى مُحامي سير بيرسيڤال في لَنْدَن ، وَسَأحْتَفِظُ بِالخِطابِ الأصْلِيِّ هُنا ؛ لأرِيَهُ لِسير بيرسيڤال حالَ وُصولِهِ إلَيْنا . كَما أرْسَلْتُ خادِماً في إثْرِ المَرْأتَيْنِ في مُحاوَلَةٍ لِلْعُثورِ عَلَيْهِما . هَذا كُلُّ ما يُمْكِنُنا عَمَلُهُ حَتّى يَأتِيَ سير بيرسيڤال يَوْمَ الاثْنَيْنِ . وَلا شَكَّ عِنْدي أنَّهُ سَيُوَضِّحُ لَنا كُلَّ ما يُمْكِنُ تَوَقُّعُهُ مِنْ رَجُلٍ شَريفٍ مِثْلِهِ .»

قُلْتُ : « يُؤْسِفُني ، يا سَيِّدُ غيلمور ، أنَّني لا أتَّفِقُ مَعَكَ في هَذا المَوْضوعِ .»

« هَذا طَبيعِيٌّ ،» يا عَزيزي ، فَأنا رَجُلٌ عَجوزٌ وَعَمَلِيٌّ ، وَأنْتَ شابٌّ

وَعاطِفِيٌّ . إنَّ غَداً لِناظِرِهِ قَريبٌ .»

وَتَوَقَّفْنا عَنِ الحَديثِ في هَذا الأَمْرِ ، وَرُحْنا نَتَحَدَّثُ عَنْ أَشْياءَ أُخْرى حَتّى افْتَرَقْنا . كانَتْ هَذِهِ آخِرَ لَيْلَةٍ لي في ليميريدج هاوس ، وَلَمْ أَكُنْ قَدْ تَحَدَّثْتُ مَعَ الآنِسَةِ فيرلي طيلَةَ ذَلِكَ اليَوْمِ . وَعِنْدَما دَخَلْتُ حُجْرَةَ الاسْتِقْبالِ قَبْلَ العَشاءِ ، رَأَيْتُ أَنَّها بَذَلَتْ كُلَّ ما في وُسْعِها لإِعادَةِ الأَيّامِ الحُلْوَةِ الماضِيَةِ – تِلْكَ الأَيّامِ الَّتي ما كانَتْ لِتَعودَ ثانِيَةً . كانَتْ تَلْبَسُ الثَّوْبَ الَّذي كُنْتُ أَعْشَقُهُ ، وَتَقَدَّمَتْ نَحْوي بِتَرْحابِها المَعْهودِ لِتُعْطِيَني يَدَها بِنَفْسِ بَراءَتِها الخالِصَةِ في الأَوْقاتِ السَّعيدَةِ الماضِيَةِ . وَمَضى العَشاءُ بِرِفْقَةِ السَّيِّدِ غيلمور عَلى ما يُرامُ .

وَعِنْدَما فَرَغْنا مِنَ العَشاءِ ، جاءَ الخادِمُ الَّذي أَرْسَلَهُ السَّيِّدُ غيلمور في إِثْرِ المَرْأَتَيْنِ لِيُخْبِرَهُ أَنَّهُ لَمْ يُوَفَّقْ في مُهِمَّتِهِ . لَقَدْ رَحَلَتا إِلى كارلايل بِالقِطارِ ، وَهُناكَ اخْتَفَتا تَماماً . وَلَمْ يَنْزَعِجِ السَّيِّدُ غيلمور ، وَلَمْ يَزِدْ عَلى قَوْلِهِ إِنَّهُ يَتَعَيَّنُ عَلَيْهِ أَن يَنْتَظِرَ حَتّى يَصِلَ سير بيرسيڤال .

وَبَيْنَما كُنْتُ أَجْلِسُ بِجِوارِ الآنِسَةِ فيرلي وَهِيَ تَعْزِفُ عَلى البيانو في قاعَةِ الجُلوسِ ، سَمِعْتُها تَقولُ في صَوْتٍ خَفيضٍ : « يُؤْسِفُني جِدّاً رَحيلُكَ .»

« سَأَتَذَكَّرُ هَذِهِ الكَلِماتِ الرَّقيقَةَ ، يا آنِسَةُ فيرلي ، إِلى الأَبَدِ ، بَعْدَ أَنْ يَأْتِيَ الغَدُ وَيَمْضِيَ .»

قالَتْ : « لا تَتَكَلَّمْ عَنِ الغَدِ . لِنَدَعِ المُوسيقى تَتَحَدَّثُ اللَّيْلَةَ نِيابَةً عَنّا بِلُغَةٍ أَسْعَدَ مِنْ لُغَتِنا . »

وَلَكِنَّ أَصابِعَها أَخْطَأَتِ العَزْفَ ، فَصَدَرَ عَنِ البيانو لَحْنٌ نَشازٌ فَتَوَقَّفَتْ عَنِ العَزْفِ . وَانْقَضَتْ بَقِيَّةُ الأُمْسِيَّةِ دونَ كَلِمَةٍ أَوْ نَظْرَةٍ . وَعِنْدَما حانَ الوَقْتُ لأَنْ تَنْصَرِفَ لَمْ أَجِدِ الثِّقَةَ في نَفْسي لإِكْمالِ الحَديثِ .

بَدَأْتُ أَقولُ : « سَأَرْحَلُ في الصَّباحِ . قَبْلَ أَنْ ...»

قاطَعَتْني قائِلَةً : « لا ، لا ، لَيْسَ قَبْلَ خُروجي مِنْ غُرْفَتي . سَأَنْزِلُ لِلإِفْطارِ . أَنا لَنْ أَنْسى الأَشْهُرَ الثَّلاثَةَ الماضِيَةَ ...» وَخانَها صَوْتُها ، وَقَبْلَ أَنْ أَتَمَكَّنَ مِنْ أَنْ أُحَيِّيَها تَحِيَّةَ المَساءِ كانَتْ قَدْ ذَهَبَتْ .

وَجاءَتِ النِّهايَةُ بِسُرْعَةٍ فائِقَةٍ لِمُجابَهَتي . جاءَتْ عَلى نَحْوٍ لا يُمْكِنُ تَلافيهِ مِثْلَما جاءَ ضَوْءُ آخِرِ صَباحٍ بِليميريدج هاوس .

وَعَلى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ الوَقْتَ لَمْ يَكُنْ يَعْدو السّابِعَةَ وَالنِّصْفَ ، فَقَدْ كانوا في انْتِظاري عَلى مائِدَةِ الإِفْطارِ . وَكانَ إِفْطاراً حَزيناً مُقْتَضَباً . وَنَهَضْتُ لأَتَقَبَّلَ وَداعي .

وَعِنْدَما تَلَقَّيْتُ كَفَّ الآنِسَةِ هالكوم في كَفِّي ، غادَرَتِ الآنِسَةُ فيرلي الغُرْفَةَ . وَكانَ عَلَيَّ أَنْ أَنْتَظِرَ هُنَيْهَةً قَبْلَ أَنْ أَسْتَطيعَ الكَلامَ .

قالَتِ الآنِسَةُ هالكوم : « خَيْراً فَعَلْتَ . »

سَأَلْتُها : « أَ سَتَكْتُبينَ إِلَيَّ ؟ »

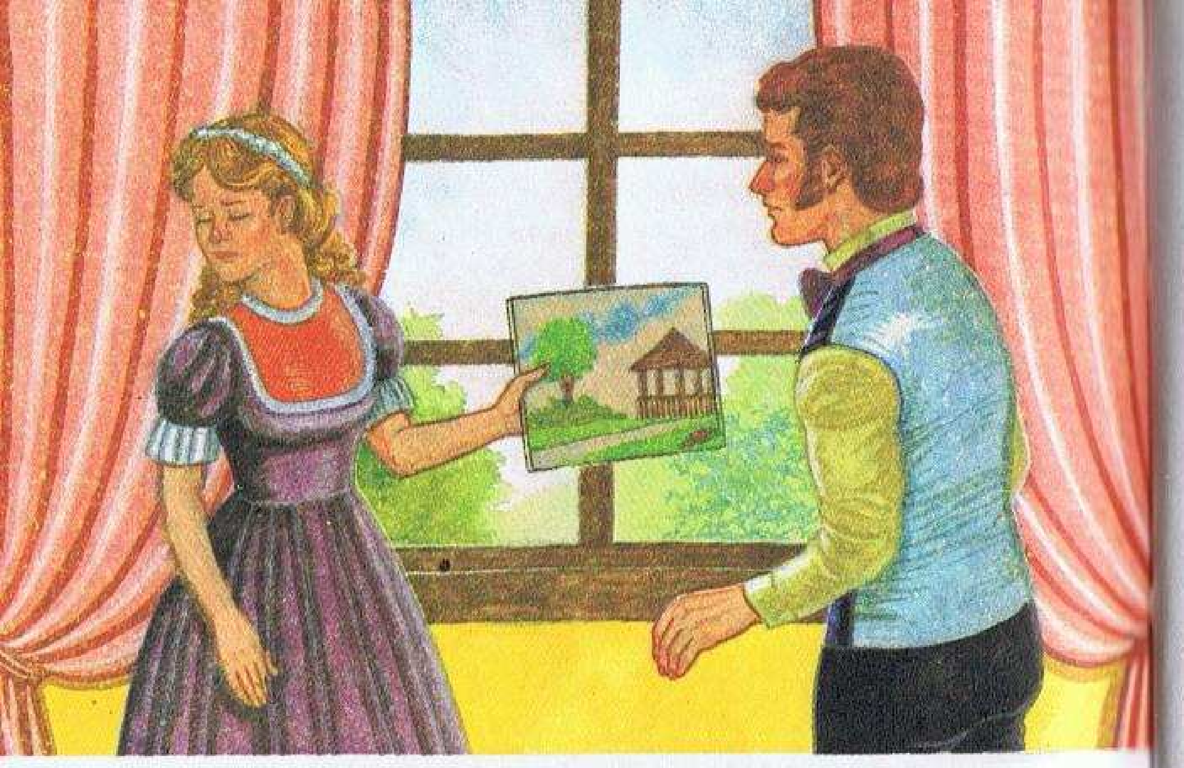
وَأَمْسَكَتْ بي بِراحَتَيْها ، وَقالَتْ : « أَنْتَ تَسْتَحِقُّ عَنْ جَدارَةٍ كُلَّ شَيْءٍ أَسْتَطيعُ أَنْ أَفْعَلَهُ مِنْ أَجْلِكَ . سَأُخْبِرُكَ بِالنِّهايَةِ . سَأَثِقُ بِكَ صَديقاً وَأَخاً . »

وَلَمَسَتْ جَبيني ، كَأُخْتٍ ، بِشَفَتَيْها قائِلَةً: « انْتَظِرْ هُنا ، يا ولتر ، بَعْدَ خُروجي . »

وَغادَرَتِ الحُجْرَةَ ، واتَّجَهْتُ بِحُزْنٍ نَحْوَ النّافِذَةِ . وَمَضَتْ لَحْظَةٌ ثُمَّ سَمِعْتُ البابَ يُفْتَحُ بِرِفْقٍ . وراحَ قَلْبي يَدُقُّ بِعُنْفٍ ، وَاسْتَدَرْتُ لأرى الآنِسَةَ فيرلي .

تَوَقَّفَتْ وَتَرَدَّدَتْ ، ثُمَّ بِمَزيجٍ مِنَ الشَّجاعَةِ وَالحَياءِ ، أَقْبَلَتْ نَحْوي وَهِيَ تَحْمِلُ شَيْئاً بِجانِبِ خاصِرَتِها .

قالَتْ : « ذَهَبْتُ إِلى الغُرْفَةِ المُجاوِرَةِ لِلْبَحْثِ عَنْ هذِهِ ؛ إِذْ ظَنَنْتُ أَنَّكَ قَدْ ... »



وَأَدارَتْ وَجْهَها صَوْبَ النّاحِيَةِ الأُخْرى ، وَقَدَّمَتْ لي لَوْحَةً صَغيرَةً بِريشَتِها هِيَ عَنِ البَيْتِ الصَّيْفِيِّ الَّذي تَقابَلْنا فيهِ لأَوَّلِ مَرَّةٍ .

كُنْتُ أَخْشى أَنْ أُعَبِّرَ عَنْ شُعوري ، فَلَمْ تَزِدْ إِجابَتي عَلى هذِهِ الكَلِماتِ : « لَنْ تُفارِقيني طيلَةَ حَياتي . أنا في غايَةِ الامْتِنانِ . كَما أَشْكُرُكِ كَثيراً عَلى عَوْدَتِكِ لِوَداعي . »

وَارْتَسَمَ شَبَحُ حُزْنِ الوَداعِ في عَيْنَيْها الزَّرْقاوَيْنِ الحانِيَتَيْنِ مِنْ خِلالِ دُموعِها المُتَجَمِّعَةِ وَأَنا أَمُدُّ يَدي إِلَيْها .

« تَمَنِّياتي لَكِ ، يا آنِسَةُ فيرلي ، بِمُسْتَقْبَلٍ سَعيدٍ . »

وانْهمَرتِ الدُّموعُ على وَجْنتَيْها ، وتَساقطَتْ على يَدي .

« مِنْ فَضْلِكَ اترُكْني .» قالَتْها في وَهَنٍ وعَلى نحْوٍ تَفجَّرَ فيه سِرُّ قَلْبِها . وانْتَهى كُلُّ شيْءٍ . وبِنَظْرَةِ وَداعٍ واحِدَةٍ ، أغْلَقَتِ البابَ وَراءَها ، وَغَدَتْ صورتُها ذِكْرى مِنْ ذِكْرياتِ الماضي .

المحامي ڤينست غيلمور يواصل القصة

الفَصْلُ السّابع

أكْتُبُ هَذِهِ الأسْطُرَ بِناءً على طَلَبٍ مِنْ صَديقي السَّيِّدِ ولتر هارترايت . إنَّها تَكْشِفُ عَنْ أحْداثٍ مُعَيَّنَةٍ وَقَعَتْ بَعْدَ مُغادَرَتِهِ ليميريدج هاوس ، وَعَقِبَ الأحْداثِ الَّتي وَصَفَها بِنَفْسِهِ .

عِنْدَما وَصَلْتُ إلى البَيْتِ يَوْمَ الجُمُعَةِ الثّاني مِنْ نوڤمبر ، قُدِّمْتُ إلى السَّيِّدِ هارترايت الَّذي أحْبَبْتُهُ على الرَّغْمِ مِمّا بِهِ مِنْ عُيوبِ الشَّبابِ ، وَلَمْ تَكُنِ الآنِسَةُ فيرلي ، لِلأسَفِ ، عَلى ما يُرامُ . راحَتْ تَعْزِفُ لنا في المَساءِ وَقَدْ تَخَلَّتْ عَنْها مَهارَتُها المَعْهودَةُ .

وَرَحَلَ السَّيِّدُ هارترايت يَوْمَ السَّبْتِ قَبْلَ أن أهْبِطَ إلى الطّابَقِ الأرْضِيِّ لِتَناوُلِ طَعامِ الإفْطارِ ، وَاعْتَكَفَتِ الآنِسَةُ فيرلي في غُرْفَتِها طَوالَ اليَوْمِ . وَبَدَتِ الآنِسَةُ هالكوم كاسِفَةَ البالِ مُغْتَمَّةً . خَرَجْتُ لِلنُّزْهَةِ وَحْدي ، وَلَكِنَّ المَناظِرَ الَّتي رَأيْتُها لَمْ تَكُنْ كَما ألِفْتُها عِنْدَما

كُنْتُ أقيمُ بِليميريدج مُنْذُ ثلاثينَ سَنَةً مَضتْ . وَكانَ البَيْتُ قَدْ تَغَيَّرَ هُوَ الآخرُ ، وَلكِنَّني عِنْدَما رَأيْتُ السَّيِّدَ فيرلي عَصْرَ ذَلِكَ اليَوْمِ ، كانَ كَما تَخَيَّلْتُهُ تَماماً ؛ كانَ العَمَلُ يُزْعِجُهُ . وَكُلُّ ما اسْتَطَعْتُ أنْ أكْتَشِفَهُ أنَّهُ كانَ يَعْتَبِرُ زَواجَ ابْنَةِ أخيهِ شَيْئاً مُقَرَّراً ، وَأنَّهُ سيَكونُ سَعيداً عِنْدَما يَنْتَهي ما يُسَبِّبُهُ لَهُ هَذا الأمْرُ مِنْ قَلَقٍ . وَقالَ إنَّهُ يَنْبَغي عَلَيَّ أنْ أرَتِّبَ كُلَّ شَيْءٍ بِنَفْسي بِمُعاوَنَةِ ابْنَةِ أخيهِ .

وَفي يَوْمِ الاثْنَيْنِ وَصَلَ سير بيرسيفال . كانَ جَذّاباً وَلَكِنَّهُ كانَ أكْبَرَ سِنّاً مِمّا كُنْتُ أتَوَقَّعُ . وَكُنْتُ أنا وَهُوَ عَلى وِئامٍ مَعاً . وَكانَتْ مُعامَلَتُهُ لِلآنِسَةِ فيرلي ، حَتّى عِنْدَما كانَ يَرى انْصِرافَها عَنْهُ ، رَقيقَةً وَمُجامِلَةً ؛ لِذا كُنْتُ أسْتَغْرِبُ عِنْدَما كُنْتُ أرى شُعورَها بِالقَلَقِ في وُجودِهِ . وَكانَتْ تَتْرُكُ الغُرْفَةَ عِنْدَ أوَّلِ فُرْصَةٍ تَسْنَحُ لَها . وَلَم يَذْكُرْ سير بيرسيفال أمْرَ انْصِرافِها لِلآنِسَةِ هالكوم ، وَلَمْ ألاحِظْ لا في هَذا الوَقْتِ ، وَلا في أيِّ وَقْتٍ آخَرَ ، أيَّ تَقْصيرٍ في سُلوكِهِ الطَّيِّبِ في ليميريدج هاوس .

وَما إنْ تَرَكَتْنا الآنِسَةُ فيرلي حَتّى أخْبَرَنا أنَّهُ اطَّلَعَ عَلى صورَةِ الخِطابِ المُرْسَلِ إلى مُحاميهِ ، وَأنَّهُ كانَ يُهِمُّهُ أنْ يَشْرَحَ لَنا كُلَّ شَيْءٍ .

قالَ لَنا إنَّ السَّيِّدَةَ كاثيريك كانَتْ قَدْ قامَتْ عَلى خِدْمَتِهِ هُوَ

وَأسْرَتِهِ بِكُلِّ تَفانٍ وَإخْلاصٍ ، عَلى نَحْوٍ لَنْ يَنْساهُ أبَداً . وَكانَ عَقْلُ ابْنَتِها مُشَوَّشاً دائِماً ، وَأدْرَكَتِ الأمُّ وُجوبَ وَضْعِها تَحْتَ رِعايَةٍ طِبِّيَّةٍ مُناسِبَةٍ ، وَلَكِنَّها لَمْ تَكُنْ لِتَرْغَبَ في أنْ تُرْسَلَ إلى مُسْتَشْفًى عامٍّ لِلأمْراضِ العَقْلِيَّةِ ؛ لِذا فَقَدْ وافَقَ عَلى أنْ يَتَكَفَّلَ بِدَفْعِ نَفَقاتِ وَضْعِها في مُسْتَشْفًى خاصٍّ لِلأمْراضِ العَقْلِيَّةِ ، وَلَكِنَّ الفَتاةَ اكْتَشَفَتْ ، لِسوءِ الحَظِّ ، دَوْرَهُ في الأمْرِ ، فَبَدَأتْ تَكْرَهُهُ . وَكانَ الخِطابُ نَتيجَةَ هَذِهِ الكَراهِيَةِ . وَقَدْ أدّى واجِبَهُ في مُحاوَلَةِ العُثورِ عَلَيْها بَعْدَ هُروبِها ، ثُمَّ أبْدى اسْتِعْدادَهُ لِلإجابَةِ عَنْ أيِّ سُؤالٍ نَوَدُّ أنْ نَسْألَهُ .

وَتَقَبَّلْتُ أقْوالَهُ ، أمّا الآنِسَةُ هالكوم فَقَدْ بَدا عَلَيْها التَّرَدُّدُ . وَلَمّا رَأى ذَلِكَ رَجاها أنْ تَكْتُبَ إلى السَّيِّدَةِ كاثيريك وَتَسْألَها إنْ كانَ ما قالَهُ هُوَ الصِّدْقَ أمْ لا . وَبَعْدَ مَزيدٍ مِنَ التَّرَدُّدِ ، اسْتَجابَتْ إلى رَجائِهِ . وَبَيْنَما كانَتْ تَكْتُبُ الخِطابَ ، مَدَّ يَدَهُ لِكَلْبِ الآنِسَةِ فيرلي الصَّغيرِ الَّذي كانَ يَرْقُدُ أمامَنا عَلى السَّجّادَةِ ، وَلَكِنَّ الكَلْبَ ، كَأمْثالِهِ مِنَ الكِلابِ المُدَلَّلَةِ ، راحَ يَنْبَحُ ، ثُمَّ جَرى لِيَخْتَبِئَ تَحْتَ أحَدِ المَقاعِدِ . وَدَهِشْتُ عِنْدَما لاحَظْتُ أنَّ سير بيرسيفال اسْتَشاطَ غَضَباً ، وَطَلَبَ مِنَ الآنِسَةِ هالكوم أنْ تُخْبِرَ أخْتَهُ بِما تَمَّ ، وَتَرَكَنا لِيَذْهَبَ إلى حُجْرَتِهِ . وَفَهِمْتُ مِنْ حَديثي مَعَ الآنِسَةِ هالكوم ، بَعْدَ

انْصِرافِهِ ، أنَّها كانَتْ لا تَزالُ في شَكٍّ مِنْ هذا الأمْرِ بِرُمَّتِهِ ، ولَكِنَّنا قَرَّرنا ألا نَتحدَّثَ عَنْهُ حتّى يَرِدَ إلَينا الرَّدُّ على خِطابِها .

وَجاءَ بَريدُ الأرْبعاءِ بِالرَّدِّ التّالي :

« سَيِّدَتي ، تَلَقَّيْتُ خِطابَكِ الَّذي تَسْألينَ فيهِ إنْ كانَتِ ابْنَتي آن قَدْ وُضِعَتْ تَحْتَ الرِّعايَةِ الطِّبِّيَّةِ بِعِلْمي وَمُوافَقَتي ، وَعَمّا إنْ كُنْتُ شاكِرَةً لِفَضْلِ سير بيرسيڤال غلايد لِدَوْرِهِ في هذا الشَّأنِ . ورَدًّا على سُؤالَيْكِ أقولُ : نَعَم .

خادِمَتُكِ المُطيعَةُ

جين آن كاثيريك »

كانَ خِطاباً مُقْتَضَباً وجافّاً . لَمْ يَكُنْ يُشْبِهُ خِطاباً مِنَ امْرأةٍ ، وَلكِنَّهُ كانَ يُؤيِّدُ ، بِوُضوحٍ ، كُلَّ ما قالَهُ سير بيرسيڤال . وَتَحدَّثَتْ مَعي الآنِسَةُ هالكوم قَبْلَ الذَّهابِ لإخْبارِ أُخْتِها عَنْ مَضْمونِ ذَلِكَ الرَّدِّ ، كَما أنْبَأتْني أنَّ سير بيرسيڤال قَدْ لاحَظَ تَغيُّراً في أسْلوبِ الآنِسَةِ فيرلي ، وَأنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَرْغَبُ في الضَّغْطِ عَلَيْها لِلزَّواجِ مِنْهُ إنْ لَمْ تَكُنْ راغِبَةً في ذَلِكَ ، وَأنَّ كُلَّ ما يَطْلُبُهُ مِنْها أنْ تَتَذَكَّرَ سُلوكَهُ مُنْذُ بِدايَةِ الخُطوبَةِ ، وَرَغَباتِ أبيها قَبْلَ وَفاتِهِ ، فَإذا أرادَتْ ، بَعْدَ ذَلِكَ ، ألا تَرْتَبِطَ بِهِ ، فَإنَّهُ سَيُضَحّي بِنَفْسِهِ ويَتْرُكُها لِشَأنِها .

قُلْتُ : « ما مِنْ رَجُلٍ يَسْتَطيعُ أنْ يَقولَ أكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ .»

قالَتْ : « لَسْتُ مُتأكِّدَةً . تَذَكَّرْ شَخْصِيَّةَ لورا . إنْ طَلَبْتُ إلَيْها أنْ تَتذَكَّرَ ظُروفَ خُطوبَتِها فَلَنْ تَنْسى حُبَّها لأبيها . إنَّها لَمْ تَحْنَثْ قَطُّ بِوَعْدٍ واحِدٍ في حَياتِها .»

وَشَعَرْتُ بِبَعْضِ الارْتِباكِ ، فَسَألْتُها : « قَطْعاً أنْتِ لا تَعْنينَ أنَّهُ كانَ يَعْتَمِدُ على هاتَيْنِ النُّقْطَتَيْنِ عِنْدَما أوْحى بِهِما ؟ هَلْ تَعْتَقِدينَ أنَّهُ كانَ عَلى يَقينٍ أنَّها لَنْ تَحْنَثَ بِوَعْدِها ؟»

أجابَتْ : « لَوْ أنَّني كُنْتُ أعْتَقِدُ ذَلِكَ ؛ لَما كُنْتُ لأبْقى في رِفْقَتِهِ لَحْظَةً واحِدَةً .»

وَلَمْ تَزِدْ على ذَلِكَ ، وَلَكِنَّني شَعَرْتُ مِنْ طَريقَتِها أنَّها كانَتْ تُخْفي شَيْئاً عَنّي .

سَمِعْتُ بَعْدَ ذَلِكَ أنَّ الآنِسَةَ فيرلي طَلَبَتْ إمْهالَها حَتّى نِهايَةِ العامِ قَبْلَ تَحْديدِ مَوْعِدٍ لِلزَّواجِ . كانَ هَذا ، بِلا رَيْبٍ ، شَيْئاً مُريحاً لَها ، وَلَكِنَّهُ كانَ أمْراً عَسيراً بِالنِّسْبَةِ لي ؛ فَقَدْ كانَ عَلَيَّ أنْ أعودَ إلى لَنْدَن ، وَلَمْ يَكُنْ بِمَقْدوري العَوْدَةُ إلى ليميريدج لِمُناقَشَةِ اتِّفاقيَّةِ هِبَةِ الزَّواجِ في تاريخٍ لاحِقٍ ؛ لِذا طَلَبْتُ رُؤْيَةَ الآنِسَةِ فيرلي في صَبيحَةِ اليَوْمِ التّالي ، وَذَهَبْتُ إلى غُرْفَةِ جُلوسِها لِلتَّحدُّثِ مَعَها في

ذَلِكَ المَوْضوعِ . كانَتِ المِسْكينَةُ تَبْدو في غايَةِ الشُّحوبِ وَالحُزْنِ ، حَتّى إِنَّني لَمْ أَسْتَطِعْ أَنْ أُحَدِّثَها على نَحْوٍ جادٍّ ، بَلْ فَتَحْتُ بابَ الحَديثِ مَعَها بِتَذْكيرِها بِوَقْتِ أَنْ كانَتْ طِفْلَةً صَغيرَةً وَكانَتْ تَجْلِسُ عَلى رُكْبَتَيَّ .

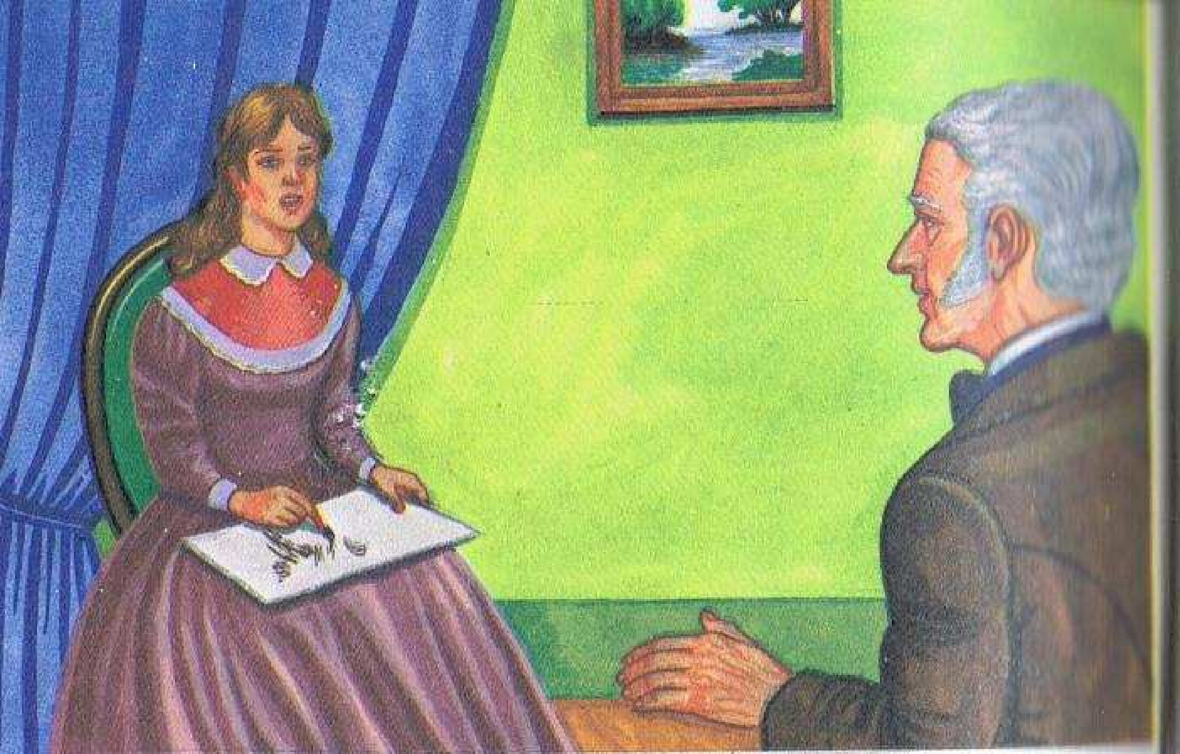
قُلْتُ لَها في تَوَدُّدٍ : « مِنْ أَحَدِ الأَسْبابِ الَّتي جِئْتُ إِلَيْكِ مِنْ أَجْلِها هُوَ أَنْ أُوَدِّعَكِ ، يا عَزيزَتي .»

أَجابَتْ: « يُؤْسِفُني أَنَّكَ ذاهِبٌ ! إِنَّ وُجودَكَ بَيْنَنا يُذَكِّرُني بِالأَيّامِ السَّعيدَةِ الماضِيَةِ .»

وَمَضَيْتُ أَقولُ : « أَنا لَسْتُ مُتَأَكِّدًا مِنْ أَنَّني سَأَكونُ قادِرًا عَلى العَوْدَةِ إِلى هُنا ، يَجِبُ أَنْ أَنْتَهِزَ هَذِهِ الفُرْصَةَ لِلْحَديثِ عَنْ زَواجِكِ المُرْتَقَبِ .»

كانَتْ يَدُها تَعْبَثُ بِكُرّاسَةِ رَسْمٍ ، وَلَكِنَّها ، حالَ سَماعِها قَوْلي ، سَحَبَتْها فَجْأَةً وَكَأَنَّها قَدْ لَسَعَتْها ، وَبَدَتْ عَلَيْها أَماراتُ عَصَبِيَّةٍ شَديدَةٍ .

وَاسْتَطْرَدْتُ أَقولُ : « إِنْ كُنْتِ سَتَتَزَوَّجينَ فَيَنْبَغي عَلَيَّ أَنْ أَكونَ مُسْتَعِدًّا لِكِتابَةِ اتِّفاقِيَّةِ هِبَةِ زَواجِكِ . قَدْ تَكونُ هَذِهِ هِيَ فُرْصَتي الوَحيدَةَ لِسَماعِ رَغَباتِكِ ، وَيُسْتَحْسَنُ أَنْ أُنَبِّئَكِ عَنْ وَضْعِكِ الآنَ ، وَما يُمْكِنُكِ أَنْ تَجْعَليهِ في المُسْتَقْبَلِ .»



وَأَخَذْتُ أَشْرَحُ لَها كُلَّ شَيْءٍ عَنْ أَمْوالِها ، وَهِيَ تُنْصِتُ إِلَيَّ بِانْتِباهٍ طيلَةَ الوَقْتِ . وَعِنْدَما سَأَلْتُها إِنْ كانَ ثَمَّةَ شَيْءٌ تُريدُ مِنّي أَنْ أُدَبِّرَهُ ، قالَتْ : « لا تَدَعْهُ يُفَرِّقْ بَيْني وَبَيْنَ ماريان ! آهٍ ، يا سَيِّدُ غيلمور ، أَرْجو أَنْ تَشْتَرِطَ عَلَيْهِ أَنْ تَعيشَ ماريان مَعي !»

وَشَعَرْتُ بِالأَسَفِ إِذْ وَجَدْتُ أَنَّها كانَتْ تَخْشى أَنْ تَنْفَصِلَ عَنِ الماضي . خُيِّلَ إِلَيَّ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُبَشِّرُ بِمُسْتَقْبَلٍ سَعيدٍ . أَوْضَحْتُ لَها أَنَّ ذَلِكَ يُمْكِنُ تَرْتيبُهُ دونَ شَكٍّ ، وَلَكِنَّ أَقْوالَها كانَتْ هِيَ الشَّيْءَ الَّذي يُهِمُّنا مُناقَشَتُهُ . سَأَلْتُها : « إِنْ أَنْتِ كَتَبْتِ وَصِيَّةً ، فَلِمَنْ تَرْغَبينَ أَنْ تَتْرُكي أَمْوالَكِ ؟»

سألَتْ : « أ يُمكِنُني أنْ أتْرُكَها لِماريان ، يا سَيِّدُ غيلمور ؟»

أجَبْتُ : « بِكُلِّ تأكيدٍ ، ولَكِنَّهُ مَبْلَغ كَبيرٌ . أ تُريدينَ أنْ يَئولَ جَميعُهُ إلَيْها ؟»

« لَيْسَ كُلُّهُ . هُناكَ شَخصٌ آخَرُ إلى جانِبِ ماريان .»

وتَوقَّفَتْ وقَدْ وَضَعَتْ أصابِعَ يَدِها في رِفْقٍ ، على كُرّاسَةِ الرَّسْم ثُمَّ واصلَتْ حَديثَها .

قالَتْ : « ثَمَّةَ شَخصٌ آخَرُ قَدْ يُحِبُّ شَيْئاً صَغيراً مِنّي إنْ قُدِّرَ وتَركْتُهُ ؛ فَلَنْ يَكونَ هُناكَ ضَيْرٌ إنْ أنا مِتُّ أوّلاً ...»

وتَوَقَّفَتْ ثانِيَةً ، وأخْفَتْ وَجْهَها في راحَتَيْها . ونَسيتُ السَّنَواتِ الَّتي مَضَتْ ، ونَقَلْتُ المَقْعَدَ بِالقُرْبِ مِنْها ، وأزَحْتُ كَفَّيْها عَنْ وَجْهِها .

قُلْتُ : « لا تَبْكي ، يا عَزيزَتي .» وأسْنَدْتُ رَأسَها على كَتِفي .

قالَتْ : « مَعْذِرَةً . لَسْتُ على ما يُرامُ . إنّني كَثيراً ما أبْكي دونَ أيِّ سَبَبٍ . إنّني بِخَيْرِ الآنَ . أسْتَطيعُ الإجابَةَ عَنْ أسْئِلَتِكَ .»

أجَبْتُ : « لا ، لا ، يا عَزيزَتي ، لِنَنْسَ هَذا المَوْضوعَ ، ولْنَتَكَلَّمْ عَنْ شَيْءٍ آخَرَ . لَقَدْ قُلْتِ ما يَكْفي .» ونَهَضْتُ سَريعاً واسْتَأْذَنْتُها في الانْصِرافِ .

لَمْ يَسْتَغْرِقْ حَديثُنا كُلُّهُ أكْثَرَ مِنْ نِصْفِ ساعَةٍ . وعَلى الرَّغْمِ مِنْ أنَّها لَمْ تُعْطِ أيَّ تَفْسيرٍ لِبُؤْسِها حِيالَ فِكْرَةِ زَواجِها ، فَقَدْ كَسَبَتْني إلى جانِبِها فيما يَتَعَلَّقُ بِهَذا الأمْرِ . كُنْتُ قَدْ جِئْتُ ولَدَيَّ شُعورٌ بِأنَّ سير بيرسيڤال مِنْ حَقِّهِ ، وبِدَرَجَةٍ مَعْقولَةٍ ، أنْ يَشْكُوَ مِنْ أسْلوبِ مُعامَلَتِها لَهُ ، وغادَرْتُ البَيْتَ وكُلّي أمَلٌ ألا يَتِمَّ الزَّواجُ .

لَقَدْ دَهِشْتُ وأسِفْتُ عِنْدَما سَمِعْتُ ، حالَ عَوْدَتي إلى لَنْدَن ، أنَّها سَتَتَزَوَّجُ في شَهْرِ ديسمبر ، أيْ قَبْلَ حَوالى ثَلاثَةِ أشْهُرٍ مِنْ عيدِ ميلادِها الحادي والعِشْرينَ . أمّا السَّبَبُ في هَذا القَرارِ المُفاجِئِ فأتْرُكُهُ لِلآنِسَةِ هالكوم لِتِبْيانِهِ في مَكانِهِ ، ولَكِنْ قَبْلَ أنْ أكُفَّ عَنِ الكِتابَةِ ، أرى أنَّ واجِبي يُحَتِّمُ عَلَيَّ أنْ أشْرَحَ التَّفاصيلَ الخاصَّةَ بِشُئونِ الآنِسَةِ فيرلي المالِيَّةِ ، وهَذا ما سَأفْعَلُهُ الآنَ .

كانَ نَصيبُها قِسْمَيْنِ : أراضٍ وأمْوالٍ . أوَّلاً : الأراضي ، وكانَتْ في ذَلِكَ الوَقْتِ في حَوْزَةِ عَمِّها السَّيِّدِ فريدريك فيرلي ، فإذا تُوُفِّيَ دونَ ابْنٍ يَرِثُهُ ، فَإنَّها تَتَمَتَّعُ مَدى حَياتِها بِريعِها البالِغِ ثَلاثَةَ آلافِ جُنَيْهٍ سَنَوِيًّا . وإذا تُوُفِّيَتْ قَبْلَ زَوْجِها ، فَإنَّهُ يَتَلَقّى هَذا المَبْلَغَ أثْناءَ حَياتِهِ ، ثُمَّ يَئولُ إلى ابْنِها – إنْ كانَ لَها ابْنٌ – بَعْدَ ذَلِكَ . إذا لَمْ يَكُنْ هُناكَ أيَّةُ مُشْكِلَةٍ بِهَذا الصَّدَدِ .

عَلى كُلٍّ ، كانَ مِنَ المُقَرَّرِ أنْ تَتَلَقّى الآنِسَةُ فيرلي بَعْضَ المالِ

عِنْدَ بُلوغِها الحادِيَةَ والعِشْرينَ ، وهَذا ما كانَ يَجِبُ ، حينذاكَ ، النَّظَرُ فيهِ . كانَ هَذا البَنْدُ مِنْ جزْأيْنِ : فَبموجَبِ وَصِيَّةِ أبيها تَتَلَقّى عِشْرينَ أَلْفَ جُنَيْهٍ ، بِالإضافَةِ إلى فَوائِدِ عَشْرَةِ آلافِ جُنَيْهٍ طيلَةَ حَياتِها . وَهَذِهِ العَشَرَةُ آلافٍ لا يُمْكِنُ أنْ تَمَسَّها ، ثُمَّ بَعْدَ وفاتِها يَئُولُ هَذا المَبْلَغُ إلى عَمَّتِها اليانور – الأُخْتِ الوَحيدَةِ لأَبيها .

وَكانَ السَّيِّدُ فيليب فيرلي يَنْوي ، أَصْلاً ، أَنْ يَتْرُكَ مَبْلَغَ العَشْرَةِ آلافِ جُنَيْهٍ لأُخْتِهِ مُباشَرَه ، وَلَكِنَّ تِلْكَ السَّيِّدَةَ أَغْضَبَتْهُ بِزَواجِها بِنَبيلٍ إيطالِيٍّ يُدْعى كونت فوسكو ، وَمِنْ ثَمَّ غَيَّرَ وَصِيَّتَهُ . وَكانَتِ الآنِسَةُ فيرلي قَدْ تَوَسَّلَتْ إلى أبيها أنْ يَلْتَزِمَ بِنِيَّتِهِ الأُولى وَأَنْ يَتْرُكَ هَذا المَبْلَغَ مُباشَرَةً ، لِعَمَّتِها ، وَلَكِنَّهُ رَفَضَ طَلَبَها . وَلَمّا كانَتِ العَمَّةُ تَكْبُرُ الآنِسَةَ فيرلي بِكَثيرٍ ، وَمِنَ الأَرْجَحِ أَنْ تَموتَ أَوَّلاً ، فَلَمْ يَكُنْ مِنَ المُحْتَمَلِ أَنْ تَرِثَ هَذا المَبْلَغَ ، لِذا كانَ مِنَ الطَّبيعِيِّ أَنْ تَغْضَبَ مِنْ هَذِهِ المُعامَلَةِ ، فَكانَتْ تَرْفُضُ رُؤْيَةَ ابْنَةِ أَخيها ، وَما كانَتْ لِتُصَدِّقَ قَطُّ ، أَنَّ الآنِسَةَ فيرلي قَدْ طَلَبَتْ مِنْ أبيها أَنْ يَتْرُكَ هَذا المَبْلَغَ مُباشَرَةً لَها . هَكَذا كانَ تاريخُ العَشْرَةِ آلافِ جُنَيْهٍ . الفائِدَةُ تَذْهَبُ إلى الآنِسَةِ فيرلي مَدى حَياتِها ، ثُمَّ يَئُولُ المَبْلَغُ كُلُّهُ لِعَمَّتِها .

نَأْتي الآنَ إلى العِشْرينَ أَلْفَ جُنَيْهٍ – المُشْكِلَةِ الحَقيقِيَّةِ . كانَ ذَلِكَ المَبْلَغُ سَيَئُولُ لِلآنِسَةِ فيرلي في عيدِ ميلادِها الحادي والعِشْرينَ

وكانَ مَصيرُهُ يَتَوَقَّفُ على التَّرْتيباتِ المُدَوَّنَةِ في هِبَةِ الزَّواجِ . وكانَتْ تَرْتيباتي هِيَ : أَنْ تُعْطى فَوائِدُ المَبْلَغِ لِلَيْدي غلايد مَدى حَياتِها ، ثُمَّ مِنْ بَعْدِها ، لِسير بيرسيڤال مَدى حَياتِهِ ، ثُمَّ يَئُولُ المَبْلَغُ كُلُّهُ لأَبْنائِهِما مِنَ الزَّواجِ ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ هُناكَ أَبْناءٌ فَإِنَّ ليدي غلايد تَسْتَطيعُ أَنْ تَفْعَلَ ما تَشاءُ بِمالِها في الوَصِيَّةِ ، تارِكَةً إِيّاهُ حَسَبَ رَغْبَتِها ، رُبَّما لِلآنِسَةِ هالكوم أَوْ لِمَعارِفَ آخَرينَ . كانَ ذَلِكَ يَبْدو لي تَصَرُّفًا عادِلاً .

وَلَكِنَّ مُحامِيَ الزَّوْجِ ، السَّيِّدَ ميريمان ، اعْتَرَضَ عَلى ذَلِكَ . كانَ يُريدُ أَنْ يَئُولَ كُلُّ هَذا المَبْلَغِ إلى سير بيرسيڤال إِنْ تُوُفِّيَتْ زَوْجَتُهُ أَوَّلاً ؛ أَيْ لا يَذْهَبُ بِنْسٌ واحِدٌ مِنَ العِشْرينَ أَلْفَ جُنَيْهٍ إلى الآنِسَةِ هالكوم ، أَوْ لأَيٍّ مِنْ أَقْرِباءِ أَوْ مَعارِفِ ليدي غلايد . كانَ لا بُدَّ أَنْ يَذْهَبَ المَبْلَغُ كُلُّهُ إلى جَيْبِ سير بيرسيڤال .

وَتَجادَلْتُ كَثيرًا مَعَ السَّيِّدِ ميريمان حَوْلَ هَذا الاقْتِراحِ الغَريبِ ، وَلَكِنْ دونَ جَدْوى . وَكَتَبْتُ إلى السَّيِّدِ فيرلي ، وَلَكِنَّهُ رَفَضَ أَنْ يُناقِشَ الأَمْرَ لِما قَدْ يُسَبِّبُهُ لَهُ مِنْ إِزْعاجٍ وَإِرْهاقٍ . ثُمَّ عَلِمْتُ أَنَّ سير بيرسيڤال كانَ مُثْقَلاً بِالدُّيونِ ، لِذا فَقَدْ كانَ في حاجَةٍ مُلِحَّةٍ إلى المالِ . وَأَظُنُّ أَنَّ هَذا كانَ السَّبَبَ في طَلَبِ مُحاميهِ في اتِّفاقِيَّةِ هِبَةِ الزَّواجِ .

وَبَيْنَما كُنْتُ أَتَحَدَّثُ عَنْ هَذا المَوْضوعِ ـ ذاتَ يَوْمٍ ـ إلى السَّيِّدِ ميريمان ذَكَرَ رِسالَةَ آن كاثيريك ، فَسَأَلْتُهُ إِنْ كانَ قَدْ تَمَّ العُثورُ عَلَيْها .

قالَ : « لَيْسَ بَعْدُ . إِنَّنا نَظُنُّ أَنَّ رَجُلاً ما يُخْفيها عِنْدَهُ . إِنَّنا نُراقِبُ ذَلِكَ الرَّجُلَ ، وَسَنَرى ما يَحْدُثُ .»

كُنْتُ في غايَةِ الاسْتِياءِ مِنْ خِطابِ السَّيِّدِ فيرلي حَوْلَ مَبْلَغِ العِشْرينَ أَلْفَ جُنَيْهٍ ، فَكانَ أَنْ ذَهَبْتُ لأَراهُ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يُسْعِفْني إِطْلاقًا . طَلَبَ إِلَيَّ أَنْ أُوافِقَ عَلى رَغَباتِ سير بيرسيفال ، فَكانَ عَلَيَّ ، في خاتِمَةِ المَطافِ ، أَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ . وَلَكِنَّني حَذَّرْتُهُ أَنَّها كانَتْ غَلْطَةً شَنيعَةً أَنْ يُحَرِّرَ اتِّفاقَ يُعْطي الزَّوْجَ عِشْرينَ أَلْفَ جُنَيْهٍ عِنْدَ وَفاةِ زَوْجَتِهِ .

لَقَدْ أَتْمَمْتُ عَمَلي ؛ إِذْ إِنَّ دَوْري في تِلْكَ الأَحْداثِ يَنْتَهي عِنْدَ هَذِهِ المَرْحَلَةِ . وَأُكَرِّرُ بِكُلِّ جِدِّيَّةٍ وَأَسًى بَعْضَ كَلِماتٍ قُلْتُها لِلسَّيِّدِ فيرلي : مِنَ المُحالِ أَنْ أُزَوِّجَ ابْنَةً لي لأَيِّ رَجُلٍ ، كائِنًا مَنْ كانَ ، وَفْقَ هَذِهِ الاتِّفاقِيَّةِ ، الَّتي أَجِدُ نَفْسي مُضْطَرًّا لِتَحْريرِها لِلورا فيرلي .

ماريان هالكوم تُواصِلُ القِصَّةَ

الفَصْلُ الثّامِنُ

إِنَّ تَسْجيلَ تِلْكَ الأَحْداثِ الَّتي احْتَفَظْتُ بِها في مُفَكِّرَتي يَسْمَحُ لي بِسَرْدِها بِشَيْءٍ مِنَ التَّفْصيلِ .

لَقَدْ تَرَكَنا السَّيِّدُ غيلمور في صَباحِ الثّامِنِ مِنْ نوفمبر ، وَهُوَ في غايَةِ الحُزْنِ وَالدَّهْشَةِ ؛ حَتّى إِنَّني خَشيتُ أَنْ تَكونَ لورا قَدْ أَفْضَتْ إِلَيْهِ بِسِرِّها . وَأَذْهَلَني اكْتِشافُ قُوَّةِ مَشاعِرِها الحَزينَةِ . وَكانَ عَلَيَّ أَنْ أُدْرِكَ أَنَّ رِقَّةَ مَشاعِرِ ذَلِكَ المِسْكينِ هارترايت مَعَ فَضيلَةِ الشَّرَفِ عِنْدَهُ كانَتا – بِالذّاتِ – الصِّفَتَيْنِ اللَّتَيْنِ تَجْذِبانِها إِلَيْهِ . وَبَدَأْتُ أَخْشى أَنْ يَكونَ حُبُّها قَدِ اسْتَحْوَذَ عَلَيْها عَلى نَحْوٍ دائِمٍ ، وَأَنَّهُ سَيُغَيِّرُها طيلَةَ حَياتِها . وَلَمْ أَكُنْ قَدْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ مِنْ قَبْلُ ، فَبَدَأْتُ أَشُكُّ ، لأَوَّلِ مَرَّةٍ ، في حُكْمي عَلى الأُمورِ .

وَ وَجَدْتُها تَذْرَعُ الغُرْفَةَ جيئَةً وَذَهابًا وَقَدِ اسْتَبَدَّ بِها القَلَقُ .

وَلِدَهْشَتي قَرَّرْتُ أنْ أصارِحَ سير بيرسيفال بِالحَقيقَةِ . إنَّها لَنْ تُناشِدَه أنْ يُطْلِقَ سَراحَها ، فَقَدْ تَمَّتْ خُطوبَتُها بِواسِطَةِ أبيها ، وَلَكِنَّها لَنْ تَتَزَوَّجَهُ ، وَلَدَيْها سِرٌّ لَمْ يَكُنْ يَعْرِفُهُ .

وَتَلَقَّيْتُ خِطاباً مِنْ هارتِرايت يَقولُ فيهِ إنَّهُ لَنْ يَسْتَطيعَ العَوْدَةَ إلى سابِقِ عَهْدِهِ أوْ عَمَلِهِ ، وَيَسْألُني إنْ كُنْتُ أسْتَطيعُ أنْ أسْتَخْدِمَ نُفوذي لِلْحُصولِ لَهُ عَلى عَمَلٍ بِالخارِجِ . كَما أثارَ مَخاوِفي أيْضاً بِقَوْلِهِ إنَّهُ كانَ مُراقَباً دائِماً مِنْ قِبَلِ رِجالٍ أغْرابٍ مُنْذُ عَوْدَتِهِ إلى لَنْدَن . كانَ يَبْدو أنَّ فِكْرَتَهُ المُرَكَّزَةَ عَلى لورا قَدْ أثَّرَتْ عَلى حالَتِهِ النَّفْسِيَّهِ ، فَقَرَّرْتُ أنْ أكْتُبَ إلى بَعْضِ أصْدِقاءَ لأمّي مِنْ ذَوي النُّفوذِ في لَنْدَن ، أسْألُهُمْ إنْ كانوا يَسْتَطيعونَ الحُصولَ لَهُ عَلى الوَظيفَةِ الَّتي يُريدُها . وكُنْتُ أعْتَقِدُ أنَّ تَغَيُّرَ المَكانِ سَيُساعِدُهُ في هَذا الوَقْتِ العَصيبِ مِنْ حَياتِهِ .

وَطَلَبَتْ مِنّي لورا أنْ أكونَ مُتَواجِدَةً حينَ تُخْبِرُ سير بيرسيفال بِما كانَ عَلَيْها أنْ تَقولَهُ . وَلِدَهْشَتي كانَتْ تَبْدو هادِئَةً تَنُمُّ مَلامِحُها عَنْ إصْرارٍ عَنيدٍ . وَتَبَدَّتْ قُوَّةٌ كامِنَةٌ في شَخْصِيَّتِها لَمْ أعْهَدْها فيها مِنْ قَبْلُ . وَعِنْدَما وَصَلَ لِرُؤْيَتِها لاحَظْتُ خُطوطاً سَطَّرَها القَلَقُ عَلى وَجْهِهِ ، كَما ازْدادَ السُّعالُ الجافُّ الَّذي كانَ يُزْعِجُهُ . وَسادَتْ فَتْرَةُ صَمْتٍ قَبْلَ أنْ تَقْطَعَهُ لورا .

قالَتْ : « أريدُ أنْ أتَحَدَّثَ إلَيْكَ ، يا سير بيرسيفال ، في مَوْضوعٍ يُهِمُّنا نَحْنُ الاثْنَيْنِ . إنَّ أخْتي هُنا لأنَّ وُجودَها يُساعِدُني ، وَلَكِنَّها لَمْ تُوحِ إلَيَّ بِكَلِمَةٍ واحِدَةٍ مِمّا سأقولُ . »

وَأحْنى رَأسَهُ وَلَكِنَّهُ لَمْ يَنْبِسْ بِبِنْتِ شَفَةٍ .

وَمَضَتْ تَقولُ : « لَقَدْ كُنْتَ كَريماً مَعي حينَ قُلْتَ إنَّني أسْتَطيعُ أنْ أكونَ حُرَّةً طَليقَةً ، إنْ شِئْتُ ، وَلَكِنَّني أذْكُرُ أنَّكَ طَلَبْتَ إذْنَ والِدي قَبْلَ أنْ تُشَرِّفَني بِطَلَبِ يَدي . إنَّ تأثيرَ والِدي جَعَلَني أوافِقُ عَلى خُطوبَتِنا ؛ لأنَّهُ كانَ خَيْرَ صَديقٍ لي . وَمُنْذُ ذَلِكَ الحينِ ، لَمْ أجِدْ مَوْضِعَ نَقْدٍ في سُلوكِكَ . لَقَدْ كُنْتَ جَديراً بِثِقَتي ، وَلَمْ تُعْطِني أيَّ عُذْرٍ لِلْمُطالَبَةِ بِإعْفائي مِنَ الخِطْبَةِ ، لِذا لا أسْتَطيعُ أنْ أطالِبَكَ بِذَلِكَ . إنَّ فَسْخَ خُطوبَتِنا يَجِبُ أنْ يَكونَ بِمَحْضِ رَغْبَتِكَ أنْتَ ، وَبِمَحْضِ تَصَرُّفِكَ أنْتَ ، يا سير بيرسيفال ، وَلَيْسَ بِناءً عَلى رَغْبَتي أوْ تَصَرُّفي . »

سَألَها : « بِمَحْضِ تَصَرُّفي ؟ أيُّ سَبَبٍ يُمْكِنُ أنْ يَكونَ مِنْ جانِبي ؟ »

وَسَمِعْتُ أنْفاسَها تَتَلاحَقُ بِسُرْعَةٍ أكْبَرَ ، وَلَكِنَّها اسْتَأنَفَتْ حَديثَها بِهُدوءٍ : « سَبَبٌ مِنَ الصَّعْبِ أنْ أنْبِئَكَ بِهِ . لَقَدْ حَدَثَ لي تَغَيُّرٌ خَطيرٌ . »

وَاعْترى وَجْهَهُ شُحوبٌ ، بَلْ وَهَرَبَ الدَّمُ مِنْ شَفَتَيْهِ أيضاً ، وَسَأَلَ في صَوْتٍ أجَشَّ : « أيُّ تَغَيُّرٍ تَعْنين ؟»

وَتَنَهَّدَتْ بِصُعوبَةٍ ثُمَّ قالَتْ : « الحُبُّ الَّذي كانَ عِنْدي لأمْنَحكَ إيّاهُ ، إنْ كُنْتَ اسْتَطَعْتَ أنْ تَظْفَرَ بِهِ ، عِنْدَما بَدَأتْ خُطوبَتُنا ، لَمْ يَعُدْ كَذلِكَ الآنَ .»

وَتَجَمَّعَتْ بِضْعُ دُموعٍ في مُقْلَتَيْها وَهِيَ تَنْتَظِرُ رَدَّهُ ، وَلكِنَّهُ لَمْ يَنْطِقْ بِكَلِمَةٍ واحِدَةٍ ، بَلْ جَلَسَ ساكِناً تَماماً .

قُلْتُ : « أ لَيْسَ لَدَيْكَ ما تَقولُهُ ، يا سير بيرسيڤال ؟»

وَلكِنَّ لورا مَضَتْ تَقولُ : « إنْ تَرَكْتَني ، يا سير بيرسيڤال ، بَعْدَ ما سَمِعْتَهُ الآنَ ، فَلَنْ أتَزَوَّجَ رَجُلاً آخَرَ . لَمْ تَدُرْ كَلِمَةٌ واحِدَةٌ بَيْني وَبَيْنَ مَنْ أتَحَدَّثُ عَنْهُ بِهذا الشَّأنِ ، وَلَيْسَ مِنَ المُحْتَمَلِ أنْ نَتَقابَلَ في هذا العالَمِ ثانِيَةً . لَقَدْ صارَحْتُكَ بِالحَقيقَةِ الَّتي أعْتَقِدُ أنَّ زَوْجي المُرْتَقَبَ لَهُ الحَقُّ في أنْ يَسْمَعَها . أتَوَسَّلُ إلَيْكَ أنْ تَغْفِرَ لي ، وَأنْ تَحْفَظَ سِرّي . أظُنُّ أنَّني قُلْتُ ما يَكْفي لِيَسْمَحَ لَكَ بِفَسْخِ خِطْبَتِنا .»

أجابَ : « بَلْ لَقَدْ قُلْتِ ما يَكْفي لِجَعْلِها أعَزَّ أُمْنِيَّةٍ في حَياتي – أُمْنِيَّةٍ أتَمَسَّكُ بِها .»

وَأفْلَتَتْ صَرْخَةُ دَهْشَةٍ واهِنَةٌ مِنْ بَيْنِ شَفَتَيْها ، وَلكِنَّهُ اسْتَرْسَلَ

يَقولُ : « أنا لَسْتُ مِنَ القَسْوَةِ بِحَيْثُ أتَخَلّى عَنْ واحِدَةٍ أظْهَرَتْ أنَّها مِنْ أنْبَلِ النِّساءِ .»

قالَتْ : « لا ، بَلْ مِنْ أتْعَسِ النِّساءِ ، ما دامَتْ لَنْ تَسْتَطيعَ أنْ تَمْنَحَ حُبَّها لِمَنْ يَتَزَوَّجُها .»

سَأَلَ : « أ لَنْ تَمْنَحَهُ في المُسْتَقْبَلِ ؟»

« أبَداً . إنْ تَزَوَّجْتَني فَسَأكونُ زَوْجَتَكَ الوَفِيَّةَ المُخْلِصَةَ . أمّا أنْ أكونَ زَوْجَتَكَ المُحِبَّةَ ، فَلا !»

قالَ : « إنَّني أقْبَلُ شاكِراً وَفاءَكِ وَإخْلاصَكِ . إنَّ أقَلَّ ما تَسْتَطيعينَ تَقْديمَهُ لي هُوَ أكْثَرُ مِمّا آمُلُ فيهِ مِنْ أيَّةِ امْرَأةٍ أُخْرى في العالَمِ .»

وَلَبِثَتْ طَويلاً بَعْدَ انْصِرافِهِ دونَ حِراكٍ أوْ كَلامٍ ، ثُمَّ قالَتْ : « إنَّ لِحَياتِيَ الجَديدَةِ ، يا ماريان ، واجِباتِها العَسيرَةَ ، وَها هِيَ ذي إحْداها تَبْدَأُ اليَوْمَ .»

وَأوْدَعَتْ ، في أحَدِ الأدْراجِ ، كُلَّ الصُّوَرِ وَالأقْلامِ الَّتي كانَتْ تُذَكِّرُها بِهارترايت ، ثُمَّ أغْلَقَتْهُ وَأعْطَتْني المِفْتاحَ قائِلَةً :

« إنْ كَتَبْتِ إلَيْهِ ، فَقولي لَهُ دائِماً إنَّني بِخَيْرٍ ، وَلا تَقولي أبَداً

إنّني تَعيسَةٌ . لا تَجْعَليهِ يَشْعُرُ بالأسى ، يا ماريان . وَإذا مِتُّ ، فَقولي لَهُ إنّني كُنْتُ أحِبُّهُ .»

وَانْفَجَرَتْ باكِيَةً ، وَلَمْ أسْتَطِعْ أنْ أمْنَعَها . وَلَمْ تَتَطَرَّقْ ثانِيَةً إلى الحَديثِ عَنْ هَذا المَوْضوعِ في ذَلِكَ اليَوْمِ .

وَعِنْدَما ذَهَبَ سير بيرسيڤال لِرُؤْيَةِ السَّيِّدِ فيرلي لِيُرَتِّبَ مَعَهُ مَوْعِدَ الزَّواجِ ، طَلَبَ مِنّي أنْ أنْضَمَّ إلَيْهِما . وَاقْتَرَحَ السَّيِّدُ فيرلي أنْ يَتِمَّ تَحْديدُ مَوْعِدِ الزَّواجِ حَسَبَ رَغْبَةِ سير بيرسيڤال ، وَلَكِنَّني اعْتَرَضْتُ بِشِدَّةٍ ، وَغادَرْتُ الحُجْرَةَ . بَيْدَ أنَّ لورا ، حينَ أخْبَرْتُها بِأمْرِ مُناقَشَتِنا ، ما كانَتْ لِتَسْمَحَ لي أنْ أحاوِلَ تَأجيلَ الزَّواجِ . لَقَدْ وَجَدْتُها ، في يَأسِها ، مُصَمِّمَةً عَلى رَأيِها ، لِذا فَقَدْ فازَ سير بيرسيڤال بِبُغْيَتِهِ ، وَغادَرَ البَيْتَ في عَجَلَةِ رَجُلٍ سَعيدٍ كانَ عَلَيْهِ أنْ يُعِدَّ العُدَّةَ لِزَواجِهِ القادِمِ .

وَتَلَقَّيْتُ خِطاباً مِنْ أحَدِ السّادَةِ الَّذينَ كَتَبْتُ لَهُمْ عَنْ ولتر هارترايت يُبْلِغُني فيهِ أنَّهُ قَدِ اسْتَطاعَ أنْ يُساعِدَني في هَذا الأمْرِ ، وَأنَّ هارترايت سَيَعْمَلُ ، في القَريبِ العاجِلِ ، في أمْريكا الوُسْطى مَعَ فَريقِ رِجالٍ سَيَذْهَبونَ إلى هُناكَ لِدِراسَةِ المُدُنِ الأثَرِيَّةِ في هُنْدوراس . كَما كَتَبَ إلَيَّ ولتر نَفْسُهُ . وَكُنْتُ آمُلُ أنَّ كِلَيْنا يَفْعَلُ الصَّوابَ ، فَقَدْ كانَ الأمْرُ يَبْدو خَطيراً أنْ يَتْرُكَ وَطَنَهُ وَأصْدِقاءَهُ طيلَةَ سِتَّةِ شُهورٍ

أوْ رُبَّما لِفَتْرَةٍ أطْوَلَ .

وَأخيراً حُدِّدَ مَوْعِدُ الزَّواجِ بِصِفَةٍ نِهائِيَّةٍ في الثّاني وَالعِشْرينَ مِنْ ديسمبر . وَعِنْدَما سَمِعَتْ لورا بِذَلِكَ ، تَبَدَّدَ هُدوؤُها ، وَتَفَجَّرَتِ الدُّموعُ مِنْ عَيْنَيْها ، وَلَكِنَّها رَفَضَتْ أنْ يَكونَ لَها دَخْلٌ بِالتَّرْتيباتِ الجارِيَةِ . وَقَطَعْتُ لَها وَعْداً بِألا أذْكُرَ ذَلِكَ المَوْعِدَ لِهارترايت إنْ كَتَبْتُ إلَيْهِ ، وَألا أذْكُرَ لَهُ اسْمَها أبَداً . وَعَدْتُها بِذَلِكَ وَأنا حَزينَةٌ مُغْتَمَّةٌ ؛ فَلَمْ يَكُنْ لَدَيَّ حيلَةٌ في الأمْرِ .

وَفي صَباحِ اليَوْمِ التّالي ، قَرَأتُ خِطابَ هارترايت مَرَّةً أخْرى ، وَتَساءَلْتُ إنْ كُنْتُ عَلى صَوابٍ في إخْفاءِ أمْرِ سَفَرِهِ لِلْخارِجِ عَنْ لورا ، وَمَعَ ذَلِكَ ، فَقَدْ قَرَّرْتُ أنَّ ذَلِكَ هُوَ الحَلُّ الأفْضَلُ ، فَالرِّحْلَةُ إلى أمْريكا الوُسْطى كانَتْ مَعْروفَةً بِخُطورَتِها ، وَلَنْ تَكونَ لِمَعْرِفَةِ ذَلِكَ أيَّةُ فائِدَةٍ ، بَلْ إنَّها سَتَزيدُ مِنْ قَلَقِها . كانَ أمْراً مُزْعِجاً لي ، أنْ أعْرِفَ أنَّ صَديقاً عَزيزاً مُسافِرٌ بَعيداً إلى مَواطِنِ الخَطَرِ ، فَما بالُكَ بِوَقْعِ هَذا الأمْرِ عَلَيْها ؟ وَكَرَّرَ الخِطابُ شَكَّهُ في أنَّهُ كانَ هُناكَ مَنْ يَتْبَعُهُ في لَنْدَن ، بَلْ كانَ هُناكَ رَجُلانِ راحا يُراقِبانِهِ في ليڤربول عِنْدَما اسْتَقَلَّ الباخِرَةَ ، كَما سَمِعَ اسْمَ آن كاثيريك خَلْفَهُ وَسْطَ الزِّحامِ . وَكَتَبَ يَقولُ : « إنَّ سِرَّ آن كاثيريك لَمْ يُمْكِنِ اكْتِشافُهُ بَعْدُ ، إنْ حَدَثَ وَعَثَرْتِ عَلَيْها ، في يَوْمٍ مِنَ الأيّامِ ،

فاغتنمي الفُرْصَةَ ، يا آنسةُ هالكوم ، أكْثَرَ مِمّا فعلْتِ .»

كانَتْ تِلْكَ هِيَ كَلِماتِهِ ، وَكانَ الخِطابُ كُلُّهُ يُمثِّلُ خُطورَةً بالِغَةً إنْ هُوَ وَقَعَ في يَدِ أحَدٍ غَيْري ؛ لِذا فَقَدْ أحْرَقْتُهُ .

وَبَدَأَ الإعْدادُ لِلزَّواجِ ، وَلَكِنَّ لورا لَمْ تَكُنْ لِتُبالِيَ بِمَلابِسِ زِفافِها . كَمْ كانَ سُلوكُها سَيَخْتَلِفُ لَوْ أنَّها كانَتْ سَتَتَزَوَّجُ هارترايت ! تَرَكَتْ كُلَّ التَّفاصيلِ لِلْخَيّاطَةِ وَلي . وَاقْتَرَحَ سير بيرسيڤال أنْ يَأخُذَ زَوْجَتَهُ إلى روما لِقَضاءِ فَصْلِ الشِّتاءِ ، ثُمَّ المُكوثِ في إيطاليا حَتّى بِدايَةِ الصَّيْفِ . وكُنْتُ أعْلَمُ أنَّني سَأفْتَرِقُ عَنْها مُدَّةً طَويلَةً ، وَلَكِنَّني كُنْتُ أعْتَقِدُ عَلى الرَّغْمِ مِنْ مَشاعِري أنَّ ذَلِكَ هُوَ الأفْضَلُ ، فَقَدْ تَرْفَعُ المَناظِرُ الجَديدَةُ مِنْ حالَتِها المَعْنَوِيَّةِ ، وَأنَّ الشِّتاءَ الإيطالِيَّ سَيُناسِبُها أكْثَرَ مِنْ مُناخِنا الإنْجليزِيِّ البارِدِ . وكُنْتُ أخْشى بِدايَةَ حَياتِها الجَديدَةِ أكْثَرَ مِمّا تَسْتَطيعُ الكَلِماتُ التَّعْبيرَ عَنْها ، وَلَكِنْ كانَ يَحْدوني مَزيدٌ مِنَ الأمَلِ في التَّكَيُّفِ مَعَها إنْ هِيَ سافَرَتْ إلى الخارِجِ أكْثَرَ مِنْ إقامَتِها في لَنْدَن .

وَهَكَذا حُسِمَ الأمْرُ . كانَ يَوْمًا حَزينًا عِنْدَما اضْطُرِرْتُ لأنْ أقولَ لَها إنَّنا سَنَفْتَرِقُ مُدَّةً طَويلَةً . وَاتَّفَقْنا عَلى أنْ أطْلُبَ مِنْ سير بيرسيڤال الإذْنَ لي بِالإقامَةِ مَعَهُما بَعْدَ عَوْدَتِهِما إلى إنْجِلْترا . وَفِعْلاً ، فَعَلْتُ ذَلِكَ بِشَيْءٍ مِنَ الحَرَجِ ، لِذا فَقَدْ فَرِحْتُ عِنْدَما شَدَّ عَلى يَدَيَّ

بِحَرارَةٍ قائِلاً إنَّني كُنْتُ الرَّفيقَةَ المُثْلى الَّتي كانَ يَرْغَبُ في صَداقَتِها ، بِكُلِّ إخْلاصٍ ، لِزَوْجَتِهِ . لَمْ أكُنْ أحِبُّهُ عَلى الإطْلاقِ ، وَلَكِنَّني كُنْتُ أقْنِعُ نَفْسي بِأنَّهُ يَحْظى بِالكَثيرِ مِنَ الصِّفاتِ الحَميدَةِ .

وَمَضى يَتَحَدَّثُ عَنْ أسْفارِهِما القادِمَةِ في إيطاليا . وَفي مَعْرِضِ الحَديثِ ، ذَكَرَ أنَّهُ هُوَ وَلورا قَدْ يُقابِلانِ هُناكَ صَديقَهُ العَزيزَ كونت فوسكو ، وَكانَتِ الكونتيسة فوسكو ، عَمَّةُ لورا ، لا تَزالُ غاضِبَةً ؛ لأنَّها لَمْ تَرِثِ العَشَرَةَ آلافِ جُنَيهٍ بَعْدَ وَفاةِ السَّيِّدِ فيليب فيرلي . وَظَنَنْتُ أنَّهُ إنْ تَقابَلَتْ الاثْنَتانِ في إيطاليا ، فَقَدْ يَنْتَهي خِلافُ الأسْرَةِ القَديمُ ، إذْ ما دامَ سير بيرسيڤال والكونت صَديقَيْنِ حَميمَيْنِ ، فَإنَّ زَوْجَتَيْهِما سَتَتَقابَلانِ مَعًا ، عَلى الأقَلِّ ، عَلى نَحْوٍ مُهَذَّبٍ . وكانَتِ الكونتيسة فوسكو ، قَبْلَ زَواجِها ، مِنْ أسْوَإِ النِّساءِ خُلُقًا ، وَلَكِنَّ زَوْجَها اسْتَطاعَ أنْ يُعيدَها إلى صَوابِها ، لِذا فَقَدْ كانَ خَليقًا بِامْتِنانِ الأسْرَةِ كُلِّها . وَلَمْ يَحْدُثْ أنْ قابَلْتُهُ في يَوْمٍ مِنَ الأيّامِ ، وَلَكِنَّني كُنْتُ أعْرِفُ أنَّهُ أنْقَذَ ، ذاتَ مَرَّةٍ ، حَياةَ سير بيرسيڤال في روما ، فَبَدَأتُ أشْعُرُ بِالرَّغْبَةِ في رُؤْيَتِهِ .

وَأقْبَلَتِ الأيّامُ السّابِقَةُ عَلى الزَّواجِ ، وَمَضَتْ في عَجَلَةٍ بَيْنَ حَزْمِ الأمْتِعَةِ وَهَرْجٍ لَمْ يَقُمْ فيهِ السَّيِّدُ فيرلي بِأيِّ دَوْرٍ عَلى وَجْهِ الإطْلاقِ . وَصارَ سير بيرسيڤال أكْثَرَ قَلَقًا . كُنْتُ أنا وَلورا نَخْتَلِسُ النَّظَراتِ

وَنحْنُ نُفكِّرُ في فِراقِنا المُنْتظَرِ ، وَسأظَلُّ أذْكُرُ الحادِيَ والعِشْرينَ مِنْ ديسمبر على أنَّهُ أتْعَسُ يَوْمٍ في حَياتي، وَلكِنْ ماذا سأقولُ عَنِ الأيّامِ التّالِيَةِ ؟ وَقبَّلْتُها وَتعاهَدْنا على ألا نَفْقِدَ شَجاعَتَنا .

وَتزَوَّجا ! وسافرا ! وكِدْتُ أفْقِدُ بَصَري مِنْ شِدَّةِ بُكائي .

الفصلُ التّاسع

لَمْ أرَ لورا طيلَةَ ستَّةِ شُهورٍ ، وَلَكِنْ كانَ مِنَ المُقرَّرِ أنْ تَعودَ هِيَ وَزَوْجُها إلى إنْجلترا في الثّانِي عَشَرَ مِنْ يونيه ، وأنْ يَذْهَبا لِتوِّهِما إلى بلاكووتر بارك – بَيْتِ سير بيرسيفال الرّيفِيِّ في هامبشير . ولَمْ يَكُنْ يَرْغَبُ في أنْ يَقْضِيَ أيَّ وَقْتٍ في لَنْدن لِكَثْرَةِ النَّفَقاتِ هُناكَ ؛ إذْ كَلَّفَتْهُ أسْفارُهُ في إيْطاليا أكْثَرَ مِمّا كانَ يَتَوَقَّعُهُ .

وَفي اليَوْمِ السّابِقِ لِوُصولِهِما ذَهَبْتُ إلى بلاكووتر بارك ، فَوَجَدْتُهُ يَخْتَلِفُ كَثيراً عَنْ ليميريدج هاوس . كانَ يَقومُ عَلى أرضٍ مُسْتَوِيَةٍ ، وَكانَ مُحاطاً بأعْدادٍ كَبيرَةٍ مِنْ أشْجارٍ تَضْرِبُ نِطاقاً حَوْلَهُ فَيَبْدو وَكَأنَّهُ سِجْنٌ مُنْعَزِلٌ . وَكانَتْ أجْزاءٌ كَثيرَةٌ مِنَ البَيْتِ قَديمَةً مُتَهالِكَةً تُرِكَتْ نَهْباً لِلفِئْرانِ وَالغُبارِ . وَكانَتْ هُناكَ أجْزاءٌ أخْرى بُنِيَتْ في تاريخٍ لاحِقٍ ، وَهِيَ الّتي كانَتْ تُسْتَخْدَمُ وَقْتَذاكَ . كانَ لي حُجْرَةُ نَوْمٍ صَغيرَةٌ لَطيفَةٌ وَغُرْفَةُ جُلوسٍ في نِهايَةِ المَمَرِّ في الطّابَقِ

الأوَّلِ ، وكانَ الخَدَمُ يُقيمونَ في بَعْضِ غُرَفٍ خالِيَةٍ في الطّابَقِ
الثّاني . أمّا كُلُّ غُرَفِ المَعيشَةِ فَكانَتْ في الطّابَقِ الأَرْضِيِّ . وَقادَتْني
مُدَبِّرَةُ مَنْزِلٍ وَدودٌ إلى غُرْفَتي ، حَيْثُ جَلَسْتُ أُفَكِّرُ في الماضي :
فَكَّرْتُ في هارترايت ، وكانَ حينَذاكَ في مَكانٍ ما في هُنْدوراس ،
وَفَكَّرْتُ في آن كاثيريك وَالسَّيِّدَةِ كليمنتس ، اللَّتَيْنِ لَمْ أَسْمَعْ عَنْهُما
شَيْئًا ، وَفَكَّرْتُ أَيْضًا في السَّيِّدِ غيلمور ، صَديقِنا الطَّيِّبِ الَّذي كانَ
مَريضًا نَتيجَةَ الإِرْهاقِ في العَمَلِ ، وَيَقْضي فَتْرَةَ اسْتِجْمامٍ في
أَلْمانيا . أَمّا السَّيِّدُ فيرلي فَكانَ ، بِالطَّبْعِ مَسْرورًا لِتَخَلُّصِهِ مِنّا - نَحْنُ
ابْنَتَيْ أَخيهِ . كانَ مُنْهَمِكًا في ليميريدج في تَصْويرِ لَوْحاتِهِ تَصْويرًا
شَمْسِيًّا ، وكُنْتُ أَشْعُرُ بِالأَسَفِ نَحْوَ المُصَوِّرينَ .

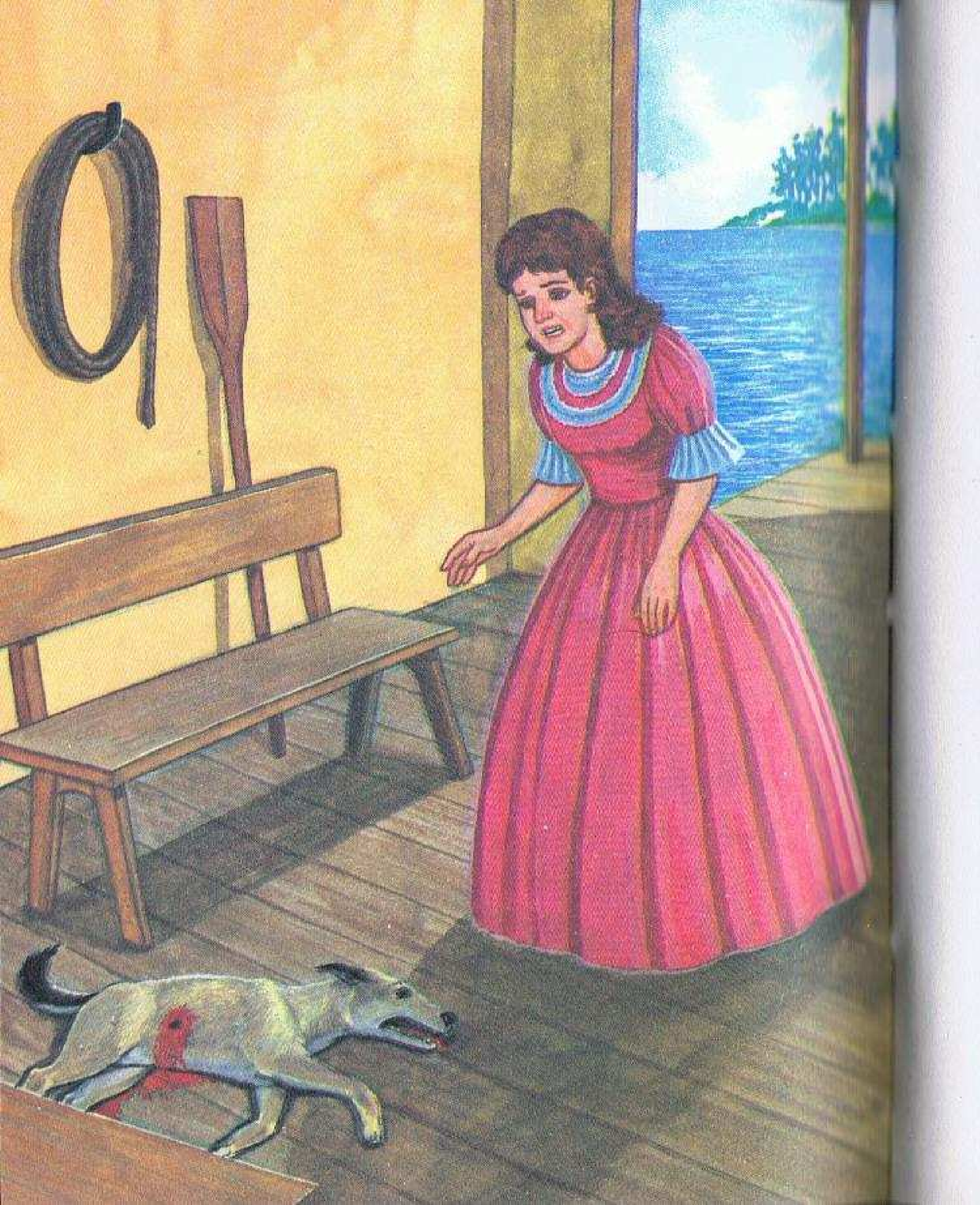
وَفَكَّرْتُ في لورا ؛ تُرى أَ كانَتْ أَسْعَدَ حالاً عَمّا كانَتْ في
أَيّامِها الأَخيرَةِ بِليميريدج ؟ أَ كانَ سير بيرسيڤال يُعامِلُها بِلُطْفٍ ؟
وَكُنْتُ قَدْ وَجَّهْتُ إِلَيْها هَذِهِ الأَسْئِلَةَ في خِطاباتي ، وَلَكِنَّها لَمْ
تُجِبْ عَلَيْها إِطْلاقًا . لَمْ تَكْتُبْ عَنْ زَوْجِها إِلّا وَكَأَنَّها تَكْتُبُ عَنْ
صَديقٍ يُرافِقُها في السَّفَرِ . لَمْ تَكْتُبْ لي كَما يُفْتَرَضُ أَنْ تَكْتُبَ
زَوْجَةٌ عَنْ زَوْجِها ، أَوْ بِمَعْنًى آخَرَ ، كانَتْ لورا فيرلي ، وَلَيْسَتْ
ليدي غلايد ، هِيَ الَّتي تَكْتُبُ لي .

وَكانَتْ قَدْ قابَلَتِ الكونتيسة فوسكو وَ وَجَدَتْها قَدْ تَحَوَّلَتْ كَثيرًا

نَحْوَ الأَفْضَلِ ؛ كانَتْ أَكْثَرَ هُدوءًا وَتَعَقُّلاً مِمّا كانَتْ . أَمّا عَنِ
الكونت نَفْسِهِ ، فَلَمْ تَقُلْ لي شَيْئًا عَنْهُ حَتّى أُكَوِّنَ عَنْهُ فِكْرَتي
بِنَفْسي عِنْدَما أُقابِلُهُ ؛ إِذْ سَيَعودُ هُوَ وَزَوْجَتُهُ مِنْ سَفَرِهِما مَعَ آلِ
غلايد لِيُقيما مَعَهُما في بلاكووتر بارك .

وَبَعْدَ أَنْ نِمْتُ لَيْلَتي ، خَرَجْتُ كَيْ أَسْتَطْلِعَ المِنْطَقَةَ المُحيطَةَ
بِالبَيْتِ . كانَ هُناكَ - كَما تَوَقَّعْتُ - كَثيرٌ مِنَ الأَشْجارِ ، تَمْتَدُّ
وَراءَها رُقْعَةٌ فَسيحَةٌ مِنْ أَرْضٍ خَلاءٍ تُشْرِفُ عَلى بُحَيْرَةِ بلاكووتر
الَّتي سُمِّيَ البَيْتُ بِاسْمِها . كان مِنَ الواضِحِ أَنَّهُ ، فيما مَضى ،
أَكْبَرَ مِمّا عَلَيْهِ الآنَ . وَلَمْ تَكُنِ الأَرْضُ بِالقُرْبِ مِنْهُ سِوى مُنْبَسَطٍ
مِنَ الرِّمالِ . وَ وَراءَ مِياهِ البُحَيْرَةِ السَّوْداءِ الضَّحْلَةِ كانَتْ تَنْتَصِبُ
أَشْجارٌ أُخْرى تَحْجُبُ ما دونَها مِنْ مَناظِرَ . وَرَأَيْتُ حُطامَ قارِبٍ قَديمٍ
وَعَدَدًا مِنَ الفِئْرانِ تَجْري داخِلَةً في المِياهِ وَخارِجَةً مِنْها. كانَ مَنْظَرَ
خَرابٍ وَدَمارٍ لَمْ تُسْهِمْ شَمْسُ الصَّيْفِ السّاطِعَةُ فَوْقَهُ بِشَيْءٍ
لِتَجْميلِهِ . وَعَلى مَقْرُبَةٍ مِنَ البُحَيْرَةِ رَأَيْتُ كوخًا كانَ يُسْتَخْدَمُ
حَظيرَةً لِلْقَوارِبِ ، وَلَكِنْ يَبْدو أَنَّهُ كانَ ثَمَّةَ مُحاوَلَةٌ لِتَحْويلِهِ إِلى
اسْتِراحَةٍ ؛ إِذْ كانَ بِداخِلِهِ بَعْضُ مَقاعِدَ وَمِنْضَدَةٍ .

وَدَخَلْتُ حَظيرَةَ القَوارِبِ وَجَلَسْتُ ، وَلَكِنَّني شَعَرْتُ بِانْزِعاجٍ
حينَ سَمِعْتُ صَوْتَ حَشْرَجَةٍ ، فَقَفَزْتُ مِنْ مَكاني ، ثُمَّ اسْتَجْمَعْتُ



شَجاعَتي ، وَنَظَرْتُ أَسْفَلَ المَقْعَدِ . وَهُناكَ وَجَدْتُ كَلْبًا صَغيرًا كانَ يُعاني سكَراتِ المَوْتِ . كانَ لِعَيْنَيْهِ ذَلِكَ المَظْهَرُ الجامِدُ المَأْلوفُ لِعَيْنَيْ حَيَوانٍ يَلْفِظُ أَنْفاسَهُ الأَخيرَةَ ، وَكانَتْ ثَمَّةَ بُقَعٌ مِنَ الدِّماءِ عَلى جَنْبِهِ . حَمَلْتُهُ في الحالِ إلى البَيْتِ وَنادَيْتُ إِحْدى الخادِماتِ ، وَلَكِنَّ الغَبِيَّةَ كانَتْ عَديمَةَ الفائِدَةِ . لَمْ تَقُلْ سِوى أَنَّ باكستر الحارِسَ كانَ يُطْلِقُ النّارَ ، دائِمًا ، عَلى الكِلابِ الضّالَّةِ كَما يَقْتَضيهِ واجِبُهُ . وطَلَبْتُ إِلَيْها ، في عَصَبِيَّةٍ ، أَنْ تَسْتَدْعِيَ مُدَبِّرَةَ البَيْتِ . وَعِنْدَما جاءَتْ قُمْنا بِعَمَلِ ما اسْتَطَعْنا لِهَذا الكَلْبِ المِسْكينِ وَلَكِنْ دونَ جَدْوى ، فَقَدْ ماتَ .

وَدَهِشْتُ عِنْدَما قالَتْ مُدَبِّرَةُ البَيْتِ إِنَّهُ كانَ كَلْبَ السَّيِّدَةِ كاثيريك ، وَكانَتْ تِلْكَ المَرْأَةُ قَدْ جاءَتْ إِلى بلاكووتر في اليَوْمِ السّابِقِ ، لِسَماعِها أَنَّ ابْنَتَها قَدْ شوهِدَتْ هُناكَ . وَتَذَكَّرْتُ خِطابَ هارترايت الَّذي جاءَ فيهِ « إِنْ حَدَثَ وَعَثَرْتِ عَلَيْها ، في يَوْمٍ مِنَ الأَيّامِ ، فَاغْتَنِمي الفُرْصَةَ ، يا آنِسَةُ هالكوم ، أَكْثَرَ مِمّا فَعَلْتِ » . تُرى أَ يُمْكِنُ أَنْ تَسْنَحَ لِيَ الفُرْصَةُ ؟ أَ يُمْكِنُ مُقابَلَتُها ؟ وَلَكِنَّ السَّيِّدَةَ كاثيريك كانَتْ تَعيشُ في ولمنجهام ، عَلى بُعْدِ أَرْبَعينَ كيلو مِتْرًا مِنْ بلاكووتر بارك .

وَبَيْنَما كُنْتُ أُفَكِّرُ في هَذِهِ الأَشْياءِ نَبَّهَتْني أَصْواتُ عَجَلاتِ

مَرْكَبَةٍ إلى أنَّ المُسافِرَيْنِ قَدْ عادا ، فَذَهَبْتُ لاسْتِقْبالِهِما . كَيْفَ أَصِفُ مُقابَلَتي لأُخْتي بَعْدَ تِلْكَ المُدَّةِ الطَّويلَةِ ؟

وَجَدْتُها وَقَدْ تَغَيَّرتْ . لَمْ تَكُنْ أَقَلَّ جَمالاً ، وَلَكِنَّها صارَتْ أَكْثَرَ صَلابَةً وَصَرامَةً مِمّا اعْتادَتْهُ . وَلَّى بَعْضُ هُدوئِها وَرِقَّتِها . وَلَكِنَّني عَلى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ ، شَعَرْتُ بِإعْزازٍ لَها أَكْثَرَ مِنْ أَيِّ وَقْتٍ مَضى مُنْذُ فِراقِنا الطَّويلِ .

كانَتْ لا تُحِبُّ مُناقَشَةَ حَياتِها الزَّوْجِيَّةِ تَماماً كَما كانَتْ تَكْرَهُ الكِتابَةَ عَنْها . قالَتْ : « مِنَ الأَفْضَلِ أَنْ تَتَجَنَّبي ، وَنَحْنُ مَعاً ، أَيَّ ذِكْرٍ لَها . سَنَكونُ أَسْعَدَ حالاً إِنْ تَقَبَّلْناها في صَمْتٍ وَلَم نُفَكِّرْ فيها . وَلَكِنْ هَلْ تَكْتُبينَ وَتَتَلَقَّيْنَ خِطاباتٍ كَثيرَةً مُؤَخَّرًا ، يا ماريان ؟ هَلْ كَتَبَ إِلَيْكِ ؟ أَ هُوَ بِخَيْرٍ وَسَعيدٌ ؟ »

ما كانَ يَنْبَغي لَها أَنْ تَسْأَلَ هَذِهِ الأَسْئِلَةَ ، وَلَكِنْ ما مِنْ أَحَدٍ مِنَ النّاسِ كامِلٌ تَمامَ الكَمالِ . رُبَّما كُنْتُ أَسْأَلُ نَفْسَ الأَسْئِلَةِ ، لَوْ أَنَّني كُنْتُ مَكانَها . كُلُّ ما فَعَلْتُهُ هُوَ أَنَّني قُلْتُ لَها إِنَّهُ لَمْ يَكْتُبْ إِلَيَّ مُؤَخَّرًا ، ثُمَّ حَوَّلْتُ مَجْرى الحَديثِ نَحْوَ أُمورٍ أُخْرى .

وَكانَ حَديثُنا يُحْزِنُني . كُنْتُ أَنا وَهِيَ ، الأُخْتَيْنِ اللَّتَيْنِ لَمْ يَكُنْ بَيْنَهُما سِرٌّ في يَوْمٍ مِنَ الأَيّامِ ، وَلَكِنْ ها قَدْ قامَ الآنَ حاجِزٌ بَيْنَنا –

حاجِزٌ أَقامَهُ مَوْضوعٌ مُحَرَّمٌ . وَتَأَكَّدْتُ مِنْ فُتورِ المَشاعِرِ بَيْنَها وَبَيْنَ زَوْجِها ، وَأَنَّها كانَتْ وَلا تَزالُ تُفَكِّرُ في هارترايت . وَلَكِنْ عَلى الرَّغْمِ مِنْ هَذِهِ الاحْتِياطاتِ ، كُنْتُ سَعيدَةً لاحْتِفاظِها بِرِقَّتِها وَصَراحَتِها وَعُذوبَتِها وَبَساطَتِها . كانَتْ لا تَزالُ مَصْدَرَ بَهْجَةٍ لِكُلِّ مَنْ يُقابِلُها .

أَمّا بِالنِّسْبَةِ لِسير بيرسيڤال فَقَدْ بَدا أَكْثَرَ نَحافَةً ، وَازْدادَ سُعالُهُ سوءاً . لَم يُظْهِرْ سُروراً بالِغًا لِرُؤْيَتي ، بَلْ تَقَبَّلَني ، مُجَرَّدَ تَقَبُّلٍ ، كَأَحَدِ أُناسِ بلاكووتر بارك . كانَ يُبْدي في بَيْتِهِ رَغْبَةً شَديدَةً في النِّظامِ وَالتَّنْسيقِ ، لَمْ أَلْحَظْها مِنْ قَبْلُ ، فَكانَ يُريدُ كُلَّ شَيْءٍ في مَوْضِعِهِ ، بَلْ وَكانَ يُعيدُ أَيَّ كِتابٍ إِلى الرَّفِّ إِنْ تَرَكْتُهُ عَلى المِنْضَدَةِ . وَكانَ يَسُبُّ الخَدَمَ وَيَلْعَنُهُمْ إِنْ لَمْ يَجِدْ سِكّيناً وَقْتَ العَشاءِ وَكَأَنَّهُم قَدْ أَهانوهُ شَخْصِيًّا . كانَ قَليلَ الكَلامِ ، قَلِقًا ، وَكانَ يَبْدو أَنَّهُ يُعاني مُضايِقاتٍ كَثيرَةً تُثيرُ غَضَبَهُ .

تَضايَقَ كَثيراً عِنْدَما أَخْبَرَتْهُ مُدَبِّرَةُ البَيْتِ أَنَّ رَجُلاً غَريباً زارَ البَيْتَ وَسَأَلَ مَتى يَعودُ صاحِبُهُ. لَمْ تَسْتَطِعْ أَنْ تَقولَ مَنْ هُوَ ، فَثارَتْ ثائِرَتُهُ ، وَإِنْ لَمْ نَعْرِفْ سَبَبَ غَضَبِهِ .

وَيَأْتي الكونت وَالكونتيسة عَلى قائِمَةِ شَخْصِيّاتي ، وَسَأَصِفُ الكونتيسة أَوَّلاً : لَمْ يَحْدُثْ في حَياتي ، أَنْ رَأَيْتُ مِثْلَ هَذا التَّغَيُّرِ في

امْرَأةٍ ما ! كانَتْ قَبْلَ زَواجِها مَصْدَرَ إزْعاجٍ دائِمٍ لِغَيْرِها ، وَلَكِنْ ها هِيَ ذي الآنَ تَجْلِسُ لِساعاتٍ دونَ أنْ تَتَفَوَّهَ بِكَلِمَةٍ واحِدَةٍ . صارَتْ تَلْبَسُ عَلى نَحْوٍ لائِقٍ يُناسِبُ امْرَأةً في الثّالِثَةِ وَالأرْبَعينَ ؛ مَلابِسَ سَوْداءَ أوْ رَمادِيَّةً هادِئَةً كَتِلْكَ الّتي كانَتْ تَسْخَرُ مِنْها فيما مَضى . كانَتْ مُنْهَمِكَةً دائِماً بِالحِياكَةِ أوْ لَفِّ سَجائِرِ الكونت ، فَإذا فَرَغَتْ مِنْ عَمَلِها راحَتْ تُحَدِّقُ إلى زَوْجِها وَ وَجْهُها يَنْطِقُ بِتَعْبيرِ طاعَةِ كَلْبٍ وَفِيٍّ . كانَتْ هادِئَةً وَرَزينَةً ، وَكانَ الوَقْتُ الوَحيدُ الّذي تُبْدي فيهِ أيَّ أمارَةٍ تَدُلُّ عَلى شُعورٍ عَميقٍ هُوَ حينَ كانَ الكونت يَتَحَدَّثُ إلى امْرَأةٍ أُخْرى بِاهْتِمامٍ غَيْرِ عادِيٍّ .

هَذا الرَّجُلُ العَجيبُ الّذي رَوَّضَ هَذِهِ المَرْأةَ الغَبِيَّةَ ، يَبْدو وَكَأنَّهُ يَسْتَطيعُ تَرْويضَ أيِّ شَيْءٍ . لَوْ أنَّهُ كانَ قَدْ تَزَوَّجَ نَمِرَةً مُتَوَحِّشَةً لاسْتَطاعَ تَرْويضَها . كانَ مُفْرِطَ البَدانَةِ ، وَكانَ يَبْدو في بَدانَتِهِ كَنابليون بونابرت . كانَ الشَّبَهُ عَجيباً حَقّاً ، وَلَكِنَّ عَيْنَيْهِ كانَتا لَهُما بَريقٌ صارِمٌ صافٍ ،كانَ يَدْفَعُني إلى أنْ أنْعِمَ النَّظَرَ فيهِما ، وَلَكِنَّني حينَ كُنْتُ أتَمَعَّنُهُما ، كُنْتُ أشْعُرُ بِضيقٍ شَديدٍ . وَمَعَ أنَّهُ كانَ يُناهِزُ السِّتّينَ ، إلّا أنَّ غُضونَ وَجْهِهِ كانَتْ أقَلَّ مِنَ الغُضونِ بِوَجْهي. وَعَلى الرَّغْمِ مِنْ بَدانَتِهِ وَسِنِّهِ ، كانَ يَتَحَرَّكُ في الغُرْفَةِ في سُكونٍ وَخِفَّةِ امْرَأةٍ نَشِطَةٍ .

كانَ مُهَذَّباً دائِماً في مُعامَلَتِهِ لِلنِّساءِ ، وَكانَ يَتَحَدَّثُ الإنجليزِيَّةَ بِطَلاقَةٍ . قَدْ يَنْطِقُ جُمْلَةً بِلَكْنَةٍ أجْنَبِيَّةٍ ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَتَناوَلْ قَطُّ تَعْبيراً إنْجليزِيّاً عَلى نَحْوٍ خاطِئٍ في اخْتِيارِ كَلِماتِهِ . وَكانَ لِهَذا الرَّجُلِ أيْضاً وَلَعٌ شَديدٌ بِالحَيَواناتِ المُسْتَأْنَسَةِ . كانَ قَدْ أحْضَرَ مَعَهُ مَجْموعَةً مِنَ الطُّيورِ وَالفِئْرانِ البَيْضاءِ . وَكانَ كَثيراً ما يُلاعِبُها ، فَيَجْعَلُ الطُّيورَ تَقِفُ عَلى يَدِهِ وَتُغَنّي لَهُ ، وَكانَتِ الفِئْرانُ مَحْبوسَةً في قَفَصٍ مِنَ السِّلْكِ ، وَلَكِنَّهُ كانَ يُخْرِجُها لِتَزْحَفَ فَوْقَ كُلِّ جُزْءٍ مِنْ جِسْمِهِ . لَمْ يَكُنْ يَرى أيَّ شَيْءٍ غَريبٍ في سُلوكِهِ هَذا ، وَما كانَ لِيَخْجَلَ مِنْهُ إطْلاقاً .

دَخَلَ الإصْطَبْلَ صَبيحَةَ يَوْمِ وُصولِهِ ، وَ وَضَعَ يَدَهُ عَلى رَأْسِ كَلْبٍ مُتَوَحِّشٍ كانَ مُقَيَّداً بِالسَّلاسِلِ ، فَبادَرَهُ رَجُلٌ يَقِفُ بِالقُرْبِ مِنْهُ قائِلاً: « اِحْتَرِسْ مِنْ هَذا الكَلْبِ ، يا سَيِّدي ، فَهُوَ يُهاجِمُ أيَّ شَخْصٍ ! »

رَدَّ الكونت في هُدوءٍ : « إنَّهُ يَفْعَلُ ذَلِكَ لأنَّ الكُلَّ يَخافونَ مِنْهُ. لِمَ لا نَرى إنْ كانَ سَيُهاجِمُني ؟»

وَ وَضَعَ أصابِعَهُ ، مَرَّةً أُخْرى ، عَلى رَأْسِ الكَلْبِ ، وَحَمْلَقَ إلى عَيْنَيْهِ ، ثُمَّ قالَ بِاحْتِقارٍ وَ وَجْهُهُ لا يَبْعُدُ عَنْ أنْفِ الكَلْبِ بِأكْثَرَ مِنْ بوصَةٍ واحِدَةٍ : « أنْتُمْ أيُّها الكِلابُ الضَّخْمَةُ كُلُّكُمْ جُبَناءُ . أنْتَ

تَقتُلُ قِطَّةً مِسكينَةً ، يا جبانُ ! تُهاجِمُ شَحّاذًا ، يا جَبانُ ! أنتَ تُباغِتُ أيَّ مَخلوقٍ ضَعيفٍ . تَسْتَطيعُ أنْ تُمزِّقَ رَقَبَتي الآنَ ، يا حَيوانُ ! وَلكِنَّكَ لا تَجرُؤُ على مُجَرَّدِ النَّظَرِ في وَجْهي ؛ لأنَّني لَسْتُ خائِفًا مِنْكَ . »

ثُمَّ انْصَرَفَ وَهُوَ يَضْحَكُ مِنْ ذُهولِ الرِّجالِ حَوْلَهُ . وَانسَلَّ الكَلْبُ إلى بَيْتِهِ . وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ أظْهَرَ الكونت بَعْضَ الغَضَبِ عِنْدَما لاحَظَ أنَّ الكَلْبَ قَدْ تَسَبَّبَ في اتِّساخِ مَلابِسِهِ ، إذْ كانَ مولَعًا بِمَلابِسِهِ الفاخِرَةِ .

كانَ يُحاوِلُ إرْضاءَ الجَميعِ ؛ فَكانَ يُقَدِّمُ الأزْهارَ لِلورا ، وَيُقَدِّمُ البَعْضَ مِنْها لِزَوْجَتِهِ في الوَقْتِ نَفْسِهِ . وَكانَ يَنْحَني مُحَيِّيًا زَوْجَتَهُ وَيُناديها بِمَلاكِهِ . وَكانَ يَتَحَدَّثُ إلَيَّ بِاتِّزانٍ وَكَأنَّهُ يَتَحَدَّثُ إلى رَجُلٍ ، إذْ كانَ يَعْرِفُ أنَّني كُنْتُ أُحِبُّ أنْ أُعامَلَ بِجِدِّيَةٍ . لَقَدِ اسْتَطاعَ أنْ يَسوسَني وَيَسوسَ زَوْجَتَهُ ولورا ، مِثْلَما كانَ يَسوسُ الكَلْبَ المُتَوَحِّشَ ، وَكَما كانَ يَسوسُ سير بيرسيڤال . فإذا حَدَثَ وَتَصَرَّفَ سير بيرسيڤال نَحْوَهُ بِوَقاحَةٍ ، لَمْ يَكُنْ يَفعَلُ سِوى أنْ يَبْتَسِمَ في هُدوءٍ كَما يَبْتَسِمُ أبٌ لابْنٍ مُشاغِبٍ .

لَقَدْ قُلْتُ الكَثيرَ عَنِ الكونت ، وَعَلَيَّ أنْ أتَحَوَّلَ الآنَ إلى سَرْدِ الأحْداثِ : فَقَدْ زارَنا السَّيِّدُ ميريمان لِرُؤْيَةِ سير بيرسيڤال ، وَيَبْدو أنَّهُ

أفْقَدَهُ أعْصابَهُ . وَاعْتَقَدْنا جَميعًا أنَّ شَيْئًا هامًّا قَدْ حَدَثَ ؛ إذْ لا يُعْقَلُ أنْ يُسافِرَ مُحامٍ مِنْ لندن إلى هامبشير دونَ سَبَبٍ وَجيهٍ .

وَبَيْنَما كانَ يَسْتَعِدُّ لِلرَّحيلِ ، تَصادَفَ أنْ سَمِعْتُ بَعْضَ كَلِماتٍ تَفَوَّهَ بِها ؛ إذ قالَ : « لا تَقْلَقْ ، يا سير بيرسيڤال ! الأمْرُ كُلُّهُ يَتَوَقَّفُ عَلى ليدي غلايد . عَلَيْها أنْ تُوَقِّعَ بِاسْمِها في حُضورِ شاهِدَيْنِ . إنْ تَمَّ هَذا في غُضونِ أُسْبوعَيْنِ فَسَتَنْتَهي المُشْكِلَةُ ، وَإلّا ... »

سَأَلَ سير بيرسيڤال : « ماذا تَعْني بِقَوْلِكَ : «« وَإلّا »» ؟ إنْ كانَ لا بُدَّ مِنْ عَمَلِ هَذا الشَّيْءِ ، فَلا بُدَّ أنْ يَتِمَّ . أعِدُّكَ بِذَلِكَ ، يا ميريمان . لا يُمْكِنُ الحُصولُ عَلى المالِ اللّازِمِ إلّا بِهَذِهِ الطَّريقَةِ . »

أجابَهُ مُحَدِّثُهُ : « رُبَّما تَسْتَطيعُ أنْ تَحْصُلَ عَلى قَرْضٍ لِمُدَّةِ ثَلاثَةِ أشْهُرٍ ، ثُمَّ تُسَدِّدَ المَبْلَغَ فيما بَعْدُ . »

كُنْتُ قَدْ سَمِعْتُ ما فيهِ الكِفايَةُ ، وَلَكِنْ ما سَمِعْتُهُ أقْلَقَني ؛ لا بُدَّ أنَّ شَيْئًا قَدْ حَدَثَ . كانَ يَبْدو أنَّهُ أمْرٌ يَتَعَلَّقُ بِالمالِ ، وَأنَّهُ يَتَوَقَّفُ عَلى لورا . وَذَهَبْتُ لأُنَبِّئَها بِما سَمِعْتُهُ .

قالَتْ : « كُنْتُ أخْشى ذَلِكَ حينَ عَرَفْتُ أنَّ رَجُلًا غَريبًا زارَنا وَتَرَكَ اسْمَهُ . أظُنُّ أنَّ سير بيرسيڤال مَدينٌ لَهُ بِمَبْلَغٍ ما . »

قُلْتُ : « لا تُوَقِّعي على شَيْءٍ ، يا لورا ، دونَ الاطِّلاعِ عَلَيْهِ .»

قالَتْ : « بِالتَّأكيدِ ، يا ماريان ، لَنْ أُوَقِّعَ على شَيْءٍ أجْهَلُهُ .»

وَفي ذَلِكَ المَساءِ راحَ سير بيرسيڤال يُعامِلُنا جَميعاً بِرِقَّةٍ وَأَدَبٍ كَعَهْدِهِ قَبْلَ الزَّواجِ . كانَ لَطيفاً بِدَرَجَةٍ مُذْهِلَةٍ نَحْوَ زَوْجَتِهِ ، حَتّى إنَّ كونت فوسكو نَفْسَهُ كانَ دَهِشاً . ماذا كانَ يَعْني ذَلِكَ ؟ كُنْتُ أَعْتَقِدُ أَنَّني أَعْرِفُ السَّبَبَ وَكُنْتُ واثِقَةً أَنَّ الكونت كانَ يَعْرِفُهُ كَذَلِكَ ، فَقَدْ رَأَيْتُ سير بيرسيڤال يَنْظُرُ إِلَيْهِ لِنَيْلِ اسْتِحْسانِهِ ، أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ ، في تِلْكَ اللَّيْلَةِ .

الفَصْلُ العاشِرُ

وَفي اليَوْمِ التّالي لَمَحَ الكونت في حَظيرَةِ القَوارِبِ نُقْطَةً مِنَ الدِّماءِ عَلى الأَرْضِ ، وَلِكَيْ أُفَسِّرَ سِرَّ وُجودِها أَخْبَرْتُ الجَميعَ عَنِ الكَلْبِ الصَّغيرِ الَّذي وَجَدْتُهُ هُناكَ .

سَأَلَ سير بيرسيڤال : « كَلْبُ مَنْ ؟ أَلَيْسَ كَلْباً مِنْ كِلابي ؟»

وَكانَتْ مُدَبِّرَةُ البَيْتِ قَدْ أَخْبَرَتْني أَنَّ السَّيِّدَةَ كاثيريك كانَتْ تُريدُ أَنْ تَحْتَفِظَ بِزِيارَتِها لِلْبَيْتِ في طَيِّ الكِتْمانِ ، وَلَكِنَّني وَجَدْتُ نَفْسي مُضْطَرَّةً إلى الإجابَةِ عَنْ سُؤالِهِ .

قُلْتُ : « لَقَدْ أَنْبَأَتْني مُدَبِّرَةُ البَيْتِ أَنَّهُ كَلْبُ السَّيِّدَةِ كاثيريك .»

وَتَقَدَّمَ نَحْوي ، ثُمَّ وَقَفَ وَ وَجْهُهُ يَكادُ يُلاصِقُ وَجْهي ، وَسَأَلَ بِحِدَّةٍ : « كَيْفَ عَرَفْتِ ذَلِكَ ؟»

« لَقَدْ أَحْضَرَتِ السَّيِّدَةُ كاثيريك الكَلْبَ مَعَها .»

« أينَ ؟»

« إلى هَذا البيْتِ .»

« ماذا كانتْ تريدُ هَذِهِ المَلْعونَةُ مِنْ هُنا ؟»

وَكانَ هَذا السُّؤالُ مِنَ الوَقاحَةِ بِحَيْثُ إنّني ابْتَعَدْتُ عَنْهُ في صَمْتٍ . وَ وَضَعَ الكونت يَدَهُ على كَتِفِهِ قائلاً : « يا عزيزي بيرسيڤال ، بِهَوادَةٍ ! بِهَوادَةٍ !»

وَتَبِعَني سير بيرسيڤال بِضْعَ خُطُواتٍ مُتَرَدِّداً ، ثُمَّ – لِفَرْطِ دَهْشَتي – اعْتَذَرَ لي قائِلاً :

« مَعْذِرَةً ، يا آنِسَةُ هالكوم ، أنا لَسْتُ على ما يُرامُ ! ويُؤْسِفُني أنّني أفْقِدُ أعْصابي سَريعاً . وَلَكِنَّني أحِبُّ أنْ أعْرِفَ ماذا كانَتْ تُريدُهُ هُنا . أ كانَتْ مُدَبِّرَةُ البيْتِ هِيَ الوَحيدَةَ الّتي رَأتْها ؟ »

أجَبْتُ : « الوَحيدَةُ ، حَسْبَما أعْلَمُ .»

قالَ الكونت : « إذاً ، لِمَ لا تَسْأَلُ مُدَبِّرَةَ البيْتِ ؟»

أجابَ سير بيرسيڤال : « هَذا صَحيحٌ . بِالطَّبْعِ مُدَبِّرَةُ البيْتِ هِيَ أوَّلُ مَنْ يُسْأَلُ . غَباءٌ كَبيرٌ مِنّي ألا أفْطَنَ لِهَذا !» وَتَرَكَنا فَوراً لِيَعودَ إلى البيْتِ .

وَسُرْعانَ ما أدْرَكْتُ لِمَ عَرَضَ الكونت اقْتِراحَهُ هَذا ؛ فَعِنْدَما انْصَرَفَ سير بيرسيڤال سَألَني كَثيراً مِنَ الأسْئِلَةِ عَنِ السَّيِّدَةِ كاثيريك ، وَبَعْدَ عَشْرِ دَقائِقَ كانَ يَعْرِفُ عَنْها مِثْلَما كُنْتُ أعْرِفُهُ تَماماً . كانَ يَبْدو أنّهُ لَمْ يَكُنْ قَدْ سَمِعَ عَنْها مِنْ قَبْلُ ، وَكانَ شَيْئاً غَريباً عِنْدَما تَذَكَّرْتُ أنّهُ كانَ صَديقاً حَميماً لِسير بيرسيڤال . لَمْ يَكُنْ ما دَفَعَهُ إلى تَوْجيهِ كُلِّ هَذِهِ الأسْئِلَةِ فُضولاً عَقيماً ، بَلْ كانَ يَتوقُ إلى مَعْرِفَةِ كُلِّ شَيْءٍ عَنْها .

كُنّا نَمْشي الهُوَيْنى نَحْوَ البَيْتِ أثْناءَ حَديثِنا . وَعِنْدَما بَلَغْناهُ وَجَدْنا مَرْكَبَةً أمامَ البابِ ، وَرَأيْنا سير بيرسيڤال يَهْبِطُ مِنْها عَلى عَجَلٍ ، وَبادَرَنا قائِلاً : « آسِفٌ أنْ أقولَ لَكُمْ إنَّني مُضْطَرٌّ لِفِراقِكُمْ ... مَسافَةً طَويلَةً ... مَوْضوعٌ يَتَحَتَّمُ عَلَيَّ أنْ أنْجِزَهُ فَوْراً . سَأعودُ في ساعَةٍ مُبَكِّرَةٍ مِنَ الغَدِ . وَلَكِنْ قَبْلَ أنْ أذْهَبَ أوَدُّ أنْ أنْهِيَ عَمَلِيَّةً بَسيطَةً . لورا ، أ تَسْمَحينَ بِالمَجيءِ إلى المَكْتَبَةِ ؟ لَنْ يَسْتَغْرِقَ الأمْرُ دَقيقَةً واحِدَةً . وَأنْتِ ، يا كونتيسة ، أ تَسْمَحينَ لي بِأنْ أزْعِجَكِ أيْضاً ! أريدُكَ ، يا فوسكو ، أنْتَ وَالكونتيسة لِلشَّهادَةِ عَلى تَوْقيعٍ لا أكْثَرَ وَلا أقَلَّ هَيّا ادْخُلوا وانْتَهوا مِنْهُ .»

وَعِنْدَما دَخَلوا المَكْتَبَةَ ظَلَلْتُ واقِفَةً في القاعَةِ ، ثُمَّ صَعِدْتُ بِبُطْءٍ إلى حُجْرَتي . وَلَكِنْ ما إنْ وَضَعْتُ يَدي عَلى مِقْبَضِ البابِ حَتّى

سَمِعْتُ سير بيرسيڤال يُنادي مِنَ الطّابَقِ الأَرْضِيِّ .

قالَ : « هَلّا سَمَحْتِ بِالنُّزولِ ، ثانِيَةً يا آنِسَةُ هالكوم ؟ إِنَّها غَلْطَةُ فوسكو ، وَلَيْسَتْ غَلْطَتي . إِنَّهُ يَظُنُّ أَنَّ زَوْجَتَهُ لا يَصِحُّ أَنْ تَكونَ شاهِدَةً إِنْ كانَ هُوَ شاهِداً . »

وَدَخَلْتُ الحُجْرَةَ وَتَقَدَّمَ الكونت لاسْتِقْبالي .

قالَ : « القانونُ يَسْمَحُ لِزَوْجٍ وَزَوْجَتِهِ أَنْ يَكونا شاهِدَيْنِ مَعاً ، وَلكِنْ في المُسْتَقْبَلِ مَنْ يَدْري ما قَدْ يَحْدُثُ ؟ يَنْبَغي أَنْ يُمَثِّلَ الشّاهِدانِ رَأْيَيْنِ ، وَأَنا وَزَوْجَتي لَيْسَ لَنا سِوى رَأْيٍ واحِدٍ ، وَهَذا الرَّأْيُ الواحِدُ هُوَ رَأْيي أَنا ؛ لِذا فَمِنَ المُسْتَحَبِّ أَنْ يَكونَ هُناكَ شاهِدانِ مُسْتَقِلّانِ . »

كانَ ثَمَّةَ شَيْءٌ في طَريقَةِ الكونت يَدْفَعُني إِلى الامْتِناعِ عَنْ أَنْ يَكونَ لي أَيَّةُ صِلَةٍ بِذَلِكَ التَّوْقيعِ ، وَلكِنْ لَمْ يُبْقِني في الحُجْرَةِ سِوى رَغْبَتي في مُساعَدَةِ لورا بِكُلِّ طَريقَةٍ مُمْكِنَةٍ .

وَفَتَحَ سير بيرسيڤال خِزانَةً ، وَأَخْرَجَ مِنْها وَرَقَةً مُسْتَطيلَةً مَطْوِيَّةً عَلى نَحْوٍ يَتَعَذَّرُ مَعَهُ رُؤْيَةُ أَيَّةِ كَلِمَةٍ مِنَ الكِتابَةِ عَلَيْها . وَكانَ الجُزْءُ الأَسْفَلُ – وَهُوَ المَكانُ الخالي المُخَصَّصُ لِلتَّوْقيعِ – مَكْشوفاً . وَغَمَسَ قَلَما في المِدادِ وَناوَلَهُ لِزَوْجَتِهِ .

قالَ مُشيراً إِلى ذَلِكَ المَكانِ : « وَقِّعي بِاسْمِكِ هُنا . »

سَأَلْتُ بِهُدوءٍ : « عَلامَ أُوَقِّعُ ؟ »

أَجابَ : « لا وَقْتَ لَدَيَّ لِلشَّرْحِ ؛ المَرْكَبَةُ مُنْتَظِرَةٌ بِالبابِ . لا بُدَّ أَنْ أَذْهَبَ تَوًّا . وَحَتّى إِذ كانَ لَدَيَّ وَقْتٌ فَلَنْ تَفْهَمي . هَيّا ! هَيّا ! وَقِّعي . »

« يَقيناً لا بُدَّ لي أَنْ أَعْرِفَ ماذا أُوَقِّعُهُ ، يا سير بيرسيڤال . »

« هُراءٌ . ما شَأْنُ النِّساءِ بِهَذِهِ الأَعْمالِ ؟ أُكَرِّرُ لَكِ ، لَنْ تَسْتَطيعي فَهْمَهُ . »

« إِذاً ، دَعْني أُحاوِلْ فَهْمَهُ . »

« كَمْ تُريدينَ تَأْخيري أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ؟ أَقولُ لَكِ المَرْكَبَةُ بِالبابِ . هَلْ سَتُوَقِّعينَ أَمْ لا ؟ »

وَرَفَعَ الوَرَقَةَ ، وَدَقَّ المِنْضَدَةَ بِجُمْعِ يَدِهِ قائِلاً : « ما عَلَيْكِ يا آنِسَةُ هالكوم ؛ ما عَلَيْكِ ، يا فوسكو ؛ تَكَلَّمي . قُولي إِنَّكِ لا تَثِقينَ بي . »

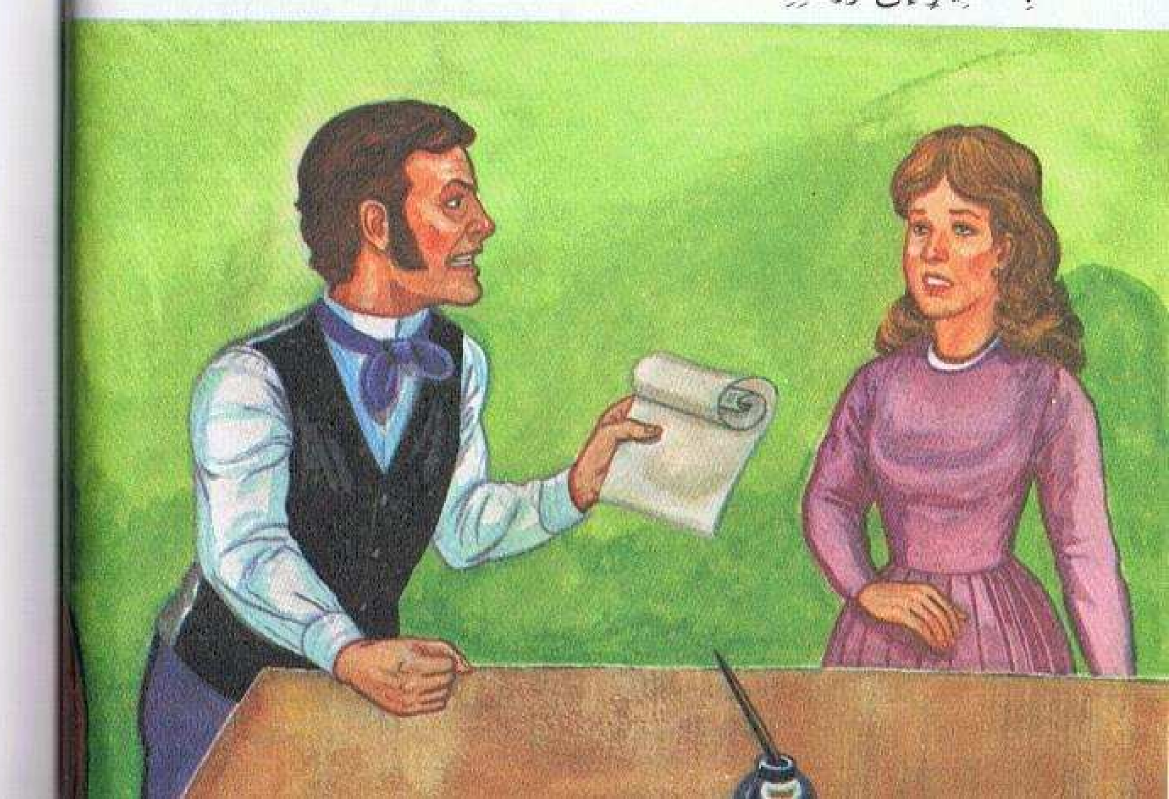
حينَئِذٍ وَضَعَ الكونت إِحْدى يَدَيْهِ عَلى كَتِفِ سير بيرسيڤال ، وَقالَ : « عَلى رِسْلِكَ ، يا سير بيرسيڤال ! ليدي غلايد عَلى حَقٍّ . »

صاحَ سير بيرسيڤال : « عَلى حَقٍّ ! زَوْجَةٌ عَلى حَقٍّ في الشَّكِّ في زَوْجِها ؟ »

لَمْ أكُنْ قَدْ تَكَلَّمْتُ بَعْدُ . وَلٰكِنَّ لورا التَفَتَتْ نَحْوي بِوَجْهِها الحَزينِ .

قُلْتُ : « أعْتَقِدُ أنَّ اعْتِراضَ لورا اعْتِراضٌ في مَحَلِّهِ ، وَلَنْ أقْبَلَ أنْ أكونَ شاهِدَةً ما لَمْ تَفْهَمْ أوَّلاً ، ماذا تُوَقِّعُهُ . »

صاحَ : « تَصْريحٌ عَظيمٌ حقًّا ! في المَرَّةِ القادِمَةِ ، إذا دَعَوْتِ نَفْسَكِ إلى بَيْتِ أحَدِهِمْ ، يا آنِسَةُ هالكوم ، فَلا تُجازي كَرَمَهُ بِالانْحِيازِ إلى زَوْجَتِهِ ضِدَّهُ . »



وَنَهَضْتُ واقِفَةً وَكَأنَّهُ قَدْ لَطَمَني . لَوْ أنَّني كُنْتُ رَجُلاً لَطَرَحْتُهُ أرْضاً وَتَرَكْتُ البَيْتَ إلى غَيْرِ رَجْعَةٍ ، وَلٰكِنَّني مُجَرَّدُ امْرَأةٍ . وَكُنْتُ أُحِبُّ زَوْجَتَهُ حُبًّا جَمًّا ، وَأعانَني حُبّي لَها فَجَلَسْتُ دونَ أنْ ألْفِظَ كَلِمَةً واحِدَةً ، وَلٰكِنَّها كانَتْ مُدْرِكَةً ما كُنْتُ أُعانيهِ ؛ فَجَرَتْ نَحْوي وَقَدْ طَفَرَتِ الدُّموعُ مِنْ عَيْنَيْها .

قالَتْ : « آهِ ، يا ماريان ! لَوْ كانَتْ أُمّي عَلى قَيْدِ الحَياةِ لَما فَعَلَتْ أكْثَرَ مِمّا تَفْعَلينَهُ مِنْ أجْلي . »

صاحَ سير بيرسيڤال مِنَ الجانِبِ المُقابِلِ لِلْمِنْضَدَةِ : « هَيّا ، وَقِّعي . »

هَمَسَتْ في أُذُني : « أُوَقِّعُ ؟ سَأفْعَلُ إنْ طَلَبْتِ مِنّي ذٰلِكَ . »

أجَبْتُ : « لا ، لا تُوَقِّعي عَلى شَيْءٍ ما لَمْ تَقْرَئيهِ أوَّلاً . »

وَقاطَعَ الكونت الَّذي كانَ يَرْقُبُني أنا وَلورا بِاهْتِمامٍ صامِتٍ قائِلاً : « بيرسيڤال ، أعْلَمُ أنَّني في حَضْرَةِ سَيِّداتٍ مُحْتَرَماتٍ . كُنْ لَطيفاً ، مِنْ فَضْلِكَ ، وَتَذَكَّرْ ذٰلِكَ أيْضاً . »

وَالْتَفَتَ إلَيْهِ سير بيرسيڤال في صَمْتٍ وَهُوَ يَتَمَيَّزُ غَيْظاً ، وَلٰكِنَّ الكونت كَرَّرَ قَوْلَهُ في هُدوءٍ : « كُنْ لَطيفاً ، وَتَذَكَّرْ ذٰلِكَ جَيِّداً . »

وَنَظَرَ أحَدُهُما إلى الآخَرِ في صَمْتٍ ، وَحَوَّلَ سير بيرسيڤال نَظْرَهُ

عَنْ عَيْنَي الكونت ، ثُمَّ تَكَلَّمَ عَلى نَحْوٍ يَتَّسِمُ بِطاعَةِ حَيَوانٍ مُسْتَأْنَسٍ اسْتَبَدَّ بِهِ الغَضَبُ .

قالَ : « أنا لا أُريدُ أنْ أُغْضِبَ أحَداً . لَقَدْ قُلْتُ لَها إنَّها مُجَرَّدُ عَمَلِيَّةٍ بَسيطَةٍ . أسْأَلُكِ لِلْمَرَّةِ الثّانِيَةِ ، يا ليدي غلايد . هَلْ سَتُوَقِّعينَ أمْ لا ؟ »

وَتَناوَلَتْ لُورا القَلَمَ وَأجابَتْ قائِلَةً : « سَأُوَقِّعُ بِكُلِّ سُرورٍ إنْ تَكَرَّمْتَ بِإخْباري عَمّا سَأُوَقِّعُهُ . لَقَدْ أصْغَيْتَ إلى الكونت حينَ اعْتَرَضَ عَلى شَهادَةِ زَوْجَتِهِ ، فَلِمَ تُعامِلُ اعْتِراضَهُ بِاحْتِرامٍ أكْثَرَ مِنِ اعْتِراضي ؟ لا أُريدُ سِوى أنْ تَتَصَرَّفَ بِشَرَفٍ . »

« بِشَرَفٍ ؟ وَهَلْ تَصَرَّفْتَ بِشَرَفٍ عِنْدَما تَزَوَّجْتَني ؟ »

ما إنْ تَفَوَّهَ بِهَذِهِ الكَلِماتِ حَتّى أَلْقَتْ بِالقَلَمِ ، وَأدارَتْ ظَهْرَها إلَيْهِ في صَمْتٍ مُطْبِقٍ . لَمْ أرَ مِنْ قَبْلُ نَظْرَةَ احْتِقارٍ كَتِلْكَ الَّتي ارْتَسَمَتْ في عَيْنَيْها ، وَقَدْ لاحَظَها الكونت هُوَ أيْضاً .

سَمِعْتُهُ يَهْمِسُ في أُذُنِ سير بيرسيڤال ، وَلورا تَتَّجِهُ نَحْوَ البابِ : « يا لَكَ مِنْ أبْلَهَ ! »

قالَ زَوْجُها بِصَوْتٍ يَنُمُّ عَنْ إدْراكِهِ أنَّهُ قَدِ ارْتَكَبَ خَطَأً كَبيراً : « إذاً أنْتِ تَرْفُضينَ . »

أجابَتْ بِحَزْمٍ : « بَعْدَما قُلْتَهُ لِيَ الآنَ ، أرْفُضُ التَّوْقيعَ ما لَمْ أقْرَأْ كُلَّ سَطْرٍ في الوَرَقَةِ مِنْ أوَّلِ كَلِمَةٍ إلى آخِرِها . هَيّا بِنا ، يا ماريان . »

وَقاطَعَ الكونت الحَديثَ مَرَّةً أُخْرى قائِلاً : « ليدي غلايد ، هَلْ تَسْمَحينَ لي بِتَقْديمِ اقْتِراحٍ بَسيطٍ ؟ » وَالْتَفَتَ بِحِدَّةٍ إلى سير بيرسيڤال وَسَألَهُ : « هَلْ مِنَ الضَّروريِّ جِدًّا أنْ تُوَقِّعَ هَذِهِ الوَرَقَةَ اليَوْمَ ؟ أ لا يُمْكِنُ إرْجاؤُها إلى الغَدِ ؟ »

« بَلى ، ما دُمْتُمْ مُصَمِّمينَ . »

« إذاً فَلْنَدَعِ التَّوْقيعَ يَنْتَظِرُ حَتّى الغَدِ ، عِنْدَما تَعودُ . »

وَبَدا سير بيرسيڤال غاضِباً ، غايَةَ الغَضَبِ ، وَهُوَ يَقولُ : « طَريقَةُ كَلامِكَ لا تُعْجِبُني . »

« إنَّني أتَكَلَّمُ مِنْ أجْلِ مَصْلَحَتِكَ . أعْطِ نَفْسَكَ مُهْلَةً ، وَأعْطِ ليدي غلايد مُهْلَةً . أ نَسيتَ أنَّ مَرْكَبَتَكَ بِالبابِ ؟ كَمْ مِنْ مَرَّةٍ أسْدَيْتُ إلَيْكَ النُّصْحَ ؟ هَلْ أخْطَأْتُ في يَوْمٍ مِنَ الأيّامِ ؟ اذْهَبْ وَدَعِ التَّوْقيعَ يَنْتَظِرْ . »

وَتَرَدَّدَ سير بيرسيڤال وَنَظَرَ إلى ساعَتِهِ ، ثُمَّ نَهَضَ مِنْ مَقْعَدِهِ وَقالَ : « مِنَ السَّهْلِ عَلَيْكُمْ أنْ تَتَكَلَّموا عِنْدَما لا يَكونُ لَدَيَّ وَقْتٌ .

سأعْمَلُ بِمَشورَتِكَ ، يا فوسكو ، لا لأنَّني أعْتَقِدُ في صِحَّتِها ، بَلْ لأنَّني لا أسْتَطيعُ الانْتِظارَ هُنا أكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ .»

وَتَوَقَّفَ وَرَمَقَ زَوْجَتَهُ بِنَظْرَةٍ حاقِدَةٍ ، ثُمَّ قالَ : « إنْ لَمْ تُوقِّعي غَداً عِنْدَما أعودُ ...»

وَضاعَتْ بَقِيَّةُ كَلِماتِهِ حينَ انْثَنى عَلى الخِزانَةِ لِيُغْلِقَ دُرْجَها عَلى الوَرَقَةِ ، ثُمَّ تناوَلَ قُبَّعَتَهُ واتَّجَهَ نَحْوَ البابِ . قائِلاً لِزَوْجَتِهِ : « تَذَكَّري . غداً !» ثُمَّ خَرَجَ .

وَعِنْدَما سَمِعْنا صَوْتَ انْطِلاقِ العَجَلاتِ ، تَكَلَّمَ الكونت قائِلاً : « لَقَدْ رَأَيْتُمْ سير بيرسيڤال في أسْوَإِ حالاتِهِ . وَبِصِفَتي صَديقاً قَديماً لَهُ ، فَإنَّني آسِفٌ مِنْ أجْلِهِ وَأشْعُرُ بِالخِزْيِ مِنْهُ . وَبِصِفَتي صَديقاً قَديماً لَهُ أعِدُكُم بِأنَّ سُلوكَهُ سَيَتَحَسَّنُ غَداً .»

كانَ مِنَ الصَّعْبِ عَلى لورا أنْ تَسْمَعَ رَجُلاً يَعْتَذِرُ عَنْ سُلوكِ زَوْجِها في بَيْتِها ، وَلَكِنَّني شَكَرْتُ الكونت بِأدَبٍ إذْ شَعَرْتُ أنَّني ما كُنْتُ آمُلُ في البَقاءِ لَوْلا مُساعَدَتُهُ . وَكانَ يَتَعَيَّنُ عَلَيَّ البَقاءُ مِنْ أجْلِ لورا ؛ فَلَمْ يَكُنْ سُلوكُ سير بيرسيڤال نَحْوي كَما كانَ في ليميريدج . وَهأنَذا أدْرِكُ أنَّ صَراحَتَهُ ، وَتَواضُعَهُ ، وَرِقَّتَهُ هُناكَ كانَتْ أحابيلَ رَجُلٍ شِرّيرٍ مُخادِعٍ عَقَدَ النِّيَّةَ عَلى أنْ يَنالَ غَرَضَهُ وَيَتَزَوَّجَ

لورا . لَقَدْ تَلاشَتْ صِفاتُهُ الحَميدَةُ . لَن أقولَ شَيْئاً عَنْ أنَّ تَعاطُفي مَعَ لورا وَليدُ هَذا الاكْتِشافِ . كانَ مِنَ الواضِحِ أنَّ تِلْكَ الوَرَقَةَ كانَ لَها عَلاقَةٌ بِقَرْضٍ ما ، وَلَكِنَّنا لَمْ يَكُنْ لَدَيْنا مِنَ المَعْرِفَةِ أوِ الخِبْرَةِ ما يُعينُنا عَلى ما يَجِبُ عَمَلُهُ في اليَوْمِ التّالي .

لِذا فَقَدْ وَطَّدْتُ العَزْمَ عَلى أنْ أكْتُبَ إلى السَّيِّدِ كايل ، شَريكِ السَّيِّدِ غيلمور ، لِطَلَبِ مَشورَتِهِ . وَعِنْدَما فَعَلْتُ ذَلِكَ ، طَلَبْتُ إلَيْهِ أنْ يُرْسِلَ رَدَّهُ إلَيَّ عَنْ طَريقِ رَسولٍ خاصٍّ ؛ حَتّى أتَلَقّاهُ في الوَقْتِ المُناسِبِ . وَبَيْنَما كُنْتُ أودِعُ خِطابي في حَقيبَةِ البَريدِ بِالقاعَةِ ، قابَلْتُ الكونت وَزَوْجَتَهُ ، وَدَهِشْتُ لِطَلَبِ الكونتيسة حَديثاً خاصّاً مَعي لِبِضْعِ دَقائِقَ . واصْطَحَبَتْني إلى الحَديقَةِ ، وَبَدَلاً مِنْ أنْ تَنْقُلَ إلَيَّ خَبَراً هامّاً ، كَما كُنْتُ أتَوَقَّعُ ، مَضَتْ تَتَحَدَّثُ عَنْ مَوْضوعاتٍ عادِيَّةٍ عَنْ سير بيرسيڤال وَلورا ، وَعَنْ سَعادَتِها هِيَ ، وَعَنْ مَتاعِبِ الحَياةِ الزَّوْجِيَّةِ ، وَما إلى ذَلِكَ ، مُبْعِدَةً إيّايَ عَنِ البَيْتِ وَقْتاً طَويلاً . وَعِنْدَما عُدْتُ أخيراً إلى البَيْتِ قابَلْتُ الكونت وَهُوَ يَضَعُ خِطاباً في تِلْكَ الحَقيبَةِ . وَلِسَبَبٍ لَمْ أسْتَطِعْ تَفْسيرَهُ ، أخْرَجْتُ خِطابي ثانِيَةً ، وَنَظَرْتُ إلَيْهِ . كانَ المَكانُ الَّذي ألْصَقْتُ فيهِ الخِطابَ لا يَزالُ ، بَعْدَ ثَلاثَةِ أرْباعِ السّاعَةِ ، لَزِجاً وَمُبَلَّلاً ، فانْفَتَحَ بِسُهولَةٍ فَوْراً . لَنْ أقولَ شَيْئاً عَنْ شُكوكي ، وَلَكِنَّني قَرَّرْتُ أنْ أكونَ شَديدَةَ الحَذَرِ في

اليَوْمِ التّالي حينَ يَصِلُ رَسولُ السَّيِّدِ كايل .

وبَعْدَ العَشاءِ خَرَجْتُ أنا ولورا لِلنُّزْهَةِ على شاطِئِ البُحَيْرَةِ في الأراضي المُحيطَةِ بِالبَيْتِ ، فَأخَذَتْ تَتَحَدَّثُ بِمَزيدٍ مِنَ الصَّراحَةِ عَنْ حَياتِها الزَّوْجِيَّةِ . أوْضَحَتْ أنَّ سير بيرسيڤال لَمْ يَكُنْ يُحِبُّها ، وَأنَّ اكْتِشافَها هذا قَدْ دَفَعَ بِأفْكارِها مَرَّةً ثانِيَةً ، نَحْوَ هارترايت. وَأضافَتْ: « كَمْ مِنْ مَرَّةٍ سَمِعْتُكِ تَسْخَرينَ مِنْ فَقْرِكِ ، وَتُهَنِّئينَني على ثَرْوَتي . آهِ يا ماريان ! لا تَسْخَري ثانِيَةً . شُكْرًا لِلّهِ على فَقْرِكِ . لَقَدْ أنْقَذَكِ مِنْ حَياةٍ كَحَياتي !» وأصابَتْني كَلِماتُها التّالِيَةُ بِصَدْمَةٍ شَديدَةٍ حينَ أخْبَرَتْني أنَّ زَوْجَها قَدِ اكْتَشَفَ اسْمَ الرَّجُلِ الَّذي مَنَحَتْهُ حُبَّها.

قالَتْ : « لَقَدْ حَدَثَ هذا في روما . كُنّا في حَفْلَةٍ صَغيرَةٍ ، وَاتَّجَهَ الحَديثُ إلى الفَنِّ وَالرَّسْمِ ، وَذَكَرَ أحَدُهُمْ اسْمَ هارترايت وَنَصَحني بِهِ مُدَرِّسًا مُمْتازًا . أ يُمْكِنُكِ فَهْمُ مَشاعِري ، يا ماريان ؟ لَقَدْ فَعَلْتُ كُلَّ ما يُمْكِنُني لِضَبْطِ مَشاعِري . لَمْ أقُلْ شَيْئًا ، وَنَظَرْتُ إلى الأرْضِ ، وَلكِنْ عِنْدَما رَفَعْتُ بَصَري ثانِيَةً ، الْتَقَتْ عَيْنا زَوْجي بِعَيْنَيَّ ، فَأدْرَكْتُ أنَّ وَجْهي قَدْ أفْصَحَ لَهُ عَنِ الحَقيقَةِ . كانَ في ذلِكَ المَساءِ في سَوْرَةِ الغَضَبِ ، فَقالَ : « كُنْتُ أريدُ ، مُنْذُ مُدَّةٍ طَويلَةٍ ، أنْ أكْتَشِفَ اسْمَ صاحِبِنا ، وَقَدْ وَجَدْتُهُ في وَجْهِكِ اللَّيْلَةَ . إنَّ مُدَرِّسَ الرَّسْمِ هذا كانَ مُدَرِّسَكِ ، وَاسْمُهُ هارترايت . والآنَ

اذْهَبي لِمَخْدَعِكِ ، وَاحْلُمي بِهِ إنْ شِئْتِ وَآثارُ سَوْطي على كَتِفَيْهِ . » »

وَضَمَمْتُها إلى صَدْري . لَقَدْ كانَتْ يَدايَ هِيَ الَّتي فَرَّقَتْ بَيْنَهُما ، يَدايَ اللَّتانِ أرْسَلَتْهُ إلى بَلَدٍ ناءٍ . دَمَّرَتْ حَياتَهُ وَحَياتَها . وَكُنْتُ قَدْ فَعَلْتُ كُلَّ ذَلِكَ مِنْ أجْلِ سير بيرسيڤال غلايد . تَصَوَّروا ! مِنْ أجْلِ سير بيرسيڤال غلايد !

الفصلُ الحادي عشر

في اليوْمِ التّالي اكْتشفَتْ لورا أنّها فقدَتْ دبّوسًا ذهبيًّا كانَتْ تُزيِّنُ بِهِ رِداءَها ، ولكنّها لَمْ تعْثُرْ علَيْهِ على الرَّغْمِ مِنْ بَحْثِها الدَّقيقِ عنْهُ. لا بُدَّ أنَّهُ وقَعَ في الحَديقَةِ . وقَرَّرْنا إنْ هِيَ خَرَجَتْ لِلْبَحْثِ عنْهُ بِنَفْسِها ؛ فَسَيَكونُ لَها عُذْرٌ وَجيهٌ لِغيابِها عَنِ البَيْتِ حتّى يَصِلَ الرَّسولُ المُرْتَقَبُ ، وَحينئذٍ لَنْ يَتَمكَّنَ سير بيرسيڤال مِنْ طَلَبِ تَوْقيعِها حتّى أكونَ قَدْ تَلَقَّيْتُ الرَّدَّ مِنَ السَّيِّدِ كايل .

كُنْتُ أشُكُّ في الجَميعِ حتّى إنّني عَزَمْتُ على الذَّهابِ بِنَفْسي لأقابِلَ رَسولَ السَّيِّدِ كايل في الطَّريقِ . وَسُرِرْتُ وَأنا أغادِرُ البَيْتَ في هُدوءٍ حينَ رَأيْتُ الكونت مُنْهَمِكًا في مُلاعَبَةِ طُيورِهِ الصَّغيرَةِ . وَبَعْدَ أنِ انْتَظَرْتُ مُدَّةَ عِشْرينَ دَقيقَةً سَمِعْتُ صَوْتَ عَجَلاتٍ ؛ فَلَمّا صارَتِ المَرْكَبَةُ في مَجالِ البَصَرِ عِنْدَ النّاصِيَةِ ، أشَرْتُ إلى السّائِقِ أنْ يَتَوَقَّفَ ، وَرَأيْتُ رَجُلاً يوحي مَظْهَرُهُ بِالاحْتِرامِ يُخْرِجُ رَأسَهُ مِنَ

النّافِذَةِ لِيَسْتَطْلِعَ الأمْرَ .

قُلْتُ : « مَعْذِرَةً ، وَلكِنْ هَلْ يَصْدُقُ ظَنّي في أنّكَ تَحْمِلُ خِطابًا للآنِسَةِ هالكوم ؟ »

« نَعَمْ ، يا سَيِّدَتي . »

« أنا الآنِسَةُ هالكوم . هَلّا أعْطَيْتَني الخِطابَ ؟ »

وَهَبَطَ الرَّجُلُ مِنَ المَرْكَبَةِ وَناوَلَني إيّاهُ . وَقَرَأْتُهُ في التَّوِّ وَاللَّحْظَةِ .

« سَيِّدَتي العَزيزَة ،

« لَقَدْ سَبَّبَ خِطابُكِ الّذي تَلَقَّيْتُهُ اليَوْمَ ، قَلَقًا كَبيرًا . إنَّ مَعْرِفَتي بِمَوْقِفِ ليدي غلايد يَجْعَلُني أظُنُّ – وَآسَفُ إذْ أقولُ هذا – أنَّهُ قَدْ طُلِبَ مِنْها أنْ تُوافِقَ على إقْراضِ جُزْءٍ مِنَ العِشْرينَ ألْفَ جُنَيْهٍ مِنْ مالِها الخاصِّ لِسير بيرسيڤال . هذا المَبْلَغُ يَجِبُ أنْ يُحْتَفَظَ بِهِ لأبْنائِها ، فَإذا وَقَّعَتْ ، فَإنَّهُمْ لَنْ يَتَلَقَّوْا كُلَّ ما يَجِبُ أنْ يَتَلَقَّوْهُ . المَوْضوعُ كُلُّهُ مَوْضوعٌ مُخالِفٌ لِلأصولِ المَرْعِيَّةِ ، وَلكِنْ ، في وَضْعِها ، لَيْسَ هُناكَ شَيْءٌ آخَرُ يُمْكِنُ أنْ يُطْلَبَ مِنْها تَوْقيعُهُ .

« لِذا أقْتَرِحُ أنْ تُصَرِّحَ ليدي غلايد بِرَغْبَتِها في أنْ يوضَعَ الأمْرُ في يَدي . وَلا يُمْكِنُ أنْ يُثارَ اعْتِراضٌ مَعْقولٌ على هذا ؛ لأنَّهُ ، إنْ كانَتِ العَمَلِيَّةُ شَريفَةً مائَةً في المائَةِ ، فَإنَّني سَأوافِقُ عَلَيْها .

«وَإنَّني على اسْتِعْدادٍ لِتَقْديمِ أَيَّةِ مُساعَدَةٍ أَوْ نَصيحَةٍ أُخْرى قَدْ يَتَطَلَّبُها الأَمْرُ.

خادِمُكَ المُطيعُ

وليم كايل»

وَقَرَأْتُ هذا الخِطابَ الكَريمَ الفَطِنَ بِكُلِّ امْتِنانٍ. وَطَلَبْتُ مِنَ الرَّسولِ أَنْ يُبْلِغَهُ بِأَنَّني فَهِمْتُ ما جاءَ فيهِ، مَعَ إِبْلاغِهِ جَزيلَ شُكْري. وَبَيْنَما كُنْتُ أَتَكَلَّمُ وَالخِطابُ في يَدي، ظَهَرَ كونت فوسكو فَجْأَةً، وَكَأَنَّما انْشَقَّتِ الأَرْضُ عَنْهُ.

سَأَلَ في لُطْفٍ لَحْظَةَ ما كانَ الرَّسولُ يَتَمَنّى لي صَباحاً سَعيداً: «سَتَعودينَ إلى البَيْتِ؟» وَأَوْمَأْتُ بِرَأْسي عَلامَةَ الإيجابِ.

قالَ: «إِذاً، دَعينا نَذْهَبْ مَعاً. هَلّا تَأَبَّطْتِ ذِراعي؟»

وَراحَ يَتَحَدَّثُ بِأَدَبٍ وَكِياسَةٍ في الطَّريقِ، دونَ أَنْ يَذْكُرَ كَلِمَةً واحِدَةً عَمّا رَآهُ. وَكانَ مِنَ الواضِحِ أَنَّهُ اكْتَشَفَ ما كانَ يُريدُهُ. وَكانَ يُحاوِلُ، آنذاكَ، أَنْ يُبَدِّدَ شُكوكي، وَلَكِنَّني كُنْتُ مِنَ الحِكْمَةِ بِحَيْثُ لَمْ أُعْطِهِ أَيَّ إيضاحٍ، وَمِنَ الأُنوثَةِ بِحَيْثُ إِنَّني كَرِهْتُ نَفْسي لِتَأَبُّطي ذِراعَ رَجُلٍ مِثْلِهِ.

وَعِنْدَما وَصَلْنا إلى البَيْتِ، وَجَدْنا أَنَّ سير بيرسيڤال قَدْ وَصَلَ هُوَ الآخَرُ.

سَأَلَ: «أَيْنَ لورا؟»

قُلْتُ: «إِنَّها تَبْحَثُ عَنْ دَبّوسٍ ذَهَبِيٍّ فُقِدَ مِنْها في الحَديقَةِ.»

قالَ مُحْتَدًّا: «ذَكِّريها أَنْ تَأْتِيَ إلى المَكْتَبَةِ في غُضونِ نِصْفِ ساعَةٍ.»

سَأَلَهُ الكونت: «خَبِّرْني، يا بيرسيڤال، هَلِ اسْتَمْتَعْتَ بِسَفْرَةٍ جَميلَةٍ؟»

«أُريدُ غَدائي.»

قالَ الكونت: «وَأَنا أُريدُ التَّحَدُّثَ مَعَكَ خَمْسَ دَقائِقَ أَوَّلاً.»

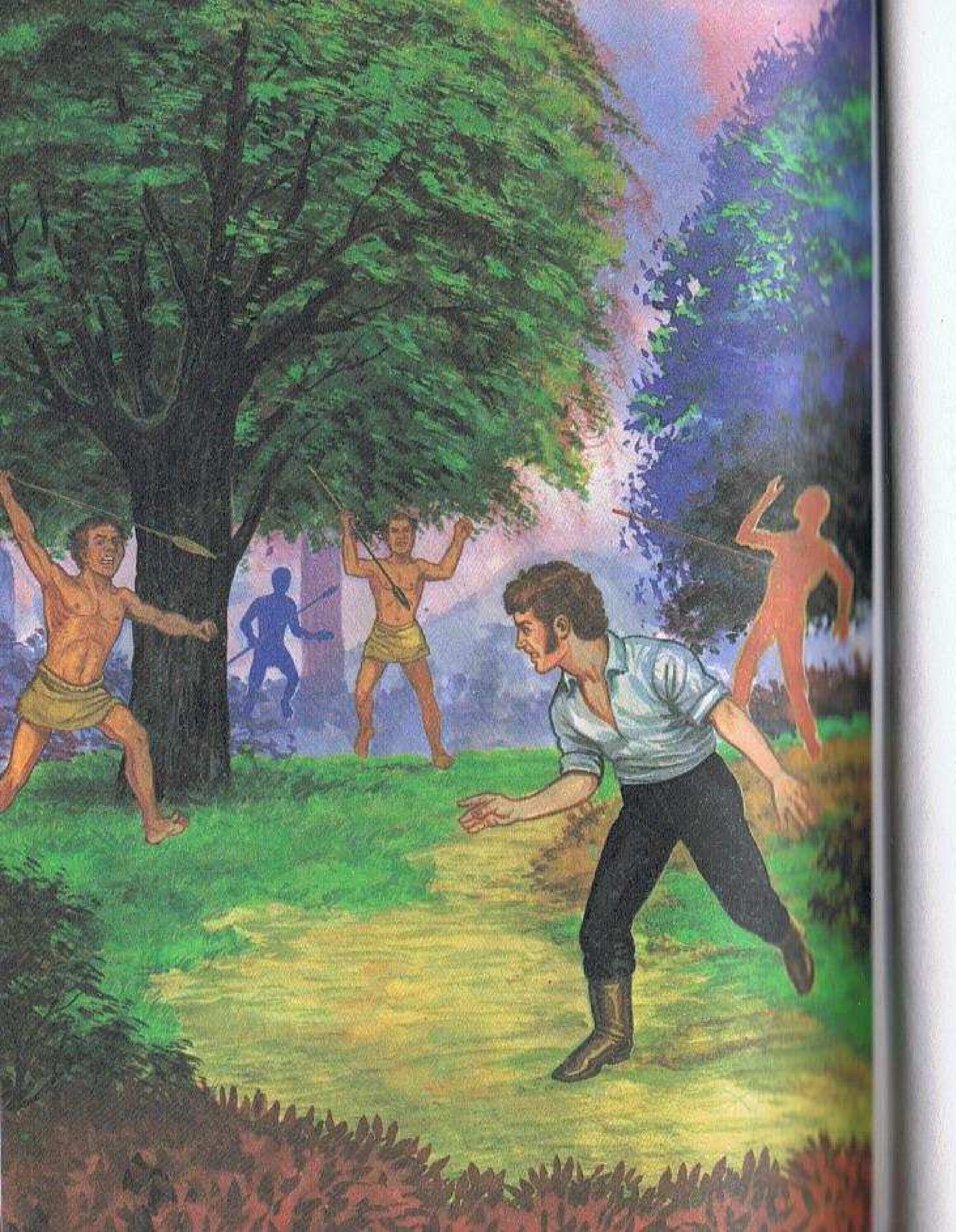
«عَمَّ؟»

«عَنْ شَيْءٍ هامٍّ جِدًّا.»

«أَنْتَ دائِماً مَصْدَرُ إِزْعاجٍ لِغَيْرِكَ! أُريدُ غَدائي.»

أَجابَ الكونت بِلَهْجَةِ مَنْ لَمْ يَتَضايَقْ مِنْ كَلِماتِ سير بيرسيڤال الوَقِحَةِ: «تَعالَ هُنا وَتَكَلَّمْ مَعي.»

وَابْتَعَدا، وَلَكِنَّني أَدْرَكْتُ أَنَّهُما كانا يَتَحَدَّثانِ عَنِ التَّوْقيعِ وَعَنْ



لُورا وَعَنّي . وَخارَتْ قُوايَ مِنَ القَلَقِ . لَمْ يَكُنْ هُناكَ ما يُنْبِئُ بِعَوْدَةِ لورا . واضْطَجَعْتُ في غُرْفَةِ الاسْتِقْبالِ في انْتِظارِها .

وَفَجْأَةً فُتحَ البابُ بِرِفْقٍ وَدَخَلَ الكونت . قالَ : « أَلْفُ مَعْذِرَةٍ ، يا آنسة هالكوم . جِئْتُكِ بِأخْبارٍ سارَّةٍ . لَقَدْ قَرَّرَ سير بيرسيڤال ، في اللَّحْظَةِ الأخيرَةِ ، ألا يَطْلُبَ التَّوْقيعَ في الوَقْتِ الحالِيِّ ، وَفي ذلِكَ راحَةٌ لَنا جَميعًا ، يا آنِسَةُ هالكوم ، وَهَذا ما أَراهُ عَلى وَجْهِكِ . هَلّا تَكَرَّمْتِ بِتَبْليغِ تَحِيّاتي لِلَّيدي غلايد عِنْدَما تُخْبِرينَها بِذلِكَ ؟ »

وَتَرَكَني قَبْلَ أَنْ أُفيقَ مِنْ دَهْشَتي . لا شَكَّ أَنَّهُ قَدِ اكْتَشَفَ ما فَعَلْتُهُ ، وَأَنَّهُ قَدْ حَثَّ سير بيرسيڤال عَلى أَنْ يُغَيِّرَ رَأْيَهُ. كُنْتُ مَسْرورَةً ، وَلكِنَّني قَلِقَةٌ مُضْطَرِبَةٌ. وَعاوَدْتُ مُحاوَلَةَ العُثورِ عَلى لورا ، وَلكِنَّ رُكْبَتَيَّ كانَتا تَهْتَزّانِ مِنْ تَحْتي ، فَاضْطَجَعْتُ ثانِيَةً في هُدوءِ البَيْتِ. وَإِذا بي أَدْخُلُ بِبُطْءٍ في حالَةٍ غَريبَةٍ بَيْنَ النَّوْمِ وَاليَقَظَةِ .

وَفي هَذِهِ الحالَةِ الغَريبَةِ رَأَيْتُ حُلْمًا عَجيبًا – رَأَيْتُ هارتْرايت مُمَدَّدًا في مَعْبَدٍ مُهَدَّمٍ وَسْطَ غابَةٍ ، وَكانَ يُحيطُ بِهِ رِجالٌ يَموتونَ مِنَ الحُمّى . ثُمَّ رَأَيْتُهُ ثانِيَةً في غابَةٍ أُخْرى وَمَعَهُ نَفَرٌ قَليلٌ مِنَ الرِّفاقِ ، وَرَأَيْتُ أُناسًا مُتَوَحِّشينَ يَحْمِلونَ رِماحًا. ثُمَّ رَأَيْتُهُ مَرَّةً ثالِثَةً في سَفينَةٍ غارِقَةٍ ، وَكانَتِ القَوارِبُ المُكْتَظَّةُ بِالرِّجالِ تَبْتَعِدُ عَنْها ، وَلكِنَّهُ بَقِيَ وَحيدًا دونَهُمْ . ثُمَّ رَأَيْتُهُ ، آخِرَ مَرَّةٍ ، كانَ يَجْثو أَمامَ قَبْرٍ ، وَنَهَضَ

خَيالُ امْرَأةٍ مِنَ القَبْرِ وَانْتَظَرَ بِجانِبِهِ . كُنْتُ أناديهِ أنْ يَعودَ . كُنْتُ أصيحُ : « عُدْ قَبْلَ أنْ تَموتَ ! » وَلكِنَّهُ كانَ يُجيبُ دائِماً : « انْتَظِري ، سَأعودُ . إنَّني أقْطَعُ الطَّريقَ المَجْهولَ لِحَياتي لأصِلَ إلى غايَتِها المَرْسومَةِ . لَنْ يَمَسَّني سوءٌ . سَأعودُ . ما عَلَيْكِ إلّا أنْ تَنْتَظِري ! »

وَاكْتَنَفَ الظَّلامُ المَشْهَدَ أمامي ، فَلَمْ أسْمَعْ شَيْئاً حَتّى لَمَسَتْ يَدُ لورا كَتِفي فَفَتَحْتُ عَيْنَيَّ . كانَتْ مَلامِحُها تَنْطِقُ بِالانْفِعالِ .

سَألْتُها : « ماذا حَدَثَ ؟ ماذا يُخيفُكِ ؟ »

نَظَرَتْ حَوْلَها وَنَحْوَ البابِ ، ثُمَّ قالَتْ : « ماريان ، لَقَدْ تَحَدَّثْتُ لِتَوِّي مَعَ آن كاثيريك ! »

لَمْ أسْتَطِعْ أنْ أتَفَوَّهَ بِكَلِمَةٍ واحِدَةٍ . نَظَرْتُ إلَيْها في صَمْتٍ لاهِثٍ ، وَلكِنَّها أمْسَكَتْ بِيَدَيَّ ، وَقادَتْني إلى حُجْرَتِها حَتّى لا يُزْعِجَنا أحَدٌ ؛ وَهُناكَ جَذَبَتْني إلى مَقْعَدٍ وَأرَتْني دَبّوسَها الذَّهَبِيَّ المَفْقودَ – كانَ في مَوْضِعِهِ عَلى رِدائِها مَرَّةً أخْرى .

سَألْتُها : « أيْنَ وَجَدْتِهِ ؟ »

« هِيَ الَّتي وَجَدَتْهُ ، يا ماريان . »

« أيْنَ ؟ »

« عَلى أرْضِيَّةِ حَظيرَةِ القَوارِبِ . كَيْفَ أخْبِرُكِ بِما حَدَثَ ؟ كانَتْ تَتَكَلَّمُ عَلى نَحْوٍ غَريبٍ . كانَتْ تَبْدو مَريضَةً جِدّاً. ثُمَّ تَرَكَتْني فَجْأةً . كُنْتُ أبْحَثُ عَنِ الدَّبّوسِ في أرْضِيَّةِ حَظيرَةِ القَوارِبِ عِنْدَما سَمِعْتُ صَوْتاً يُنادي: « آنِسَةُ فيرلي ! » نَعَمْ. اسْمِيَ القَديمُ ! وَحينَ تَلَفَّتُّ حَوْلي رَأيْتُ شابَّةً غَريبَةً في رِداءٍ أبْيَضَ . كانَتْ تَحْمِلُ دَبّوساً في يَدِها . وَ وَضَعَتْهُ في مَكانِهِ عَلى فُسْتاني ، ثُمَّ سَألَتْني إنْ كُنْتُ أذْكُرُ آن كاثيريك الصَّغيرَةَ بِالمَدْرَسَةِ . »

« هَلْ تَذَكَّرْتِ ، يا لورا ؟ »

« لاحَظْتُ أنَّها تُشْبِهُني كَثيراً ، وَكُنْتُ أعْرِفُ أنَّهُمْ كانُوا يَقولونَ إنَّ آن تُشْبِهُني ، وَلكِنَّ وَجْهَها كانَ شاحِباً وَنَحيلاً وَمُجْهَداً . سَألْتُها لِمَ نادَتْني بِاسْمِ آنِسَةَ آن فيرلي ، فَأجابَتْ بِأنَّها تُحِبُّ هَذا الاسْمَ وَتَكْرَهُ اسْمَ غلايد . وَقالَتْ إنَّها ظَلَّتْ تَنْتَظِرُ أيّاماً لِتَتَحَدَّثَ مَعي عَلى انْفِرادٍ .

« كانَتْ تَتَطَلَّعُ مِنْ حَظيرَةِ القَوارِبِ وَهِيَ في غايَةِ القَلَقِ ، وَكَأنَّها كانَتْ تَخْشى أحَدَهُمْ . قالَتْ إنَّها كانَتْ تَخْشى أنْ يُعيدَها سير بيرسيفال ثانِيَةً إلى مُسْتَشْفى الأمْراضِ العَقْلِيَّةِ ، لَكِنَّها لَمْ تَعُدْ تَخافُ لأنَّها كانَتْ تَموتُ رُوَيْداً رُوَيْداً .

« سَألَتْني : « أ تَعْتَقِدينَ أنَّني سَأقابِلُ أمَّكِ في السَّماءِ ؟ »

وَصُدِمْتُ صَدْمَةً كَبيرَةً ، وَلَكِنَّها مَضَتْ تَتَحَدَّثُ عَنْ سِرِّهِ . قالَتْ : « إِنْ عَرَفْتِ سِرَّهُ ، فَسَيَخْشاكِ ، وَسَيُضْطَرُّ إِلى مُعامَلَتِكِ مُعامَلَةً طَيِّبَةً . » وَلَكِنَّها تَوَقَّفَتْ عِنْدَ هَذا الحَدِّ وَراحَتْ تَتَكَلَّمُ عَنْ أُمّي . إِنَّها تُريدُ أَنْ تُدْفَنَ مَعَها . كُنْتُ أَرْتَعِدُ مِنْ قِمَّةِ الرَّأْسِ إِلى أَخْمَصِ القَدَمَيْنِ ؛ لَقَدْ كانَ شَيْئاً مُريعاً . وَسَأَلْتُها ، ثانِيَةً ، عَنْ ذَلِكَ السِّرِّ فَقالَتْ إِنَّ أُمَّها تَعْرِفُهُ ، وَلَكِنَّها ظَنَّتْ ، آنَذاكَ أَنَّها سَمِعَتْ أَحَدَهُمْ فَجَرَتْ إِلى خَلْفَ حَظيرَةِ القَوارِبِ . »

« بِالتَّأْكيدِ تَتَبَّعْتِها ! »

« نَعَمْ ، وَلَكِنَّها قالَتْ إِنَّ هُناكَ مَنْ يُراقِبُها ، وَإِنَّها سَتَعودُ غَداً في الوَقْتِ نَفْسِهِ ، وَإِنَّهُ لا بُدَّ أَنْ أَكونَ بِمُفْرَدي ، ثُمَّ تَرَكَتْني وَانْصَرَفَتْ . »

« آهٍ يا لورا ! لَقَدْ أَضَعْنا فُرْصَةً أُخْرى . »

« نَعَمْ . »

أَ رَأَيْتِ أَحَداً يُراقِبُكُما ؟ »

« لا ، كانَ كُلُّ شَيْءٍ يَبْدو هادِئاً . »

وَتَساءَلْتُ أَ كانَ هُناكَ شَخْصٌ ثالِثٌ ، أَمْ أَنَّ ذَلِكَ كانَ مُجَرَّدَ

خَيالِ آن كاثيريك ؟ وَأَخْبَرْتُها أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْها أَنْ تَذْهَبَ إِلى حَظيرَةِ القَوارِبِ في اليَوْمِ التّالي ، وَأَنَّني سَأَتْبَعُهُما عَلى مَسافَةٍ مَأْمونَةٍ . كُنْتُ مُصَمِّمَةً عَلى أَلا تَهْرُبَ مِنّي هَذِهِ الفَتاةُ كَما سَبَقَ أَنْ هَرَبَتْ مِنْ هارتِرايت وَلورا . ثُمَّ أَرَيْتُها خِطابَ السَّيِّدِ كايل .

سَأَلَتْ : « ماذا عَنِ التَّوْقيعِ ؟ »

قُلْتُ : « أَجِّلْ حَتّى مَوْعِدٍ لاحِقٍ . »

وَرَدَّدَتْ قَوْلي : « أُجِّلَ ؟ مُسْتَحيلٌ ! كَيْفَ يُؤَجِّلُ إِنْ كانَ سير بيرسيفال يُريدُ النُّقودَ الآنَ ؟ »

« يُمْكِنُهُ أَنْ يَأْخُذَ قَرْضاً لِمُدَّةِ ثَلاثَةِ أَشْهُرٍ ، ثُمَّ يُسَدِّدَ الدَّيْنَ بِنُقودِكِ أَنْتِ عِنْدَما تُوَقِّعينَ فيما بَعْدُ . »

وَافْتَرَقْنا حالَ سَماعِنا جَرَسَ العَشاءِ ، وَسَمِعْنا رَبَّ الدّارِ يَصيحُ في الخَدَمِ – كَعادَتِهِ – وَصَوْتَ الكونتِ الرَّخيمَ يَطْلُبُ – كَعادَتِهِ – الهُدوءَ .

الفصلُ الثّاني عشر

خرَجَ سير بيرسيڤال في صَبيحَةِ اليَومِ التّالي ، ولَمْ يَعُدْ إلى الغَداءِ . وذَهَبَتْ لورا إلى حَظيرةِ القَوارِبِ حوالى السّاعَةِ الثّانِيَةِ ، ولكِنَّني انْتَظَرْتُ حتّى يَرْفَعَ الخادِمُ الأطْباقَ مِنَ المائِدَةِ . لَمْ نُرِدْ أنْ نَخْتَفِيَ معاً فَنُثيرَ بِذلِكَ شُكوكَ الكونت . وعِنْدَما وَصَلْتُ إلى الأشْجارِ سِرْتُ بِبُطْءٍ وَحَذَرٍ ، وَلكِنَّني لَمْ أرَ أحَداً ، حتّى ولا لورا . كانَتْ حَظيرَةُ القَوارِبِ خالِيَةً. لَمْ أجِدْ وَأنا أبْحَثُ بِقَلْبٍ خافِقٍ سِوى آثارِ أقْدامٍ في الرَّمْلِ – آثارِ أقْدامِ رَجُلٍ وَامْرَأةٍ ، وحُفْرَةٍ في الأرْضِ بِالقُرْبِ مِنْ حَظيرةِ القَوارِبِ . وَتَتَبَّعْتُ آثارَ الأقْدامِ الّتي أرْجَعَتْني أخيراً إلى البَيْتِ . وَهُناكَ سَمِعْتُ خَبَراً أذْهَلَني . كانَتْ ليدي غلايد تَبْكي ، وَكانَ سير بيرسيڤال قَدْ أمَرَ خادِمَتَها « فاني » بِمُغادَرَةِ البَيْتِ في خِلالِ ساعَةٍ واحِدَةٍ .

وَجَدْتُ فاني ، وَلكِنَّها لَمْ تَسْتَطِعْ أنْ تُعْطِيَني أيَّ تَفْسيرٍ

لِفَصْلِها المُفاجِئِ . لَقَدْ طَلَبَ مِنْها سير بيرسيڤال أنْ تأخُذَ أجْرَ شَهْرٍ وَتَرْحَلَ ، وَمَنَعَها مِنْ رُؤْيَةِ سيِّدَتِها ، بَلْ وَمِنْ وَداعِها .

حاوَلْتُ مُواساةَ المِسْكينَةِ ، وَسَألْتُها أيْنَ سَتُمْضي تِلْكَ اللَّيْلَةَ ؛ أجابَتْ أنَّها تَعْرِفُ فُنْدُقاً صَغيراً في القَرْيَةِ سَتَبيتُ فيهِ ، وَقَدْ تَذْهَبُ في صَبيحَةِ اليَوْمِ التّالي إلى صَديقاتِها في كمبرلاند .

أدْرَكْتُ لِفَوْري أنَّها تَسْتَطيعُ أنْ تَحْمِلَ بَعْضَ خِطاباتٍ لَنا ؛ فَأخْبَرْتُها أنَّني سَأراها ثانِيَةً في تِلْكَ اللَّيْلَةِ ، ثُمَّ صافَحْتُها ، وَصَعِدْتُ إلى الطّابَقِ العُلْوِيِّ لِرُؤْيَةِ لورا .

وَطَرَقْتُ البابَ ، فَفَتَحَتْهُ تِلْكَ الفَتاةُ الغَبِيَّةُ الَّتي ضِقْتُ بِها ذَرْعاً مُنْذُ اليَوْمِ الَّذي عَثَرْتُ فيهِ عَلى الكَلْبِ الجَريحِ . كانَ اسْمُها مارغريت بورتشر ، وَكانَتْ أقْذَرَ وَأسْخَفَ فَتاةٍ في البَيْتِ . وَقَفَتْ تَبْتَسِمُ لي بِبَلاهَةٍ في مَدْخَلِ البابِ .

سَألْتُها : « لِمَ تَقِفينَ هكَذا ؟ أ لا تَرَيْنَ أنَّني أُريدُ الدُّخولَ ؟ »

وَابْتَسَمَتِ ابْتِسامَةً عَريضَةً وَقالَتْ : « آهْ ، وَلكِنْ يَجِبُ ألا تَدْخُلي .»

« كَيْفَ تَجْرُئينَ عَلى الكَلامِ مَعي بِهذِهِ الطَّريقَةِ ؟ تَنَحَّيْ إلى الخَلْفِ حالاً . »

وَبَسَطَتْ ذِراعَيْها عَبْرَ مَدْخَلِ البابِ وَقالَتْ وَهِيَ تُومِئُ بِرأسِها : « أوامِرُ سَيِّدي . »

كانَ مِنَ الصَّعْبِ عَلَيَّ أنْ أحْتَفِظَ بِهُدوءِ أعْصابي ، وَلكِنَّني أدْرَكْتُ أنْ لا جَدْوى مِنَ التَّحدُّثِ مَعَها . وَنَزَلْتُ ثائِرَةً إلى الطّابَقِ الأرْضِيِّ – إلى سير بيرسيڤال وَمَنْ مَعَهُ .

سَأَلْتُهُ وَأنا أنْظُرُ إلَيْهِ مُتَحَدِّيَةً : « هَلْ أفْهَمُ أنَّ زَوْجَتَكَ سَجينَةٌ ؟ »

قالَ : « نَعَمْ ، وَاحْذَري وَإلّا صِرْتِ مِثْلَها . »

« أحْذَرُ ! كَيْفَ تُعامِلُ زَوْجَتَكَ هكَذا ، وَكَيْفَ تُهَدِّدُني ؟ هُناكَ قَوانينُ في إنْجِلْترا لِحِمايَةِ النِّساءِ مِنْ سوءِ المُعامَلَةِ . »

نَظَرَتِ الكونتيسةُ فوسكو إلى زَوْجِها ، ثُمَّ نَهَضَتْ واقِفَةً ، وَقالَتْ بِبُرودٍ : « مِنْ فَضْلِكُمْ أصْغوا إلَيَّ لَحْظَةً واحِدَةً . أشْكُرُكَ ، يا سير بيرسيڤال ، عَلى السَّماحِ باسْتِضافَتي ، وَلكِنَّني لَنْ أكونَ ، بَعْدَ اليَوْمِ ، مُضيفَتَكَ ، لَنْ أبْقى في بيتٍ تُعامَلُ فيهِ السَّيِّداتُ كَما تُعامَلُ اليَوْمَ زَوْجَتُكَ وَالآنِسَةُ هالكوم . »

وَتَراجَعَ سير بيرسيڤال خُطْوَةً ، وَنَظَرَ إلَيْها في صَمْتٍ مُطْبِقٍ . وَهَبَّ الكونت واقِفاً وَاتَّجَهَ إلى جانِبِ زَوْجَتِهِ وَقالَ بِرِقَّةٍ : « أنا في خِدْمَتِكِ ، يا إليانور . »

صاحَ سير بيرسيڤال : « ماذا تَعْني ؟ »

« في المَرّاتِ السّابِقَةِ كُنْتُ أعْني ما أقولُ ، وَلكِنَّني في هذِهِ المَرَّةِ أعْني ما تَقولُهُ زَوْجَتي . لَقَدْ تَبادَلْنا الأدْوارَ وَرَأْيُها هُوَ رَأْيي . »

قالَ سير بيرسيڤال في هَمْسَةٍ شَرِسَةٍ : « اِفْعَلْ ما شِئْتَ ! اِفْعَلْ ما شِئْتَ وَانْتَظِرْ لِتَرى النَّتيجَةَ ! » وسارَ خارِجَ الحُجْرَةِ .

وَنَظَرَتِ الكونتيسةُ فوسكو إلى الكونت وَسَأَلَتْهُ : « ما مَعْنى هذا ؟ »

« مَعْناهُ أنَّني وَأنْتِ قَدْ أعَدْنا أسْوأَ رَجُلٍ عَصَبِيِّ المِزاجِ في إنْجِلْترا إلى صَوابِهِ . مَعْناهُ إطْلاقُ سَراحِ ليدي غلايد . »

هَدَأَتْ سَوْرَةُ غَضَبي ، فَحاوَلْتُ أنْ أتَكَلَّمَ بِهُدوءٍ إلى الكونت ، وَلكِنَّني كُنْتُ ألْهَثُ ، وَكانَتْ عَيْنايَ مُثَبَّتَتَيْنِ عَلى البابِ . وَهَرَبْتُ ، بِمُجَرَّدِ ما اسْتَطَعْتُ ، مِنْ هَذا المَوْقِفِ العَسيرِ . وَأسْرَعْتُ لِرُؤْيَةِ لورا ، فَرَأَيْتُها جالِسَةً حَزينَةً في رُكْنٍ قَصِيٍّ مِنْ غُرْفَتِها ، وَلكِنَّني حينَ دَخَلْتُ وَثَبَتْ مُبْتَهِجَةً ، وَطَلَبَتْ إلَيَّ أنْ أخْبِرَها بِكُلِّ شَيْءٍ حَدَثَ في الطّابَقِ الأرْضِيِّ . وَما إنْ أخْبَرْتُها حَتّى راحَتْ تَتَكَلَّمُ عَنِ الكونت .

قالَتْ : « لَقَدْ كانَ هُوَ الرَّجُلَ الَّذي يُراقِبُني أنا وَآن كاثيريك . لَقَدْ رَآنا وَأخْبَرَ سير بيرسيڤال ؛ إنَّهُ جاسوسُ سير بيرسيڤال . لَقَدْ جَعَلَ

سير بيرسيڤال يَرْقُبُنا طَوالَ الصَّباحِ عِنْدَ حَظيرةِ القَوارِبِ .»

« هَلْ رَأى آن ؟»

« لا ، لَقَدْ أَنْقَذَتْ نَفْسَها بِابْتِعادِها . وَعِنْدَما وَصَلْتُ هُناكَ لَمْ أَرَ أَحَدًا .»

« ... ماذا ؟»

« دَخَلْتُ وَانْتَظَرْتُ ، ثُمَّ خَرَجْتُ فَرَأَيْتُ كَلِمَةً مَنْقوشَةً على الرَّمْلِ . كانَتِ الكَلِمَةُ : « أُنْظُري ! » »

« وَحَفَرْتِ حُفْرَةً كَيْ تَنْظُري ؟»

« نَعَمْ . كَيْفَ عَرَفْتِ ؟ »

« لَقَدْ رَأَيْتُ الحُفْرَةَ بِنَفْسي . اِسْتَمِرّي .»

« وَجَدْتُ قُصاصَةَ وَرَقٍ مُوَقَّعَةً بِالحَرْفَيْنِ أ . ك . »

« آن كاثيريك . أَيْنَ القُصاصَةُ ؟»

« أَخَذَها سير بيرسيڤال مِنّي . وَلَكِنّي أَذْكُرُ ما جاءَ بِها . كانَتْ تَقولُ إِنَّ رَجُلاً بَدينًا كانَ يُراقِبُنا وَيُحاوِلُ أَنْ يُمْسِكَها ، وَلَكِنَّها لاذَتْ بِالفِرارِ . وَقالَتْ إِنَّها لا تَجْرُؤُ على المَجيءِ اليَوْمَ ، وَلَكِنَّها وَعَدَتْ أَنْ تَراني في القَريبِ العاجِلِ لِتُخْبِرَني عَنْ ذَلِكَ السِّرِّ . وَقَدْ



وجدني سير بيرسيڤال وَأَنا أَقْرَؤُها ، فَقالَ إِنَّهُ سَبَقَ أَنْ قَرَأَها وَإِنَّهُ دَفَنَها ثانِيَةً لي كَيْ أَعْثُرَ عَلَيْها ، ثُمَّ أَخَذَها مِنّي .»

« وَماذا فَعَلَ بَعْدَئِذٍ ؟»

« قادَني إِلى خارِجِ حَظيرَةِ القَوارِبِ وَأَمْسَكَ بِذِراعي بِعُنْفٍ ، ثُمَّ هَمَسَ : « ماذا قالَتْ لَكِ آن كاثيريك بِالأَمْسِ ؟ » »

« هَلْ أَخْبَرْتِهِ ؟»

« كُنْتُ بِمُفْرَدي مَعَهُ ، يا ماريان ، وَكانَتْ يَدُهُ القاسِيَةُ تُؤْلِمُ ذِراعي .»

« أريني ذِراعَكِ . أ عليْهِ كدَماتٌ ؟»

كانَتْ بِالفعْلِ ثمّةَ كدْمَةٌ على ذِراعِها حينَ رَأيتُها ثارتْ ثائِرتي.

قالَتْ : « إنّها لا تُؤلمُني الآنَ . لا تَغْضَبي .»

قُلْتُ : « سَأحاولُ أنْ أفكّرَ بِهُدوءٍ في هَذِهِ المسْألَةِ . اِستَمِرّي . هَلْ قُلْتِ لَهُ كُلَّ ما قالَتْهُ ؟ ماذا فَعَلَ عِنْدما انْتَهَيْتِ مِنْ كَلامِكِ ؟»

« ضَحِكَ ساخِراً وَقالَ لا بُدَّ أنْ أخبِرَهُ بِالباقي ، وَإنّهُ لا يُصدّقُ أنّني قُلْتُ لَهُ كُلَّ شَيْءٍ . وَكانَ يَطْلُبُ إلَيَّ المرّةَ تِلوَ المرَّةِ أنْ أستَمِرَّ . وعِنْدما انْتَهَيْتُ مِنْ كَلامي ، اقْتادَني إلى الطّابَقِ العُلْويِّ ، وَفَصلَ فانّي ، وَأغْلَقَ البابَ عَلَيَّ ، وَ وَضَعَ هَذِهِ البَلْهاءَ لِمُراقَبَتي . كانَ يَتكلَّمُ ، يا ماريان ، كَرَجُلٍ مَجْنونٍ ! لَيْسَ مِنَ السَّهْلِ أنْ تَتَصَوَّري ذَلِكَ .كانَ ، فِعلاً ، يَتكلّمُ كَرَجُلٍ مَجْنونٍ ! »

« بَلْ أتَصَوَّرُهُ . إنّهُ مَجْنونٌ بِفِعْلِ مَخاوِفِ رَجُلٍ شِرّيرٍ . أنا واثِقَةٌ أنّكِ ، بِالأمْسِ ، كِدْتِ تَكْتَشِفينَ سِراً قَدْ يُدَمّرُ حَياتَهُ ، وَهُوَ يَعْتَقِدُ أنّكِ اكْتَشَفْتِهِ ! أنْتِ في خَطَرٍ ، يا لورا . سأكْتُبُ إلى السَّيِّدِ كايل، وَكذا لِعَمِّكِ .»

« عَمّي ! إنِ اسْتَطَعْتِ أنْ تُقْنِعيهِ بِأنْ يَسْمَحَ لي بِالعَوْدَةِ إلى

ليميريدج ، فسأكونُ سَعيدَةً كَما كُنْتُ قَبْلَ الزّواجِ .»

وَدَفعَتْني تِلْكَ الكلماتُ إلى التّفكيرِ في فِكْرَةٍ جديدةٍ . أ كانَ مِنَ المُمْكِنِ أنْ تَجعَلَ سير بيرسيڤال يُوافِقُ عَلى ذَهابِنا إلى هُناكَ ؟ عَلى الأقلِّ أستَطيعُ أنْ أحاوِلَ .

وَقُلْتُ وَأنا أنْهَضُ لِلانْصِرافِ : « سَأبَلِّغُ عَمَّكِ بِرَغْبَتِكِ ، وَسأطْلُبُ أيْضاً مَشورَةَ المحامي .»

وَذَهَبْتُ إلى غُرْفَتي وَشَرَعْتُ أكْتُبُ الخِطابَيْنِ . لَمْ أذْكُرْ لِلْمُحامي شَيْئاً عَنْ آن كاثيريك ، لأنّهُ لَمْ يَكُنْ بِمقْدورِنا أنْ نَشْرَحَ هَذا الأمْرَ لَهُ ، وَأبْدَيْتُ رأيي في سُلوكِ سير بيرسيڤال وَأنّهُ كانَ نَتيجَةً لِمُشْكِلَتِهِ الماليّةِ ، وَسَألْتُهُ إنْ كانَ القانونُ يَسْتَطيعُ أنْ يَحْمِيَ لورا إنْ لَمْ يَسْمَحْ لَها زَوْجُها بِمُغادَرَةِ بلاكووتر بارك بَعْضَ الوَقْتِ وَالذَّهابِ مَعي إلى ليميريدج ، كَما ذَكَرْتُ أنّني سَأكْتُبُ إلى السَّيِّدِ فيرلي ، وَسَألْتُهُ أنْ يَتَصَرَّفَ بِسُرْعَةٍ لِمُساعَدَةِ لورا .

ثُمَّ كَتَبْتُ إلى السَّيِّدِ فيرلي مُرْفِقَةً صورَةً مِنْ خِطابي إلى المُحامي ، وَأخْبَرْتُهُ أنّهُ ما لَمْ نَنْتَقِلْ إلى ليميريدج فَسَيُحْدِثُ لَهُ الكَثيرَ مِنَ المَتاعِبِ فيما بَعْدُ . ثُمَّ ذَهَبْتُ لأُطْلِعَ لورا عَلى هَذَيْنِ الخِطابَيْنِ .

وَأخْبَرَتْني لورا أنّها سَمِعَتِ امْرَأةً تَذْهَبُ نَحْوَ غُرْفَتي ، وَعَلى ما

يَبْدو أنَّها كانَتِ الكونتيسةَ فوسكو . كُنْتُ مُنْهَمِكَةً في كِتابَةِ خِطابَيَّ ، فَرُبَّما تكونُ قَدْ سَمِعَتْ صَريرَ قَلَمي ، وَرُبَّما - إنْ كانَ ثَمَّةَ سَبَبٌ آخَرُ - لِعَدَمِ إيداعي الخِطابَيْنِ في حَقيبَةِ البَريدِ بِالقاعَةِ .

كانَتِ السّاعَةُ السّادِسَةَ إلاّ رُبْعًا ، وَكانَ لا يَزالُ ثَمَّةَ وَقْتٌ لِلْوُصولِ إلى فاني في الفُنْدُقِ والعَوْدَةِ قَبْلَ العِشاءِ . وَانْسَلَلْتُ بِسُرْعَةٍ مِنَ البَيْتِ وَانْطَلَقْتُ بِقَدْرِ ما اسْتَطَعْتُ مِنْ سُرْعَةٍ .

وَفي طَريقي لَمْ أَرَ شَيْئًا سِوى عَرَبَةِ نَقْلٍ رِيفِيَّةٍ تَسيرُ في الطَّريقِ خَلْفي . وَخُيِّلَ إلَيَّ في إحْدى اللَّحَظاتِ أنَّني رَأَيْتُ ساقَيْ رَجُلٍ يَمْشي خَلْفَها مُباشَرَةً ، وَلَكِنَّني عِنْدَما تَوَقَّفْتُ لأفْسحَ لَها الطَّريقَ لَمْ أَرَ أحَدًا .

وَ وَصَلْتُ إلى الفُنْدُقِ دونَ أنْ تَقَعَ عَيْنايَ عَلى أيِّ شَيْءٍ آخَرَ وَسَلَّمْتُ الخِطابَيْنِ لِفاني ، وَطَلَبْتُ مِنْها أنْ تودِعَ أَحَدَهُما في لَنْدَن ، وَأنْ تُسَلِّمَ الآخَرَ لِلسَّيِّدِ فيرلي ، يَدًا بِيَدٍ ، بِمُجَرَّدِ وُصولِها إلى كمبرلاند .

وَ وَضَعَتْهُما بَيْنَ طَيّاتِ ثَوْبِها ، وَ وَعَدَتْ بِأنَّها سَتُنَفِّذُ طَلَبي ، وَشَكَرَتْني عَلى عَطْفي عَلَيْها في مِحْنَتِها .

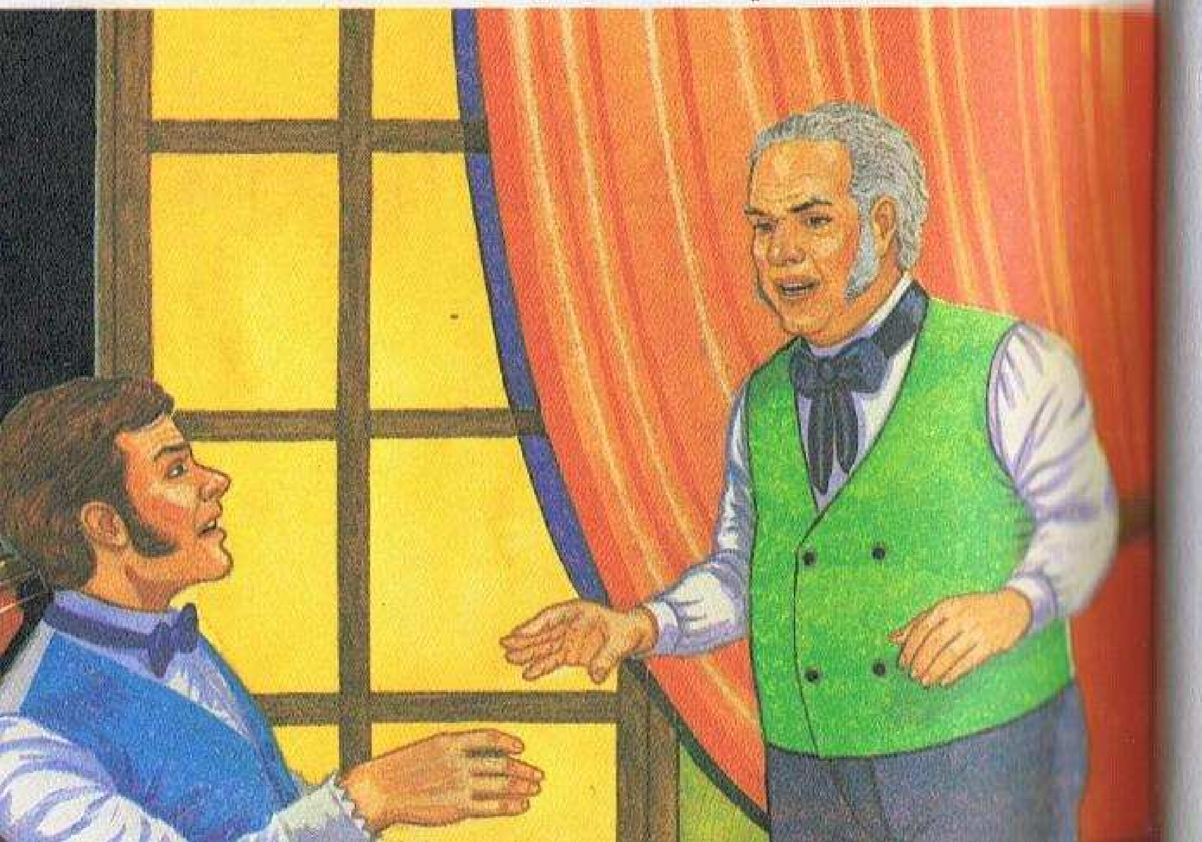
وَعُدْتُ في الوَقْتِ المُناسِبِ لِلعَشاءِ ، وَ وَجَدْتُ الكونت مُنْفَعِلاً

مُحْتَقِنَ الوَجْهِ . لَمْ يَكُنْ مُتَأَنِّقًا فِي مَلْبَسِهِ كَعادَتِهِ . تُرى أ كانَ هُوَ أيْضًا قَدْ خَرَجَ قَبْلَ العَشاءِ ؟ تُرى هَلْ تَأَخَّرَ في العَوْدَةِ ، أَمْ أَنَّهُ كانَ يُعاني مِنَ الحَرِّ لَيْسَ إلّا ؟ كانَ يَبْدو قَلِقًا عَلى نَحْوٍ غَريبٍ ، وَكانَ طيلَةَ العَشاءِ صامِتًا مِثْلَ سير بيرسيفال نَفْسِهِ .

وَعِنْدَما نَهَضْتُ أنا وَالكونتيسةُ فوسكو مِنْ أمامِ المائِدَةِ وَلَمْ تَكُنْ لورا قَدْ نَزَلَتْ - نَهَضَ الكونت لِيَخْرُجَ مَعَنا ، وَلَكِنَّ سير بيرسيفال اسْتَبْقاهُ .

سَأَلَهُ : « لِماذا تَهُمُّ بِالانْصِرافِ ؟»

« سَأَنْصَرِفُ لأنَّني أخَذْتُ كِفايَتي مِنَ الطَّعامِ وَالشَّرابِ .»



« هُراءٌ ! لَنْ يُضيرَكَ مَزيدٌ مِنَ الشَّرابِ . اِجْلِسْ ثانِيَةً . أُريدُ حَديثًا هادِئًا مَعَكَ .»

« حَديثًا هادِئًا ، يا سير بيرسيڤال ؟ بِكُلِّ سُرورٍ ، وَلكِنْ لَيْسَ الآنَ . في المَساءِ ، لَوْ سَمَحْتَ ، في المَساءِ .»

وَذَهَبَ الكونت دونَ أنْ يَتَأَثَّرَ أَدْنى تأثُّرٍ مِنْ وَقاحَةِ لَهْجَةِ سير بيرسيڤال . ذَهَبَ لأَخْذِ حَقيبَةِ البَريدِ ، وَسَأَلَني : « أَ لَدَيْكِ خِطابٌ ، يا آنِسَةُ هالكوم ؟»

« كَلّا ، يا كونت ، شُكْرًا . لَيْسَ لَدَيَّ خِطاباتٌ اليَوْمَ .»

وَأَعْطى الحَقيبَةَ لِلْخادِمِ ، وَجَلَسَ إلى البيانو . وَانْسَلَّتْ زَوْجَتُهُ ، بِسُرْعَةٍ خاطِفَةٍ ، خارِجَ الغُرْفَةِ ، وَعِنْدَما نَهَضْتُ لأَتَعَقَّبَها ، أَوْقَفَني وَأَخَذَ يَسْأَلُني عَنْ رَأْيي في المُوسيقى بِوَجْهٍ عامٍّ . كانَ يَعْزِفُ ، وَيُناقِشُ مايَعْزِفُهُ ، مُسْتَبْقِيًا إيّايَ مُدَّةً طَويلَةً . ثُمَّ شَرَعَ يَعْزِفُ بِعُنْفٍ أَكْثَرَ وَأَكْثَرَ حَتّى راحَ البيانو يَهْتَزُّ تَحْتَ يَدَيْهِ القَوِيَّتَيْنِ . ثُمَّ بَدَأَ يُغَنّي أَثْناءَ عَزْفِهِ . كانَ هُناكَ شَيْءٌ مُريعٌ في نَشْوَتِهِ بِصَوْتِهِ المَهولِ الَّذي مَلأَ الغُرْفَةَ . وَ وَقَفْتُ مَذْعورَةً . وَلَمْ أُفْلِحْ في الإفْلاتِ مِنْهُ إلّا حينَ فَتَحَ سير بيرسيڤال الغُرْفَةَ وَصاحَ يَسْأَلُ عَنْ مَعْنى تِلْكَ الضَّوْضاءِ . وَنَهَضَ الكونت مِنْ أَمامِ البيانو وَقالَ : « آه ! سير بيرسيڤال . اِنْتَهى

عَزْفُ اللَّيْلَةِ !» وَخَرَجَ إلى الحَديقَةِ .

وَسَمِعْتُ سير بيرسيڤال يُناديهِ لِيَعودَ إلَيْهِ ، وَلكِنَّهُ ما كانَ لِيُصْغي إلَيْهِ . كانَ عَلى حَديثِهِما أَنْ يَنْتَظِرَ حَتّى يَكونَ عَلى اسْتِعْدادٍ لَهُ . وَصَعِدْتُ إلى الطّابَقِ العُلْوِيِّ لأَرى إنْ كانَتِ الكونتيسةُ فوسكو قَدْ حاوَلَتْ الاقْتِرابَ مِنْ أُخْتي ، وَلكِنَّ أُخْتي لَمْ تَكُنْ قَدْ سَمِعَتْ شَيْئًا .

وَعِنْدَما هَبَطْتُ إلى الطّابَقِ الأَرْضِيِّ بَعْدَ ذَلِكَ ، وَجَدْتُ ثَلاثَتَهُمْ يَجْلِسونَ مَعًا ، وَمِنَ الغَريبِ أَنْ أَقولَ إنَّ الكونتيسةَ كانَتْ هِيَ المُنْفَعِلَةَ هَذِهِ المَرَّةَ . كانَ وَجْهُها مُحْتَقِنًا ، وَكانَتْ تُرَوِّحُ عَنْ نَفْسِها بِمِرْوَحَتِها . كانَتْ ، وَهِيَ أَبْرَدُ النِّساءِ قاطِبَةً ، تُعاني حَرارَةَ الطَّقْسِ !

الفصلُ الثالثَ عشر

كُنْتُ مُتَّكِئَةً على نافِذَةِ غُرْفَةِ جلوسي تِلْكَ اللَّيْلَةَ حينَ سَمِعْتُ وَقْعَ أقْدامٍ وَأصْواتًا في الحَديقَةِ .

سَمِعْتُ صَوْتَ سير بيرسيڤال يَقولُ : « تَعالَ وَاجْلِسْ .»

قالَ الكونت : « أريدُ أوَّلاً أنْ أرى النّورَ يَنْطَفِئُ في غُرْفَةِ نَوْمِ الآنِسَةِ هالكوم . إنَّها لَمْ تَأوِ إلى الفِراشِ بَعْدُ . صَبْرًا ، يا بيرسيڤال ، صَبْرًا .»

« كَلامٌ فارِغٌ ! دائِمًا تَتَكَلَّمُ عَنِ الصَّبْرِ .»

وَابْتَعَدا بِبُطْءٍ ، فَلَمْ أعُدْ أسْمَعُ شَيْئًا ، وَلَكِنَّني قَرَّرْتُ أنْ أنْصِتَ لِحَديثِهِما ؛ فَقَدْ تَتَوَقَّفُ كَرامَةُ لورا وَسَعادَتُها على أذُنَيَّ الحادَّتَيْنِ وَذاكِرَتي الَّتي لا تَخونُني . لَمْ أرَ أنَّهُ مِنَ الخَطَأ أنْ أتَنَصَّتَ عَلى ما سَيَقولانِهِ .

كانَتْ خُطَّتي هِيَ أنْ أخْرُجَ مِنْ نافِذَةِ غُرْفَةِ جلوسي وَأصْعَدَ إلى سَطْحِ الشُّرْفَةِ ، فَإنْ جَلَسَ الرَّجُلانِ لِيُدَخِّنا بِالقُرْبِ مِنْ بابِ الشُّرْفَةِ بِالطّابَقِ الأرْضِيِّ ، فَسَيُمْكِنُني أنْ أسْمَعَ كُلَّ شَيْءٍ . وَغَيَّرْتُ مَلابِسي ، وَأطْفَأتُ الشَّمْعَةَ ، وَأوْصَدْتُ أبوابَ غُرْفَتي ، وَصَعِدْتُ إلى سَطْحِ الشُّرْفَةِ ، وَبِقَلْبٍ يَخْفُقُ مِنْ شِدَّةِ القَلَقِ ، زَحَفْتُ مِنْ أمامِ نافِذَةِ الكونتيسةِ الَّتي كانَ الضَّوْءُ لا يَزالُ يَنْبَعِثُ مِنْها ، ثُمَّ اتَّخَذْتُ ما بَدا لي أحْسَنَ مَوْقِعٍ لِلإنْصاتِ .

سَمِعْتُ الكونت ، بِالطّابَقِ الأرْضِيِّ ، يَشْكو مِنْ شِدَّةِ الحَرِّ ، ثُمَّ جاءَ صَوْتُ مَقْعَدَيْنِ يوضَعانِ بِالقُرْبِ مِنْ بابِ الشُّرْفَةِ . كُنْتُ سَعيدَةَ الحَظِّ ، إذْ كانا سَيَجْلِسانِ بِالقُرْبِ مِنْهُ ؛ إذًا لَنْ أجِدَ صُعوبَةً في سَماعِهِما .

قالَ سير بيرسيڤال : « إلَيْكَ بَعْضَ الشَّرابِ .»

أجابَ الكونت : « شُكْرًا . أفَضِّلُ الماءَ وَالسُّكَّرَ . وَالآنَ ، اسْتَمِعْ إلَيَّ . سَأصِفُ وَضْعَنا كَما أفْهَمُهُ . أنْتَ تُريدُ عِدَّةَ آلافٍ مِنَ الجُنَيْهاتِ ، وَأنا أريدُ بِضْعَ مِئاتٍ مِنْها . وَطَريقَةُ الحُصولِ عَلى النُّقودِ لَنْ تَكونَ إلّا بِمَعونَةِ زَوْجَتِكَ . وَالآنَ ، هُناكَ طَريقانِ لا ثالِثَ لَهُما لِلسَّيْطَرَةِ عَلى أيَّةِ امْرَأةٍ ؛ إمّا أنْ تَضْرِبَها وَتَطْرَحَها أرْضًا ، وَهَذا لَيْسَ سُلوكًا حَضارِيًّا ، وَإمّا أنْ تَضْبِطَ أعْصابَكَ مَعَها مَهْما حَدَثَ ، وَأنْ

تَحْتَفِظَ ، في هُدوءٍ ، بِقُوَّةِ إرادَتِكَ . هَلْ تَذْكُرُ أنَّ حِدَّةَ طَبْعِكَ فِي المَرَّةِ الأُولى أَفْقَدَتْكَ تَوْقيعَ زَوْجَتِكَ ، وَدَفَعَ الآنِسَةَ هالكوم إلى الكِتابَةِ لِلْمُحامي .»

« في المَرَّةِ الأولى ؟ أ كَتَبَتْ ثانِيَةً ؟»

« نَعَمْ ، كَتَبَتِ اليَوْمَ .»

تُرى هَلْ تَعَقَّبَني الكونت إلى الفُنْدُقِ ؟ هَلْ تَكَهَّنَ بِأَنَّني أَعْطَيْتُ الخِطابَيْنِ لِفاني ؟

وَمَضى الكُونْت يَقولُ : « مِنْ حُسْنِ حَظِّكَ أَنَّني مَوْجودٌ في بَيْتِكَ كَيْ أُبْطِلَ ما يُحْدِثُهُ مِنْ ضَرَرٍ بِمِثْلِ السُّرْعَةِ الَّتي تُحْدِثُهُ . كُنْتَ تُريدُ أَنْ تَحْبِسَ الآنِسَةَ هالكوم. أَيْنَ عَيْناكَ ؟ أ تَسْتَطيعُ أَنْ تَنْظُرَ إِلَيْها وَلا تَرى أَنَّ لَدَيْها عَزْمَ الرِّجالِ ؟ لَوْ كانَتْ هَذِهِ المَرْأَةُ بِجانِبي ، لَما كُنْتُ لأُبالي بِالعالَمِ أَجْمَعَ ، وَلَكِنْ أَنْ تَكونَ عَدُوَّتي ، فَإِنَّني أنا فوسكو ، عَلى الرَّغْمِ مِنْ كُلِّ ذَكائي وَخِبْرَتي ، أَكونُ في وَضْعٍ يَفْرِضُ عَلَيَّ أَنْ أَسيرَ بِكُلِّ حَذَرٍ وَتَوَجُّسٍ . إِنَّها مَخْلوقَةٌ رائِعَةٌ ، وَقَدْ جَعَلْتَها أَنْتَ عَدُوَّةً لَنا . إِنَّكَ تَسْتَحِقُّ الفَشَلَ ، يا سير بيرسيفال ، وَقَدْ فَشِلْتَ فِعْلاً .»

« نَعَمْ ، نَعَمْ ، إِنَّكَ تَتَكَلَّمُ كَمُعَلِّمِ المَدْرَسَةِ ، وَلَكِنَّكَ لا تَعْرِفُ

كُلَّ شَيْءٍ . المالُ لَيْسَ هُوَ المُشْكِلَةَ الوَحيدَةَ .»

« سَنُعالِجُ المُشْكِلَةَ الثّانِيَةَ بَعْدَ مُعالَجَةِ المُشْكِلَةِ الأُولى . وَالآنَ ، هَلْ تُوافِقُ عَلى أَنْ تَتْرُكَ كُلَّ شَيْءٍ في يَدَيَّ ؟ حَسَناً . لَقَدِ اقْتَرَضْتَ وَعَلَيْكَ أَنْ تُسَدِّدَ دَيْنَكَ في خِلالِ ثَلاثَةِ أَشْهُرٍ . أ لَدَيْكَ أَيُّ نُقودٍ في المَصْرِفِ ؟»

« بِضْعُ مِئاتٍ ، عَلى حينِ يَلْزَمُني الآلافُ .»

« ماذا تَتَوَقَّعُ مِنْ زَوْجَتِكَ ؟»

« ثَلاثَةَ آلافِ جُنَيْهٍ سَنَوِيًّا بَعْدَ مَوْتِ عَمِّها .»

« مَبْلَغٌ مُحْتَرَمٌ . ما صِفَةُ هَذا الرَّجُلِ ؟ عَجوزٌ ؟ شابٌّ ؟ مُتَزَوِّجٌ ؟»

« لا هُوَ عَجوزٌ وَلا شابٌّ . أَعْزَبُ . لَوْ تَزَوَّجَ وَأَنْجَبَ أَبْناءً فَلَنْ تَحْصُلَ ليدى غلايد عَلى الثَّلاثَةِ آلافِ جُنَيْهٍ سَنَوِيًّا بَعْدَ مَوْتِهِ . إِنَّهُ أَبْلَهُ أَنانِيٌّ دائِمُ الثَّرْثَرَةِ بِتَفاهاتٍ عَنْ حالَتِهِ الصِّحِّيَّةِ .»

« هَذا الصِّنْفُ مِنَ الرِّجالِ ، يا بيرسيفال ، يَعيشُ طَويلاً ، ثُمَّ يَتَزَوَّجُ حينَ لا تَتَوَقَّعُ مِنْهُ ذَلِكَ . إِنَّ فُرْصَتَكَ في الحُصولِ عَلى هَذا المَبْلَغِ ضَئيلَةٌ جِدًّا . أ لَدَيْكَ آمالٌ أُخْرى ؟»

« لا ، ما لَمْ تمُتْ زَوْجَتي .»

« آهٍ ، ما لَمْ تَمُتْ .»

وَسادَتْ فَتْرَةُ صَمْتٍ طَويلَةٌ ، وَنَهَضَ الكونت لِيتَمَشّى خارِجَ الشُّرْفَةِ . وَسَمِعْتُهُ يَقولُ : « أخيراً سَقَطَ المَطَرُ .» وَكانَ المَطَرُ قَدْ سَقَطَ فِعْلاً ، وَراحَ يُبَلِّلُني .

وَعاوَدَ الجُلوسَ

وَاسْتَأْنَفَ حَديثَهُ قائِلاً : « حَسَناً ، يا بيرسيڤال ، وَإِذا ماتَتْ عَلامَ تَحْصُلُ ؟»

« إِنْ لَمْ يَكُنْ لَدَيْها أَبْناءٌ ، فَإِنَّني أَحْصُلُ عَلى عِشْرينَ أَلْفَ جُنَيْهٍ .»

« نَقْداً ؟»

« نَقْداً .»

وَرانَ عَلَيْهِما الصَّمْتُ ثانِيَةً . وَأَلْقى ظِلٌّ مدام فوسكو بِعَتَمَةٍ عَلى النّافِذَةِ خَلْفي ، وَلَكِنَّها لَمْ تَرَني .

قالَ الكونت : « بيرسيڤال ، أَتُهِمُّكَ زَوْجَتُكَ ؟»

« لِمَ تَنْظُرُ إِلَيَّ هَكَذا ؟»

« لا تُريدُ أَنْ تُجيبَني ؟ حَسَناً . إِذاً ، لِنَقُلْ إِنَّها سَتَموتُ هَذا الصَّيْفَ .»

« كُفَّ عَنْ هَذا الكَلامِ ، يا فوسكو ! أَقولُ لَكَ كُفَّ عَنْهُ !»

« في هَذِهِ الحالَةِ ، سَتَحْصُلُ عَلى عِشْرينَ أَلْفَ جُنَيْهٍ ، وَسَتَفْقِدُ فُرْصَتَكَ الضَّئيلَةَ في الحُصولِ عَلى ثَلاثَةِ آلافِ جُنَيْهٍ سَنَوِيًّا . المَكْسَبُ أَكْبَرُ ، وَالخَسارَةُ مَشْكوكٌ فيها .»

« إِنَّ هَذا يَعْنيكَ ، يا فوسكو ، مِثْلَما يَعْنيني . إِنَّ مَوْتَ زَوْجَتي سَيَعودُ عَلى زَوْجَتِكَ بِعَشَرَةِ آلافِ جُنَيْهٍ ، وَيَبْدو أَنَّكَ نَسيتَ هَذا . لا تَنْظُرْ إِلَيَّ هَكَذا ! لَنْ أَحْصُلَ عَلَيْها أَنا . فيمَ تُفَكِّرُ ؟»

« إِنَّني أَذْكُرُ مَوْتَ زَوْجَتِكَ كَمُجَرَّدِ احْتِمالٍ . لِمَ لا ؟ كُلُّ شَيْءٍ جائِزٌ .»

وَانْطَفَأَ نورُ غُرْفَةِ السَّيِّدَةِ فوسكو وَهُوَ يَتَحَدَّثُ ، فَازْدادَتْ حُلْكَةُ الظَّلامِ .

وَاسْتَرْسَلَ فوسكو قائِلاً : « لا تَقُلْ أَكْثَرَ مِنْ هَذا . اُتْرُكْ كُلَّ شَيْءٍ لي . وَالآنَ ما هِيَ المُشْكِلَةُ الثّانِيَةُ ؟ أَ هِيَ عَنْ آن كاثيريك ؟»

« أَصْغِ إِلَيَّ ، يا فوسكو . لَقَدْ ساعَدَ أَحَدُنا الآخَرَ في الماضي ،

وَلكِنْ ، بِالطَّبْعِ ، كانَ كُلٌّ مِنا يَحْتَفِظُ بِأَسْرارِهِ . أَلَيْسَ كَذَلِكَ ؟ »

« إِنَّكَ تَكْتُمُ سِرا عَني ، وَلكِنَّني لَمْ وَلَنْ أُحاوِلَ أَنْ أَكْتَشِفَهُ . وَمَعَ ذَلِكَ فَإِنَّني فُضولِيٌّ . أَلا تُريدُ أَنْ تَقولَهُ لي ؟ »

« نَعَمْ . »

« إِذاً فَقَدْ تَخَلَّيْتُ عَنْ فُضولي . إِنَّني أُقَدِّسُ الصَّداقَةَ ، يا بيرسيفال ، وَأَسْتَطيعُ أَنْ أَكْتَشِفَ سِرَّكَ ، وَلكِنَّني لَنْ أَفْعَلَ ذَلِكَ . إِنَّني صَديقُكَ . هَيّا نَتَصافَحْ . إِنَّني أُسامِحُكَ . » وَبَدا صَوْتُهُ وَكَأَنَّهُ يَنْتَحِبُ كَامْرَأَةٍ .

« أَنْبِئْني فَقَطْ بِما تَسْتَطيعُهُ ، وَسَأُساعِدُكَ . »

« حَسَناً ، لَقَدْ أَخْبَرْتُكَ اليَوْمَ أَنَّني بَذَلْتُ ما في وُسْعي لِلْعُثورِ عَلى آن كاثيريك ، وَلكِنَّني فَشِلْتُ . فوسكو ، سَأَضيعُ إِنْ لَمْ أَجِدْها! إِنَّهُ أَمْرٌ خَطيرٌ جِدًّا ! لَقَدْ أَرَيْتُكَ تِلْكَ الرِّسالَةَ الَّتي وَجَدْتُها في الرِّمالِ، وَما تَقولُهُ صَحيحٌ . إِنَّها ، فِعْلاً ، تَعْرِفُ السِّرَّ . »

« هَلْ عَرَفَتْهُ مِنْكَ ؟ »

« لا ، مِنْ أُمِّها . »

« اِمْرَأَتانِ تَعْرِفانِهِ ! شَنيعٌ ! شَنيعٌ ! شَنيعٌ ، يا صَديقي . لَقَدْ

فَهِمْتُ لِمَ أَوْدَعْتَها مُسْتَشْفى الأَمْراضِ العَقْلِيَّةِ ، وَلكِنَّها هَرَبَتْ . »

« نَعَمْ ، وَهِيَ الآنَ بِالقُرْبِ مِنْ بلاكووتر . أَنا واثِقٌ أَنَّها قَدْ باحَتْ بِالسِّرِّ لِزَوْجَتي . »

« وَلكِنْ مِنَ المُؤَكَّدِ أَنَّ ليدي غلايد لَنْ تَقولَهُ لأَحَدٍ . »

« يا عَزيزي فوسكو ، أَنا لا أَهَمِّيَّةَ لي عِنْدَها . إِنَّها تُحِبُّ رَجُلاً آخَرَ ، رَجُلاً اسْمُهُ هارترايت ، ساعَدَ آن كاثيريك عِنْدَما هَرَبَتْ . كَما رَآها في كمبرلاند ، وَتَحَدَّثَ إِلَيْها عَلى انْفِرادٍ في كِلْتا المَرَّتَيْنِ . إِنَّهُ يُحِبُّ زَوْجَتي ، وَيَعْرِفُ السِّرَّ ، وَكَذَلِكَ هِيَ ؛ فَإِنْ هُما تَقابَلا مَرَّةً ثانِيَةً ، فَسَيَسْتَخْدِمانِهِ ضِدّي . زَوْجَتي وَحْدَها لَنْ تَفْعَلَ شَيْئاً. وَلكِنْ إِنْ تَقابَلا ... »

« نَعَمْ ، نَعَمْ . أَيْنَ هارترايت الآنَ ؟ »

« خارِجَ القُطْرِ . لَقَدْ كَلَّفْتُ مَنْ يُراقِبُهُ. وَلكِنَّني كُنْتُ حَريصاً ، يا فوسكو ؛ فَقَدْ أَعْطَيْتُ السَّيِّدَةَ كاثيريك خِطاباً لِتَنْسَخَهُ وَتُرْسِلَهُ إِلى الآنِسَةِ هالكوم ، تَقولُ فيهِ إِنَّني تَصَرَّفْتُ بِشَرَفٍ حينَ أَوْدَعْتُ ابْنَتَها مُسْتَشْفى الأَمْراضِ العَقْلِيَّةِ . لَقَدْ حاوَلْتِ العُثورَ عَلَيْها وَفَشِلَتْ . وَالآنَ ها هِيَ ذي تَأْتي إِلى هُنا ، وَقَدْ تُخْبِرُ أَيَّ شَخْصٍ ، وَقَدْ يَعودُ هارترايت وَيُقابِلُها . »

« لا ، يا بيرسيڤال ، سأجدُها قبلَ أنْ يعودَ هارترايت ويُقابِلَها . لا بُدَّ لي مِنْ ذَلِكَ . ما شَكْلُها ؟»

« أسْتَطيعُ أنْ أقولَ بِاختِصارٍ إنَّها تُشبِهُ زَوْجَتي بَعْدَ مَرَضٍ طَويلٍ .»

وَتَحرَّكَ المَقعَدُ فَجْأَةً ، وَهَبَّ فوسكو واقِفًا وصاحَ : « ماذا ؟»

« تَصوَّرْ زَوْجَتي بَعْدَ مَرَضٍ خَطيرٍ ، فَتَكونَ هِيَ آن كاثيريك .»

وَأخَذَ الكونت يُقَهْقِهُ ضاحِكًا .

قالَ : « حَسَنٌ ، حَسَنٌ . سَأعرِفُها عِنْدَما أراها . هَوِّنْ عَلَيْكَ . نَمْ جَيِّدًا ، ثُمَّ انْظُرْ ما سَأفْعَلُهُ مِنْ أجْلِكَ صَباحَ الغَدِ . هَيّا نَتَصافَحْ ثانِيَةً . نَعِمْتَ مَساءً .»

لَمْ يَتَفوَّها بِكَلِمَةٍ أخرى . وَسَمِعْتُ الكونت يُغْلِقُ بابَهُ . وكانَ المَطَرُ يَنْهَمِرُ طَوالَ الوَقْتِ . وَكُنْتُ أشْعُرُ بِبُرودَةٍ قارِسَةٍ وَبَلَلٍ بِمَلابِسي حَتّى إنَّني وَجَدْتُ مَشَقَّةً في حَرَكَتي . وَزَحَفْتُ بِصُعوبَةٍ عائِدَةً إلى نافِذَتي وَالسّاعَةُ تَدُقُّ الواحِدَةَ إلّا رُبْعًا ، وَأنا أحْمَدُ اللّهَ عَلى أنَّني لَمْ أرَ أوْ أسْمَعْ شَيْئًا يَجْعَلُني أشُكُّ في أنَّ أحَدًا كانَ يُراقِبُني .

وَهَوَيْتُ في الظَّلامِ ، عَلى أرْضِ غُرْفَتي وَأنا أرْتَعِدُ مِنَ البَرْدِ ، وَقَدْ بَلَّلَني المَطَرُ مِنْ قِمَّةِ الرَّأسِ إلى أخْمَصِ القَدَمَيْنِ . كُنْتُ نَهْبًا

لِلْخَوفِ وَالفَزَعِ . ثُمَّ ... بِطَريقَةٍ ما ، نَهَضْتُ ، وَأشْعَلْتُ شَمْعَةً ، وَبَحَثْتُ عَنْ بَعْضِ مَلابِسَ جافَّةٍ أتَدَثَّرُ بِها لِتُدْفِئَني. وَزالَ البَرْدُ عَنّي ، وَبَدَأتُ أشْعُرُ بِحَرارَةٍ شَديدَةٍ .

كُنْتُ مُصَمِّمَةً عَلى كِتابَةِ كَلِماتِ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ وَأنا لا أزالُ أتَذَكَّرُها ؛ فَحَديثُهُما سَيُهَيِّئُ لَنا سَبَبًا وَجيهًا لِمُغادَرَةِ البَيْتِ ، كَما أنَّهُ سَيَكونُ سِلاحَ دِفاعٍ ضِدَّهُما . كانَ عَلَيَّ أنْ أُسَجِّلَ حَديثَهُما فَوْرًا قَبْلَ أنْ أنْساهُ ، وَهَذا ما فَعَلْتُهُ . وَقَضَيْتُ السّاعَةَ تِلْوَ السّاعَةِ ، وَأنا جالِسَةٌ إلى جِوارِ النّافِذَةِ المَفْتوحَةِ ؛ لاسْتِنْشاقِ ما أسْتَطيعُ مِنْ هَواءٍ لَعَلَّهُ يُخَفِّفُ مِنْ حَرارَتي . وَرُحْتُ أكْتُبُ عَلى نَحْوٍ أسْرَعَ وَأسْرَعَ وَأنا أشْعُرُ بِحَرارَتي تَرْتَفِعُ أكْثَرَ وَأكْثَرَ ؛ حَتّى انْبَلَجَ نورُ الصَّباحِ . وَبَدَأتُ أشْعُرُ بِالقَلَقِ . كُنْتُ أريدُ أنْ أضْطَجِعَ في فِراشي . وَكانَتْ حَرارَتي مُزْعِجَةً ، وَلَكِنَّني حينَ اضْطَجَعْتُ ما كُنْتُ لأدْري إنْ كُنْتُ سَأسْتَطيعُ النُّهوضَ ثانِيَةً أمْ لا. آهٍ . المَطَرُ ! المَطَرُ ! أ كُنْتُ سَأقَعُ فَريسَةً لِلْمَرَضِ في وَقْتٍ كَهَذا ؟

أعْرِفُ الآنَ أنَّني كُنْتُ مَريضَةً ، وَأنَّني كُنْتُ مُصابَةً بِحُمّى خَطيرَةٍ ، وَأنَّ الكونت رَأى كُلَّ ما كَتَبْتُهُ . كَما أعْرِفُ الآنَ أشْياءَ أخْرى كَثيرَةً . أعْرِفُ أنّ الكونت ذَهَبَ لِزِيارَةِ السَّيِّدِ فيرلي بَعْدَ أنْ سَلَّمَتْهُ فاني خِطابي ، وَأقْنَعَهُ أنْ يَكْتُبَ إلى لورا يَدْعوها لِلْمَجيءِ

إلى ليميريدج. وَأعْرِفُ أنَّ الكونتيسةَ ذَهَبَتْ إلى الفُنْدُقِ لِرُؤْيَةِ فاني ، وَأنَّها حَذَّرَتْها ، وَغَيَّرَتْ خِطابي لِلْمُحامي بِوَرَقَةٍ بَيْضاءَ .

وَلَكِنَّني لَمْ أكُنْ أعْرِفُ شَيْئًا ، عَلى الإطْلاقِ ، في ذَلِكَ الصَّباحِ عِنْدَما داهَمَتْني الحُمّى .

إليزا ميتشلسن ، مدبرة البيت
في بلاكووتر بارك ، تواصل القصة
الفَصْلُ الرّابِعَ عَشَر

لَقَدْ طُلِبَ مِنّي أنْ أقولَ ما أعْرِفُهُ عَنْ مَرَضِ الآنِسَةِ هالكوم ، وَعَنِ الأيّامِ السّابِقَةِ لِمُغادَرَتي بلاكووتر بارك . لَمْ أكُنْ أكْتُبُ أيَّ مُذَكَّراتٍ في ذَلِكَ الوَقْتِ ؛ لِذا فَإنَّني لَسْتُ واثِقَةً مِنْ تَواريخِ الأحْداثِ ، وَلَكِنَّني أظُنُّ أنَّ الآنِسَةَ هالكوم مَرِضَتْ في نِهايَةِ شَهْرِ يونيه تَقْريبًا .

لَمْ تَأتِ لِتَناوُلِ إفْطارِها ، وَنَزَلَ الخادِمُ الَّذي أرْسِلَ لِيُنادِيَها وَهُوَ يَرْتَجِفُ خَوْفًا ، فَصَعِدْتُ إلى الطّابَقِ العُلْوِيِّ ، وَإذْ بي أجِدُ المِسْكينَةَ تَتَجَوَّلُ مَحْمومَةً في غُرْفَتِها وَتُمْسِكُ بِقَلَمٍ في يَدِها . وَجاءَتْ ليدي غلايد ، وَلَكِنَّ مَظْهَرَ أخْتِها المَحْمومَ أصابَها بِاضْطِرابٍ شَديدٍ جَعَلَها عَديمَةَ الفائِدَةِ تَمامًا ، عَلى أنَّ كونت فوسكو وَزَوْجَتَهُ كانا نافِعَيْنِ وَكَريمَيْنِ . ساعَدَتْني الكونتيسةُ عَلى أنْ أرْقِدَ الآنِسَةَ هالكوم في فِراشِها ، وَاسْتَدْعَيْنا أقْرَبَ طَبيبٍ لَنا وَهُوَ السَّيِّدُ دوسن فَوْرًا .

وَ وَصلَ السَّيِّدُ دوسن في أقلّ مِنْ ساعةٍ . كانَ رَجُلاً مُحْتَرَماً وَمَعْروفاً . وأسِفْنا جَميعاً حينَ سَمِعْناهُ يَقولُ إنَّ حالَتَها كانَتْ جِدَّ خَطيرَةٍ . وَأَبْدى لَهُ الكونت ، بِأَدَبٍ ، رَأْيَهُ في مَرَضِها ، وَلكِنَّ السَّيِّدَ دوسن رَفَضَ – بِوَقاحَةٍ – أَنْ يُناقِشَ الأَمْرَ مَعَهُ .

وَعلى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّنا بَذَلْنا كُلَّ وُسْعِنا ، فَقَدْ قَضَتِ الآنِسَةُ هالكوم لَيْلَةً مُزْعِجَةً . وَفي صَبيحَةِ اليَوْمِ التّالي كانَ سير بيرسيفال في غايَةِ القَلَقِ ، لَمْ يُعامِلْني بِأَدَبٍ كَما كانَ يُعامِلُني الكونت الَّذي كانَ يَمْتازُ بِسُلوكِ النُّبَلاءِ الخُلَّصِ ، وَيَبْدو هادِئاً دائِماً . وَقُمْتُ أنا وَالكونتيسةُ بِتَمْريضِ الآنِسَةِ هالكوم . وَجَلَسَتْ ليدي غلايد مَعَنا عَلى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّنا تَوَسَّلْنا إِلَيْها أَنْ تَأْخُذَ قِسْطاً مِنَ الرّاحَةِ . وَلَمْ تَزِدْ عَلى تَرْديدِ قَوْلِها : « إِنَّ مَكاني بِجانِبِ أُخْتي . »

وَذاتَ يَوْمٍ وَجَدْتُ الكونت في أَحْسَنِ حالاتِهِ المِزاجِيَّةِ ، عَلى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّ المَريضَةَ لَمْ تَكُنْ قَدْ تَحَسَّنَتْ . وَلَمّا سَمِعَهُ سير بيرسيفال في القاعَةِ أَطَلَّ بِرَأْسِهِ مِنْ بابِ المَكْتَبَةِ ، وَسَأَلَهُ مُتَلَهِّفاً : « هَلْ وَجَدْتَها ؟ »

وَرَأَيْتُ وَجْهَهُ يَتَهَلَّلُ بِشْراً . وَلَمْ يَكُنْ مِنْ حَقّي ، بِحُكْمِ وَظيفَتي ، أَنْ أُنْصِتَ أَكْثَرَ مِنْ ذلِكَ ، وَلكِنَّني تَساءَلْتُ ، تُرى ماذا تَعْني هذِهِ الكَلِماتُ ؟

وَفي اليَوْمِ التّالي رَحَلَتِ الكونتيسةُ إلى لَنْدَن ، وَبَقيتُ وَحْدي لِرِعايَةِ الآنِسَةِ هالكوم . كانَ يَبْدو أَنَّها تَتَحَسَّنُ بَعْضَ الشَّيْءِ ، وَلكِنَّني كُنْتُ أَخْشى أَنَّهُ سَيَتَعَيَّنُ عَلَيَّ أَنْ أَقومَ بِتَمْريضِ ليدي غلايد هِيَ الأُخْرى ؛ فَقَدْ بَدا عَلَيْها المَرَضُ ، وَكانَتْ تَرْفُضُ الخُلودَ إِلى الرّاحَةِ .

وَ مَرَّةً ثانِيَةً اخْتَلَفَ الكونت وَالطَّبيبُ حَوْلَ العِلاجِ المُسْتَخْدَمِ . ذَكَّرَ الكونت الطَّبيبَ بِأَنَّهُ كانَ يَعيشُ بَعيداً عَنْ مَراكِزِ التَّعْليمِ الطِّبِّيِّ – لَنْدَن وَباريس ، وَرَدَّ عَلَيْهِ الطَّبيبُ بِكُلِّ وَقاحَةٍ وَشَراسَةٍ . وَلكِنَّ الكونت ظَلَّ مُحْتَفِظاً بِهُدوئِهِ المَعْهودِ ، وَانْصَرَفَ بَعْدَ أَنْ حَيّاهُ بِلُطْفٍ قائِلاً : « نَعِمْتَ صَباحاً . »

كانَ أَحَدَ الأَسْبابِ الَّتي اسْتَدْعَتْ سَفَرَ الكونتيسةِ إِلى لَنْدَن أَنْ تُحْضِرَ مَعَها مُمَرِّضَةً لِلْمَريضَةِ . وَعادَتْ وَمَعَها سَيِّدَةٌ تُدْعى السَّيِّدَةَ ريوبل ، وَكانَتِ امْرَأَةً أَجْنَبِيَّةً .

يَجِبُ أَلاّ أَقْسو عَلَيْها ، لِذا لَنْ أَقولَ إِنَّ السَّيِّدَةَ ريوبل كانَتْ تَبْدو امْرَأَةً خَبيثَةً خَسيسَةً ، تُناهِزُ الخَمْسينَ مِنْ عُمْرِها . كانَتْ ذاتَ بَشَرَةٍ سَمْراءَ وَعَيْنَيْنِ رَمادِيَّتَيْنِ مُتَيَقِّظَتَيْنِ . وَلَنْ أَذْكُرَ أَنَّني ظَنَنْتُ أَنَّ مَلابِسَها كانَتْ غالِيَةَ الثَّمَنِ عَلى نَحْوٍ لا يَتَناسَبُ مَعَ امْرَأَةٍ في وَضْعِها الاجْتِماعِيِّ . كُلُّ ما سَأَذْكُرُهُ هُوَ أَنَّ سُلوكَها كانَ في غايَةِ

الهُدوءِ . تَلَفَّتَتْ حَوْلَها كَثيراً ثُمَّ تَكَلَّمَتْ بِضعَ كَلماتٍ لِتُخبِرَني أَنَّها لَنْ تَتناوَلَ العَشاءَ مَعي في غُرْفَتي .

وَاقْتَرَحَتِ الكونتيسةُ أَنْ تَبْدَأَ المُمَرِّضَةُ مُهِمَّتَها بَعْدَ أَنْ يَراها الطَّبيبُ صَباحَ اليَوْمِ التّالي . وَلكِنْ كانَ يَبْدو أَنَّ ليدي غلايد لَمْ تَكُنْ تَرْغَبُ في أَنْ تَدَعَها تَقومُ بِتَمْريضِ الآنِسَةِ هالكوم ، وَأَخَذَتْ تَتَنَهَّدُ بِحُزْنٍ ، وَتُقَبِّلُ يَدَ المَريضَةِ وَهِيَ راقِدَةٌ في سَريرِها . لَمْ يَكُنْ هَذا مِنَ الحِكْمَةِ في شَيْءٍ في غُرْفَةِ التَّمْريضِ ، وَلكِنْ يُؤْسِفُني أَنْ أَقولَ إِنَّ ليدي غلايد لَمْ تَكُنْ تَعرِفُ شَيْئاً عَنِ التَّمْريضِ .

وَفي الصَّباحِ التّالي ، اسْتَدْعاني الطَّبيبُ وَقالَ : « بِخُصوصِ هَذِهِ المُمَرِّضَةِ الجَديدَةِ ، يا سَيِّدَةَ ميتشلسن ، أَعْلَمُ أَنَّ زَوْجَةَ ذَلِكَ الأَجْنَبِيِّ العَجوزِ البَدينِ ، الَّذي يُحاوِلُ دائِماً أَنْ يَتَدَخَّلَ في عَمَلي ، هِيَ الَّتي أَحْضَرَتْها إِلى هُنا مِنْ لَنْدَن . »

كانَ هَذا في مُنْتَهى الوَقاحَةِ ، فَصُدِمْتُ .

قُلْتُ : « أَتَعرِفُ ، يا سَيِّدي ، أَنَّهُ يَحْمِلُ لَقَبَ نَبيلٍ ؟ »

« وَلَوْ ! إِنَّهُمْ كُلُّهُمْ نُبَلاءُ ، هَؤُلاءِ الأَجانِبُ ، وَأَعْتَرِضُ عَلى أَنْ تَكونَ السَّيِّدَةُ ريوبل مُمَرِّضَةً لِلآنِسَةِ هالكوم . قَدْ تَكونُ مُمَرِّضَةً ماهِرَةً وَلكِنْ لَمْ آتِ أَنا بِها . لَقَدْ أَخْبَرْتُ سير بيرسيفال بِذَلِكَ ،

وَلكِنَّهُ رَدَّ بِأَنَّ المُمَرِّضَةَ الَّتي سَأَجيءُ بِها مِنْ لَنْدَن سَتَكونُ غَريبَةً هِيَ الأُخْرى . إِنَّهُ يَقولُ : « فَلْنُجَرِّبْها . » لِذا أُريدُ مِنْكِ أَنْ تُسَلِّطي نَظَرَكِ عَلَيْها . هَذا الأَجْنَبِيُّ البَدينُ يُريدُ أَنْ يُجَرِّبَ أَدْوِيَتَهُ هُوَ عَلى المَريضَةِ ، وَقَدْ تَكونُ مُمَرِّضَةُ زَوْجَتِهِ عَلى اسْتِعْدادٍ لِمُساعَدَتِهِ . يَجِبُ أَلّا تَأْخُذَ الآنِسَةُ هالكوم دَواءً غَيْرَ دَوائي . أَتَفْهَمينَ ؟ »

أَجَبْتُ : « نَعَمْ ، يا سَيِّدُ دوسن . »

وَاقْتادَتْنا السَّيِّدَةُ ريوبل إِلى غُرْفَةِ النَّوْمِ حَيْثُ جَلَسَتْ في هُدوءٍ في انْتِظارِ طَلَبِنا لَها . وَكانَ يَبْدو أَنَّها تَفْهَمُ عَمَلَها جَيِّداً ، فَقَدْ كانَتْ مِثْلي ، تُحْسِنُ السَّهَرَ عَلى خِدْمَةِ المَرْضى .

وَأَخَذْتُ طَوالَ الأَيّامِ الثَّلاثَةِ أَوْ الأَرْبَعَةِ التّالِيَةِ أُراقِبُها بِاهْتِمامٍ كَبيرٍ ، وَلكِنَّني لَمْ أَرَ شَيْئاً يَدْعو لِلرِّيبَةِ . كانَتْ حَقّاً مُمَرِّضَةً ماهِرَةً ، عَلى الرَّغْمِ مِنْ قِلَّةِ كَلامِها ، وَعَدَمِ إِصْغائِها إِلى النُّصْحِ .

وَذاتَ يَوْمٍ تَغَيَّبَ الكونت في بَعْضِ أَعْمالِهِ ، وَلكِنَّهُ قَبْلَ أَنْ يَرْحَلَ تَحَدَّثَ بِكُلِّ جِدِّيَّةٍ إِلى ليدي غلايد في حُضوري عَنِ المَريضَةِ ، قالَ : « ثِقي بِالسَّيِّدِ دوسن بِضْعَةَ أَيّامٍ أُخرى ، وَلكِنْ إِنْ لَمْ تَتَحَسَّنْ فَابْعَثي في طَلَبِ طَبيبٍ آخَرَ مِنْ لَنْدَن . »

وَبَدا الذُّعْرُ عَلى ليدي غلايد . وَبَعْدَ أَنِ انْصَرَفَ الْتَفَتَتْ إِلَيَّ

وَسَأَلَتْني : « أ تَظُنِّينَ أَنَّ السَّيِّدَ دوسن مُخْطِئٌ ؟ لَقَدْ أَخْبَرَني صَباحَ اليَوْمِ أَنْ لَيْسَ ثَمَّةَ خَطَرٌ ، وَلا داعِيَ لاسْتِدْعاءِ طَبيبٍ آخَرَ .»

أَجَبْتُ : « لَوْ أَنَّني كُنْتُ في مَكانِ سِيادَتِكِ، لَتَذَكَّرْتُ نَصيحَةَ الكونت .»

وَكَرَّرَتْ تَقولُ لِنَفْسِها : « نَصيحَتَهُ ! نَصيحَتَهُ ! كانَ اللّهُ في عَوْنِنا !»

وَتَغَيَّبَ الكونت حَوالى أُسْبوعٍ ، وَكانَ سير بيرسيڤال ، طَوالَ الوَقْتِ ، قَلِقاً مُكْتَئِباً ، يَذْرَعُ المَنْطِقَةَ المُحيطَةَ بِالبَيْتِ جيئَةً وَذَهوباً . أَظُنُّ أَنَّ قَلْبَهُ قَدْ رَقَّ كَثيراً ؛ فَقَدْ كانَ دائِمَ السُّؤالِ عَنِ الآنِسَةِ هالكوم .

وَذاتَ يَوْمٍ ، لاحَظْنا تَدَهْوُرَ صِحَّتِها ، وَرَأى السَّيِّدُ دوسن ذَلِكَ فَوْرَ مَجيئِهِ . وَبِناءً عَلى نَصيحَتِهِ ، أَرْسَلَ أَحَدُ الخَدَمِ في صَباحِ اليَوْمِ التّالي إلى لَنْدَن لإحْضارِ طَبيبٍ آخَرَ ، بِأَوَّلِ قِطارٍ قادِمٍ ، وَبَعْدَ رَحيلِ الخادِمِ بِنِصْفِ ساعَةٍ ، عادَ الكونت ، وَجاءَتْ بِهِ الكونتيسةُ في الحالِ لِرُؤْيَةِ المَريضَةِ ، وَلَكِنَّهُ حينَ اقْتَرَبَ مِنْ سَريرِها تَعَلَّقَتْ عَيْنا الآنِسَةِ هالكوم بِوَجْهِهِ في فَزَعٍ . وَكانَ يَبْدو أَنَّها غَيْرُ قادِرَةٍ عَلى التَّعَرُّفِ عَلى أَصْدِقائِها .

وَسَأَلَ الكونت أَسْئِلَةً كَثيرَةً ، وَدَخَلَ هُوَ وَالسَّيِّدُ دوسن في نِقاشٍ جَديدٍ حَوْلَ مَرَضِها ، ثُمَّ وَصَلَ الطَّبيبُ مِنْ لَنْدَن ، وَأَيَّدَ آراءَ الكونت وَأَبْدى رَأْياً خَطيراً عَنْ حالَتِها .

وَمَضَتْ عَشَرَةُ أَيّامٍ قَبْلَ أَنْ تَتَحَسَّنَ حالَةُ المَريضَةِ ، وَهُنا فَقَطْ قَرَّرَ الطَّبيبُ أَنَّها جاوَزَتْ مَرْحَلَةَ الخَطَرِ ، وَأَخْبَرَنا أَنَّها لَمْ تَعُدْ بِحاجَةٍ إلى خِدْماتِ طَبيبٍ . لَمْ يَكُنِ المَطْلوبُ سِوى التَّمْريضِ الجَيِّدِ .

وَكانَ الخَبَرُ السّارُّ أَكْثَرَ مِمّا اسْتَطاعَتْ ليدي غلايد أَنْ تَتَحَمَّلَهُ ، فَاهْتَزَّتْ أَعْصابُها . وَقَرَّرَ دوسن أَنَّها كانَتْ بِحاجَةٍ إلى الرّاحَةِ وَتَغْييرِ الهَواءِ . وَمِنْ حُسْنِ الحَظِّ أَنَّ حالَتَها لَمْ تَسُؤْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ، فَقَدْ نَشِبَ في نَفْسِ اليَوْمِ شِجارٌ عَنيفٌ بَيْنَ الطَّبيبِ وَالكونت ، وَكانَ هَذِهِ المَرَّةَ ، في غايَةِ العُنْفِ حَتّى إنَّ السَّيِّدَ دوسن غادَرَ البَيْتَ ، وَأَرْسَلَ فاتورَةَ أَتْعابِهِ في صَباحِ اليَوْمِ التّالي ، فَصِرْنا بِدونِ طَبيبٍ يُقَدِّمُ لَنا النُّصْحَ وَالمَشورَةَ .

وَ وَقَعَ حَدَثٌ هامٌّ آخَرُ في اليَوْمِ نَفْسِهِ ؛ اِسْتَدْعاني سير بيرسيڤال وَأَمَرَني أَنْ أَفْصِلَ كُلَّ الخَدَمِ فَوْراً ما عَدا مارغريت بورتشر ، وَتَمَلَّكَتْني الدَّهْشَةُ ؛ فَقالَ لي إنَّهُ مُضْطَرٌّ لأنْ يَخْفِضَ نَفَقاتِهِ ، وَإنَّهُ في سَبيلِهِ إلى بَيْعِ كُلِّ جِيادِهِ ما عَدا واحِداً ، وَالتَّخَلُّصِ مِمّا أَسْماهُ مَجْموعَةَ « كَسولَةً» مِنَ الخَدَمِ الَّذينَ كانُوا يَأْكُلونَ أَكْثَرَ مِمّا يَنْبَغي .

وَضَبَطْتُ مَشاعِري وَنَفَّذْتُ طَلَباتِهِ . وَفي اليَوْمِ التّالي ، رَحَلوا جَميعُهُمْ ، وَلَمْ يَبْقَ مَعَ الأُسْرَةِ سِوايَ وَالمُمَرِّضَةِ وَمارغريت بورتشر وَالبُسْتانِيُّ . وكانَ ظَرْفًا غَريبًا بِالنِّسْبَةِ لي ؛ فَرَبَّةُ البَيْتِ مَريضَةٌ في سَريرِها ، وَالآنِسَةُ هالكوم عاجِزَةٌ كَطِفْلَةٍ ، وَلا طَبيبَ لَدَيْنا . كُنْتُ قَلِقَةً وَمُكْتَئِبَةً ، وَتَمَنَّيْتُ لَوْ أَنَّني كُنْتُ بَعيدَةً عَنْ بلاكووتر بارك .

وَفي اليَوْمِ التّالي أَرْسَلَني سير بيرسيڤال إِلى توركاي لِلْبَحْثِ عَنْ مَنْزِلٍ مُناسِبٍ لِلَيْدي غلايد وَالآنِسَةِ هالكوم ، لِيُقيما فيهِ لِبَعْضِ الوَقْتِ ، وَلٰكِنَّهُ كانَ يُريدُ بَيْتًا كَبيرًا على حينِ كانَ ما خَصَّصَهُ مِنْ إيجارٍ لَهُ قَليلاً جِدًّا ، حَتّى إِنَّني أَدْرَكْتُ مِنَ البِدايَةِ أَنْ لَيْسَ ثَمَّةَ أَمَلٌ في العُثورِ عَلى ما يُريدُهُ ، وَاضْطُرِرْتُ إِلى العَوْدَةِ بَعْدَ يَوْمٍ أَوْ يَوْمَيْنِ لأَقولَ لَهُ إِنَّني فَشِلْتُ في مُهِمَّتي ، وَلٰكِنَّهُ بَدا مَشْغولاً بِأَمْرٍ آخَرَ ؛ فَلَمْ يُعِرْ فَشَلي أَيَّ اهْتِمامٍ . كانَتْ أُولى كَلِماتِهِ لي أَنَّ الكونت والكونتيسة قَدْ رَحَلا لِيُقيما في لَنْدَن . وَسَأَلْتُ إِنْ كانَ لَدى لَيْدي غلايد أَحَدٌ لِيُعْنى بِها بَعْدَ رَحيلِ الكونتيسةِ ، فَقالَ إِنَّ مارغريت بورتشر تَقومُ عَلى خِدْمَتِها .

وَصَدَمَتْني الإجابَةُ حَقًّا ، وَصَعِدْتُ إِلى الطّابَقِ العُلْوِيِّ لِتَوِّي ، فَوَجَدْتُ – وَكانَ هٰذا أَمْرًا طَبيعِيًّا أَنَّ لَيْدي غلايد قَدْ طَرَدَتِ الفَتاةَ . كانَتْ أَحْسَنَ حالاً ، وَلٰكِنَّها كانَتْ تَشْعُرُ بِبَعْضِ القَلَقِ عَلى الآنِسَةِ

هالكوم ، إِذْ لَمْ يَصِلْها أَخْبارٌ عَنْها ، لِذا ساعَدْتُها عَلى ارْتِداءِ مَلابِسِها ، وَمَضَيْنا في طَريقِنا إِلى غُرْفَةِ الآنِسَةِ هالكوم .

وَاسْتَوْقَفَنا سير بيرسيڤال في المَمَرِّ ، وَسَأَلَ لَيْدي غلايد : « إِلى أَيْنَ أَنْتِ ذاهِبَةٌ ؟ »

« إِلى غُرْفَةِ ماريان . »

« لَنْ تَجِديها . لَقَدْ غادَرَتِ البَيْتَ بِالأَمْسِ مَعَ فوسكو وَزَوْجَتِهِ . »

لَمْ تَكُنْ لَيْدي غلايد مِنَ القُوَّةِ بِحَيْثُ تَتَحَمَّلُ مُفاجَأَةَ هٰذا النَّبَأِ ؛ امْتُقِعَ لَوْنُها ، وَاسْتَنَدَتْ في وَهَنٍ إِلى الحائِطِ وَراءَها وَهِيَ تَنْظُرُ إِلى زَوْجِها في صَمْتٍ مُطْبِقٍ ، ثُمَّ أَفاقَتْ مِنْ صَدْمَتِها .

وَقالَتْ : « مُسْتَحيلٌ . أَيْنَ كانَ الطَّبيبُ ؟ »

« لَمْ يَكُنْ مَوْجودًا . لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ حاجَةٌ إِلَيْهِ . رَحَلَ بِمَحْضِ إِرادَتِهِ ، وَهٰذا يُثْبِتُ أَنَّ حالَتَها كانَتْ تُمَكِّنُها مِنَ السَّفَرِ . إِنْ كُنْتِ لا تُصَدِّقينَني ، فَابْحَثي عَنْها بِنَفْسِكِ . »

وَبَحَثْنا عَنْها في غُرْفَتِها ، وَلٰكِنَّها لَمْ تَكُنْ هُناكَ ، وَلا في أَيَّةِ غُرْفَةٍ بِالقُرْبِ مِنْها . وَعِنْدَما خَرَجْنا مِنَ الغُرْفَةِ الأَخيرَةِ ، سَأَلَتْ لَيْدي غلايد زَوْجَها : « أَيْنَ ذَهَبَتْ أُخْتي ؟ »

« إلى لَنْدَن ، في طَريقِها إلى ليميريدج. إنَّ مَعَها ثلاثةَ أشْخاصٍ يُعْنَوْنَ بِها : فوسكو وَعَمَّتكِ وَالسَّيِّدَةُ ريوبل . وَسَتَذْهَبُ اليَوْمَ إلى ليميريدج .»

« لِمَ تَذْهَبُ إلى ليميريدج وَتَتْرُكُني هُنا وَحْدي ؟ »

« لأنَّ عَمَّكِ لَنْ يَسْتَقْبِلَكِ حَتّى يَراها أوَّلاً .»

وَاغْرَوْرَقَتْ عَيْنا ليدي غلايد بِالدُّموعِ ، وَقالَتْ : « إنَّها لَمْ تَفْتَرِقْ عَنّي ، في يَوْمٍ مِنَ الأيّامِ ، دونَ وَداعي .»

وَتَرَكَنا سير بيرسيڤال فَجْأةً . كانَ في غايَةِ الغَرابَةِ وَهُوَ يُكَلِّمُنا . كانَ يَبْدو في مِثْلِ قَلَقِ زَوْجَتِهِ وَعَصَبِيَّتِها .

قالَتْ لي : « لَقَدْ حَدَثَ شَيْءٌ ما لأخْتي . يَجِبُ أنْ ألْحَقَ بِها ، وَأرى بِعَيْنَيْ رَأسي أنَّها عَلى قَيْدِ الحَياةِ ، وَأنَّها بِخَيْرٍ . تَعالَيْ مَعي إلى الطّابَقِ الأرْضِيِّ لِرُؤْيَةِ سير بيرسيڤال .»

وَ وَجَدْناهُ يَجْلِسُ أمامَ المائِدَةِ ، وَأمامَهُ قَدَحٌ مِنَ الشَّرابِ . وَحاوَلْتُ أنْ أعْتَذِرَ عَنْ وُجودي هُناكَ .

سَألَ عَلى نَحْوٍ غَريبٍ : « أ تَظُنّينَ أنَّ هُناكَ أسْراراً ؟ لَيْسَ ثَمَّةَ أسْرارٌ . لا شَيْءَ أخْفيهِ عَنْكِ أوْ عَنْ أيِّ أحَدٍ آخَرَ .» ثُمَّ مَلأَ قَدَحَهُ ثانِيَةً ، وَسَألَ ليدي غلايد عَمّا تُريدُ .

قالَتْ : « إنْ كانَتْ أخْتي قادِرَةً عَلى السَّفَرِ ، فَإنَّني قادِرَةٌ عَلَيْهِ كَذَلِكَ . دَعْني ألْحَقْ بِها فَوْراً بِقِطارِ عَصْرِ اليَوْمِ .»

أجابَ : « عَلَيْكِ أنْ تَنْتَظِري حَتّى الغَدِ . سَأكْتُبُ اللَّيْلَةَ لِفوسكو .»

سَألَتْ مُسْتَغْرِبَةً : « وَلِمَ تَكْتُبُ إلى كونت فوسكو ؟ »

« لأطْلُبَ إلَيْهِ أنْ يَنْتَظِرَكِ . سَيُقابِلُكِ بِالمَحَطَّةِ ، وَتَسْتَطيعينَ أنْ تَبيتي بِبَيْتِ عَمَّتِكِ .»

وَراحَتْ ليدي غلايد تَرْتَجِفُ وَهِيَ تَقولُ : « لَسْتُ في حاجَةٍ إلى ذَلِكَ . أفَضِّلُ ألا أبيتَ في لَنْدَن .»

« بَلْ لا بُدَّ لَكِ مِنْ ذَلِكِ ، فَأنْتِ لا تَسْتَطيعينَ السَّفَرَ طَوالَ الطَّريقِ إلى كمبرلاند في يَوْمٍ واحِدٍ . ثُمَّ إنَّها رَغْبَةُ عَمِّكِ . اُنْظُري ، ها هُوَ ذا خِطابُهُ .»

وَنَظَرَتْ ليدي غلايد إلى الخِطابِ لَحْظَةً ، ثُمَّ ناوَلَتْني إيّاهُ .

وَقالَتْ في وَهَنٍ : « اِقْرَئيهِ . لا أعْرِفُ ماذا حَدَثَ لي. لا أسْتَطيعُ أنْ أقْرَأهُ بِنَفْسي .»

كانَ – إنْ لَمْ تَكُنْ ذاكِرَتي قَدْ خانَتْني – كَما يَلي :

« عَزيزَتي لورا – أرْجو أنْ تَأْتي إلَيْنا في أيِّ وَقْتٍ تَشائينَ . خَفِّفي مِنْ مَتاعِبِ الرِّحْلَةِ بِالمَبيتِ في بَيْتِ عَمَّتِكِ . آسِفٌ لِمَرَضِ العَزيزَةِ ماريان . »

عَمُّكِ المُحِبُّ

فريدريك فيرلي

قالَتْ : « أَفْضَلُ ألا أذْهَبَ إلى هُناكَ . أفْضَلُ ألا أبيتَ اللَّيْلَ في لَنْدَن . أرْجوكَ ألا تَكْتُبَ إلى كونت فوسكو . أرْجوكَ لا تَكْتُبْ إلَيْهِ . »

كانَ سير بيرسيڤال لا يَزالُ عَصَبِيًّا ، فَعِنْدَما أخَذَ يَصُبُّ المَزيدَ مِنَ الشَّرابِ ، أراقَ بَعْضاً مِنْهُ عَلى المائِدَةِ .

وَسَأَلَ : « وَلِمَ لا ؟ في أيِّ مَكانٍ آخَرَ يُمْكِنُكِ المَبيتُ ؟ لا تُجادِلي في هَذا . لَقَدْ تَمَّ اتِّخاذُ اللّازِمِ . لا نَطْلُبُ مِنْكِ سِوى ما فَعَلَتْهُ الآنِسَةُ هالكوم قَبْلَكِ . »

« ماريان ؟ أتبيتُ ماريان في بَيْتِ كونت فوسكو ؟ »

« نَعَمْ ، في بَيْتِهِ ، وَعَلَيْكِ أنْ تَحْذي حَذْوَها ، وَتَفْعَلي ما يَطْلُبُهُ مِنْكِ عَمُّكِ . »

وَاسْتَمَرَّتْ تَتَوَسَّلُ إلَيْهِ ألا يَكْتُبَ لِلْكونت حَتّى هَبَّ واقِفاً وَقَدْ نَفِدَ

صَبْرُهُ ، وَتَرَكَ الغُرْفَةَ .

كُنْتُ أخْشى أنْ يَكونَ الشَّرابُ قَدْ لَعِبَ بِعَقْلِهِ ، فَأَخَذْتُها إلى الطّابَقِ العُلْوِيِّ ، وَحاوَلْتُ أنْ أشْرَحَ لَها سَبَبَ رَحيلِ السَّيِّدِ دوسن .

قالَتْ : « هَذا أسْوَأُ وَأسْوَأُ ! لَقَدْ كانَ الكونت يَعْرِفُ أنَّ السَّيِّدَ دوسن ما كانَ لِيُوافِقَ ، أبَداً ، على السَّماحِ بِسَفَرِ أخْتي ، فَتَشاجَرَ مَعَهُ حَتّى يَتَخَلَّصَ مِنْهُ . إنَّني أكْرَهُ هَذا الرَّجُلَ ، وَلَكِنْ عَلى الرَّغْمِ مِنْ خَوْفي وَكُرْهي ، يَجِبُ عَلَيَّ أنْ ألْحَقَ بِماريان حَتّى في بَيْتِهِ . »

وَذَكَرْتُ لَها أنَّها رُبَّما تَكونُ قَدْ سافَرَتْ إلى كمبرلاند .

قالَتْ : « يُؤْسِفُني أنْ أصَدِّقَ ذَلِكَ . وَلَكِنْ إنْ كانَتْ قَدْ ذَهَبَتْ ، فَسَأبيتُ بِبَيْتِ السَّيِّدَةِ ڤيزي . »

وَكَتَبَتْ إلى السَّيِّدَةِ ڤيزي . وَقُمْتُ بِنَفْسي بِإيداعِ الخِطابِ في صُندوقِ بَريدِ القَرْيَةِ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ . وَلَمْ نَرَ سير بيرسيڤال بَقِيَّةَ اليَوْمِ .

وَفي صَباحِ اليَوْمِ التّالي ، جاءَ لِيَقولَ إنَّهُ مُضْطَرٌّ لِلْخُروجِ قَبْلَ رَحيلِ ليدي غلايد . وَظَلَّ يَتَجَوَّلُ في قَلَقٍ في الغُرْفَةِ . لَمْ يَنْظُرْ إلَيْها وَلَوْ مَرَّةً واحِدَةً ، عَلى الرَّغْمِ مِنْ أنَّها كانَتْ تَرْمُقُهُ بِنَظَراتِها .

قالَتْ : « لَنْ أراكَ بَعْدَ اليَوْمِ . هَذا فِراقٌ بَيْنَنا ، رُبَّما لِلأَبَدِ . هَلا

حاوَلْتَ أنْ تَصْفَحَ عَنّي كَما أصْفَحُ عَنْكَ ؟»

وامْتَقَعَ وَجْهُهُ ، وَانْدَفَعَ نَحْوَ البابِ وَكَأنَّ وَداعَ زَوْجَتِهِ قَدْ دَفَعَ بِهِ دَفْعًا خارِجَ الغُرْفَةِ . وَسُرْعانَ ما ذَهَبْتُ مَعَ ليدي غلايد إلى المَحَطَّةِ ، وَ وَدَّعْتُها في عَرَبَتِها . وَانْطَلَقَتْ صَفّارَةُ القِطارِ ، فَلَوَّحَتْ بِيَدِها في حُزْنٍ ، ثُمَّ غابَتْ عَنْ ناظِرَيَّ .

الفَصْلُ الخامِسَ عَشَر

وَفي تِلْكَ اللَّيْلَةِ ، بَيْنَما كُنْتُ أتَمَشّى في الحَديقَةِ ، تَلَقَّيْتُ صَدْمَةً عَنيفَةً ؛ فَقَدْ رَأيْتُ السَّيِّدَةَ ريوبل وَهِيَ تَجْمَعُ ، في هُدوءٍ ، بَعْضَ الأزْهارِ . وَتَسَمَّرْتُ في مَكاني وَلَمْ أسْتَطِعِ الكَلامَ ، وَلكِنَّها ظَلَّتْ عَلى هُدوئِها كَعَهْدِها دائِمًا أبَدًا .

سَألَتْني في رِقَّةٍ : « ماذا جَرى ، يا سَيِّدَتي ؟»

هَمَسْتُ قائِلَةً : « أنْتِ هُنا ! لَمْ تُسافِري إلى لَنْدَن ؟ لَمْ تُسافِري إلى كمبرلاند ؟»

وَتَنَسَّمَتْ عَبيرَ الأزْهارِ بِابْتِسامَةٍ مُشْفِقَةٍ ، ثُمَّ قالَتْ :« لا ، بِالتَّأكيدِ . لَمْ أُغادِرْ بلاكووتر بارك قَطُّ .»

سَألْتُها : « أيْنَ الآنِسَةُ هالكوم ؟»

« الآنِسَةُ هالكوم ، هِيَ الأُخْرى ، لَمْ تُغادِرْ بلاكووتر بارك .»

ما إنْ سَمِعْتُ هَذِهِ الإجابَةَ المُريعَةَ حتّى فَكَّرْتُ في ليدي غلايد. فَكَّرْتُ في صِحَّتِها الواهِنَةِ ، وَارْتَجَفْتُ عِنْدَما خطَرَ بِبالي لَحْظَةً أنْ تَكْتَشِفَ الحَقيقَةَ . وأبْقَتْني مَخاوِفي على المِسْكينَتَيْنِ صامِتَةً هُنَيْهَةً ، ثُمَّ رَأيْتُ سير بيرسيڤال وَهُوَ يَسيرُ نَحْوَنا وَيَضْحَكُ لِرُؤْيَةِ وَجْهي وَقَدْ عَلَتْهُ أماراتُ الصَّدْمَةِ .

قالَ : « حَسَنًا ، يا سَيِّدَةُ ميتشلسن . لَقَدِ اكْتَشَفْتِ الأمْرَ ؛ أ لَيْسَ كَذَلِكِ ؟»

لَمْ أحِرْ جَوابًا ، فَالْتَفَتَ إلى السَّيِّدَةِ ريوبل سائِلاً : « مَتى جِئْتِ إلى الحَديقَةِ ؟»

« مُنْذُ نِصْفِ ساعَةٍ تَقْريبًا ، يا سَيِّدي . لَقَدْ قُلْتَ لي إنَّني أسْتَطيعُ أنْ أفْعَلَ ذَلِكَ بِمُجَرَّدِ سَفَرِ ليدي غلايد .»

«هَذا صَحيحٌ . لا لَوْمَ عَلَيْكِ .» ثُمَّ تَحَدَّثَ إلَيَّ ثانِيَةً قائِلاً: «طَبْعًا لا تَسْتَطيعينَ أنْ تُصَدِّقي ذَلِكِ . أ لَيْسَ كَذَلِكِ ؟ تَعالَيْ وَانْظُري بِنَفْسِكِ .» وَتَقَدَّمَ مِنّي وَأشارَ إلى الجُزْءِ القَديمِ المَهْجورِ مِنَ البَيْتِ ، وَقالَ : « إنَّها هُنا ! اُنْظُري . الآنِسَةُ هالكوم في إحْدى تِلْكَ الغُرَفِ. أدْخِلي السَّيِّدَةَ ميتشلسن ، يا سَيِّدَةَ ريوبل. أدْخِليها لِتَراها بِعَيْنَيْها .»

كُنْتُ قَدْ أفَقْتُ مِنْ دَهْشَتي في تِلْكَ اللَّحْظَةِ ، فَالْتَفَتُّ إلَيْهِ ،

وَأبْدَيْتُ لَهُ رَغْبَتي في أنْ أتْرُكَ خِدْمَتَهُ . وَحَدَجَني بِنَظْرَةٍ شَرِسَةٍ ، وَسَألَ عَنِ السَّبَبِ.

قُلْتُ : « وَضْعي لا يَسْمَحُ لي بِأنْ أبْدِيَ رَأيي فيما حَدَثَ في هَذا البَيْتِ . أنا لا أقولُ سِوى إنَّني لا أرْغَبُ في البَقاءِ بِخِدْمَتِكَ .»

قالَ : « فَهِمْتُ . لَقَدْ كَوَّنْتِ فِكْرَتَكِ عَنْ خُدْعَةٍ بَريئَةٍ مِئَةً في المِئَةِ احْتَلْنا بِها عَلى ليدي غلايد لِصالِحِها . كانَتْ صِحَّتُها تَتَطَلَّبُ تَغْييرَ جَوٍّ ، وَأنْتِ ، مِثْلي ، تَعْرِفينَ أنَّها ما كانَتْ لِتَرْحَلَ لَوْ أنَّها عَرَفَتْ أنَّ الآنِسَةَ هالكوم لا تَزالُ هُنا . وَلَكِنِ اذْهَبي إنْ شِئْتِ ؛ فَثَمَّةَ كَثيرٌ مِنْ مُدَبِّراتِ المَنازِلِ . وَلَكِنْ إيّاكِ أنْ تَقولي كَلِمَةً واحِدَةً ضِدّي بَعْدَ رَحيلِكِ .»

وَلَمْ يُؤَثِّرْ شَيْءٌ مِمّا قالَهُ في رَأيي عَنِ الأكاذيبِ المُخْزِيَةِ الَّتي قيلَتْ أمامي ، وَالَّتي فَرَّقَتْ بَيْنَ ليدي غلايد وَأخْتِها . وَعادَ يَقولُ بِأنَّني أسْتَطيعُ أنْ أرْحَلَ وَقْتَما أشاءُ ، وَإنَّهُ هُوَ نَفْسَهُ سَيُغادِرُ البَيْتَ في اليَوْمِ التّالي ، ثُمَّ أضافَ قائِلاً : « السَّيِّدَةُ ريوبل سَتَرْحَلُ اللَّيْلَةَ ، وَإذا رَحَلْتِ الآنَ ، فَلَنْ يَكونَ مَعَ الآنِسَةِ هالكوم أحَدٌ يَرْعاها .»

أرْجو ألا يَكونَ مِنَ الضَّروريِّ أنْ أقولَ إنَّهُ لَمْ يَكُنْ بِوُسْعي أنْ أتْرُكَ الآنِسَةَ هالكوم المِسْكينَةَ بِمُفْرَدِها في ضَعْفِها . وَ وافَقْتُ عَلى

البَقاءِ بَعْدَ أنْ وَجَدْتُ أنّني أسْتَطيعُ أنْ أسْتَدْعِيَ السَّيِّدَ دوسن حَتّى تَنْتَهِيَ حاجَةُ الآنِسَةِ هالكوم إلى خِدْماتِهِ . وَناقَشْنا الأمْرَ بِاقْتِضابٍ . وَعِنْدَما انْتَهَيْنا مِنْ ذَلِكَ ، اسْتَدارَ سير بيرسيڤال على عَقِبَيْهِ بِحِدَّةٍ وَانْصَرَفَ .

وَأخْبَرَتْني السَّيِّدَةُ ريوبل أنّها سَتَرْحَلُ في خِلالِ ساعَةٍ ، وَدَلَّتْني إلى بابِ غُرْفَةِ الآنِسَةِ هالكوم وَهِيَ تُناوِلُني المِفْتاحَ ، ثُمَّ انْصَرَفَتْ . إنّني أقولُ بِكُلِّ الشُّكْرِ وَالامْتِنانِ أنَّ تِلْكَ كانَتْ آخِرَ مَرَّةٍ أرى فيها تِلْكَ المَرْأةَ .

وَ وَجَدْتُ الآنِسَةَ هالكوم نائِمَةً ، وَنَظَرْتُ إلَيْها في قَلَقٍ . لم تَكُنْ أسْوَأَ حالاً مِمّا كانَتْ عَلَيْهِ عِنْدَما رَأيْتُها آخِرَ مَرَّةٍ ، وَلَكِنَّ الغُرْفَةَ كانَتْ موحِشَةً وَمُظْلِمَةً ، بَيْدَ أنَّ النّافِذَةَ كانَتْ مَفْتوحَةً كَيْ تَسْمَحَ بِدُخولِ الهَواءِ النَّقِيِّ . وَكانَ كُلُّ شَيْءٍ لِتَوْفيرِ الرّاحَةِ لِلْمَريضَةِ مَوْجوداً .

وَتَرَكْتُها نائِمَةً ، وَذَهَبْتُ في هُدوءٍ لإعْطاءِ التَّعْليماتِ إلى البُسْتانِيِّ بِخُصوصِ اسْتِدْعاءِ الطَّبيبِ . كُنْتُ أعْرِفُ أنَّهُ سَيَجيءُ إرْضاءً لي ، وَأنَّهُ سَيَقْبَلُ البَقاءَ عِنْدَما يَجِدُ أنَّ الكونت لَمْ يَعُدْ مَوْجوداً في البَيْتِ .

وَأرْسَلَ إلَيَّ يَقولُ إنَّهُ لَمْ يَكُنْ هُوَ نَفْسُهُ ، بِخَيْرٍ ، وَلَكِنَّهُ سَيَأتي ،

إنْ أمْكَنَ ، صَباحَ اليَوْمِ التّالي . وَطَلَبْتُ مِنَ البُسْتانِيِّ أنْ يَسْهَرَ في تِلْكَ اللَّيْلَةِ في إحْدى الغُرَفِ المُجاوِرَةِ ؛ حَتّى يَكونَ قَريباً مِنّي إنِ احْتَجْتُ إلَيْهِ . وَ وافَقَ مُرَحِّباً بِهَذِهِ الفِكْرَةِ ، وَجاءَ بَيْنَ الثّامِنَةِ وَالتّاسِعَةِ مَساءً . وَكُنْتُ مَسْرورَةً إذْ فَعَلْتُ ذَلِكَ ، فَقَدْ ثارَتْ ، بَعْدَ ذَلِكَ – فَجْأةً – ضَوْضاءُ مُريعَةٌ في الحَديقَةِ هَزَّتْ سُكونَ اللَّيْلِ . وَسَمِعْتُ سير بيرسيڤال يَصيحُ بِغَضَبٍ في الجُزْءِ الجَديدِ مِنَ البَيْتِ . وَجَرى البُسْتانِيُّ لِيَسْتَطْلِعَ الأمْرَ ، وَعِنْدَما عادَ أخْبَرَني أنَّهُ وَجَدَ سَيِّدَهُ في حالَةٍ مُخيفَةٍ ، وَهُوَ يَصيحُ بِأعْلى صَوْتِهِ بِعَصَبِيَّةٍ عَنيفَةٍ . صاحَ أنَّهُ لَنْ يَبْقى لَحْظَةً أخْرى في سِجْنٍ مِثْلِ بَيْتِهِ ، وَأمَرَ البُسْتانِيَّ بِأنْ يَأتِيَهُ بِالمَرْكَبَةِ فَوْراً ، وَقَفَزَ سير بيرسڤال إلَيْها ، وَانْهالَ عَلى الحِصانِ بِالسَّوْطِ بِقَسْوَةٍ ، وَانْطَلَقَ في ضَوْءِ القَمَرِ وَ وَجْهُهُ شاحِبٌ شُحوبَ المَوْتى .

وَفي اليَوْمِ التّالي ، أعيدَتِ المَرْكَبَةُ مِنْ نولزبيري – أقْرَبِ مَدينَةٍ لَنا ، أعادَها رَجُلٌ يَعْمَلُ بِالفُنْدُقِ هُناكَ . وَكانَ سير بيرسيڤال قَدْ تَوَقَّفَ عِنْدَ الفُنْدُقِ ، ثُمَّ رَحَلَ بَعْدَ ذَلِكَ بِالقِطارِ . وَلَمْ أسْمَعْ عَنْهُ ثانِيَةً قَطُّ ، وَلا أعْرِفُ إنْ كانَ مَوْجوداً الآنَ في إنْجِلْترا أوْ لا . وَلَمْ نَتَقابَلْ أنا وَهُوَ مُنْذُ أنِ انْطَلَقَ بِمَرْكَبَتِهِ كَمُجْرِمٍ هارِبٍ مِنْ بَيْتِهِ . وَآمُلُ ألا نَتَقابَلَ أبَداً .

ثُمَّ عَلِمْتُ أنَّ الآنِسَةَ هالكوم كانَتْ قَدْ نُقِلَتْ إلى الجُزْءِ المَهْجورِ مِنَ البَيْتِ وَأنا مُتَغَيِّبَةٌ في توركاي. وَبَعْدَ رَحيلِ جَميعِ الخَدَمِ بِاسْتِثْناءِ مارغريت بورتشر الَّتي كانَ هَمُّها الأوْحَدُ أنْ تَأْكُلَ وَتَشْرَبَ وَتَنامَ عِنْدَما تَفْرَغُ مِنْ عَمَلِها . لَنْ أصِفَ تَأْثيرَ خَبَرِ رَحيلِ ليدي غلايد عَلى الآنِسَةِ هالكوم أوِ الخَبَرِ الأسْوَأ الَّذي سُرْعانَ ما وَصَلَنا بَعْدَ ذَلِكَ. لَنْ أقولَ إلّا أنَّني لَمْ أتْرُكْها ألْبَتَّةَ حَتّى اسْتَرَدَّتْ عافِيَتَها ، وَأنَّ القِطارَ الَّذي رَحَلَتْ بِهِ مِنْ هَذا البَيْتِ المَشْئومِ هُوَ نَفْسُ القِطارِ الَّذي رَحَلْتُ بِهِ أنا أيْضاً . وَافْتَرَقْنا في حُزْنٍ في لَنْدَن ، وَأقَمْتُ مَعَ قَريبَةٍ لي هُناكَ . أمّا هِيَ فَقَدْ واصَلَتِ السَّفَرَ إلى عَمِّها السَّيِّدِ فيرلي في كمبرلاند .

لَمْ يَبْقَ أمامي سِوى شَيْئَيْنِ أقولُهُما : أوَّلُهُما أنَّني موقِنَةٌ مِنْ أنَّ الكونت كانَ بَريئاً مِثْلَما كانَ نَبيلاً ، مَهْما قيلَ عَنْ تَصَرُّفاتِهِ . وَثانيهُما ، أنَّني لا أتَذَكَّرُ تاريخَ مُغادَرَةِ ليدي غلايد لبلاكووتر بارك عَلى وَجْهِ الدِّقَّةِ . لَقَدْ فَعَلْتُ ما في وُسْعي كَيْ أتَذَكَّرَهُ ، وَلَكِنْ دونَ جَدْوى . كُلُّ ما أعْرِفُهُ أنْ كانَ ذَلِكَ في النِّصْفِ الأخيرِ مِنْ يوليه . كُنْتُ أتَمَنّى لَوْ أنَّني دَوَّنْتُ ذَلِكَ التّاريخَ حَتّى أتَذَكَّرَهُ كَما أتَذَكَّرُ وَجْهَ سَيِّدَتي المِسْكينَةِ ، وَهِيَ تَتَطَلَّعُ إلَيَّ في لَوْعَةٍ لِلْمَرَّةِ الأخيرَةِ مِنْ نافِذَةِ القِطارِ .

هيستر بينهورن ، طاهِيَةُ كونت فوسكو ، تُواصِلُ سَرْدَ الأحْداثِ ، مُدَوَّنَةً حَسَبَ أقوالِها

الفَصْلُ السّادِسَ عَشَر

يُؤْسِفُني أنْ أقولَ إنَّني لَمْ أتَعَلَّمِ القِراءَةَ وَالكِتابَةَ . كُنْتُ دائِماً امْرَأةً مُجِدَّةً في عَمَلي طيلَةَ حَياتي ، وَذاتَ سُمْعَةٍ طَيِّبَةٍ . أعْرِفُ أنَّهُ ذَنْبٌ كَبيرٌ أنْ أرْوِيَ كَذِباً ، لِذا سَأحْرِصُ عَلى ألا أكْذِبَ هُنا . سَأقولُ كُلَّ ما أعْرِفُهُ ، وَأرْجو مِنَ السَّيِّدِ الفاضِلِ الَّذي يَكْتُبُ أقْوالي هَذِهِ أنْ يُصَحِّحَ لُغَتي وَهُوَ يَكْتُبُها ، آخِذاً في الاعْتِبارِ أنَّني لَسْتُ مُتَعَلِّمَةً .

كُنْتُ أعْمَلُ طاهِيَةً في البَيْتِ رَقْمِ ٥ شارِعِ فورست بِحَيٍّ سانت جون وود بِلَنْدَن ، في خِدْمَةِ الكونت وَالكونتيسةِ فوسكو ، وَذَلِكَ عِنْدَما أتَتْ ليدي غلايد إلى البَيْتِ . وَكانَتْ سَيِّدَتي قَدْ ذَكَرَتْ أنَّها في حالَةٍ صِحِّيَّةٍ سَيِّئَةٍ ، لِذا كانَ عَلَيَّ أنْ أدَقِّقَ فيما أطْهُوهُ . مَعْذِرَةً أنْ أقولَ إنَّني لا أتَذَكَّرُ التّاريخَ ، فَأنا لا أعْلَمُ شَيْئاً عَنِ التَّواريخِ ، وَذاكِرَتي ضَعيفَةٌ . كُلُّ ما أعْرِفُهُ أنَّ ليدي غلايد جاءَتْ إلَيْنا في حالَةٍ أصابَتْنا جَميعاً بِالفَزَعِ ، فَما إنْ وَصَلَتْ حَتّى سَمِعْتُ وَقْعَ

أقْدام تُهَرْوِلُ في الطّابَقِ العُلْوِيِّ ، وَدُقَّ الجَرَسُ وَطَلَبَتْ سَيِّدَتي المُساعَدَةَ .

وَهُرِعْتُ إلَيْها ، وَهُناكَ رَأيْتُ اللّيدي راقِدَةً عَلى جَنْبِها في الفِراشِ و وَجْهُها شاحِبٌ عَلى نَحْوٍ مُخيفٍ ، وَانْدَفَعْتُ إلى الخارِجِ ؛ إذْ كُنْتُ أعْرِفُ المَنْطِقَةَ أكْثَرَ مِنْهُمْ ، لاسْتِدْعاءِ أقْرَبِ طَبيبٍ .

وَأرْقَدْنا السَّيِّدَةَ المِسْكينَةَ في فِراشِها ، وَفَحَصَها السَّيِّدُ جودريك ، ثُمَّ قالَ لَها : « هَذِهِ حالَةٌ خَطيرَةٌ جِدًّا . أعْتَقِدُ أنَّهُ عَلَيْكُمْ أنْ تَكْتُبوا إلى أقارِبِ ليدي غلايد في الحالِ .»

سَألْتُهُ : « أهُوَ مَرَضُ القَلْبِ ؟»

قالَ : « نَعَمْ ، وَمِنْ نَوْعٍ خَطيرٍ جِدًّا .»

وَأخْبَرَها بِرَأْيِهِ في الحالَةِ ، وَالّذي لَمْ أكُنْ مِنَ الذَّكاءِ لِفَهْمِهِ ، وَلَكِنَّني أعْرِفُ أنَّهُ أنْهى كَلامَهُ بِقَوْلِهِ إنَّهُ لَنْ تَسْتَطيعَ مُساعَدَتُهُ وَلا مُساعَدَةُ أيِّ طَبيبٍ آخَرَ في إنْقاذِ حَياتِها .

وَتَلَقَّتْ سَيِّدَتي هَذا الخَبَرَ في هُدوءٍ ، وَلَكِنَّ سَيِّدي ، وَكانَ رَجُلاً عَجوزاً ، بَديناً ضَخْماً ، بَدا مُضْطَرِباً لِلْغايَةِ ؛ راحَ يَذْرَعُ المَكانَ قائِلاً : «آهِ ! يا لَلْمِسْكينَةِ ليدي غلايد ! يا لَلْمِسْكينَةِ العَزيزَةِ ليدي غلايد !» كَما أخَذَ يَسْألُ الكَثيرَ مِنَ الأسْئِلَةِ أيْضاً .

وَفي اليَوْمِ التّالي جاءَ الطَّبيبُ وَمَعَهُ زَميلٌ لَهُ . وَعِنْدَما رَأياها نَظَرَ كُلٌّ مِنْهُما إلى الآخَرِ ثُمَّ هَزّا رَأْسَيْهِما . كانَتِ المِسْكينَةُ في غايَةِ الضَّعْفِ – بَقايا إنْسانٍ لا حَوْلَ لَهُ وَلا قُوَّةَ .

وَبَعْدَ أنْ طَلَبَ مِنّا الطَّبيبانِ أنْ نَدَعَها في هُدوءٍ ، انْصَرَفا وَلَكِنْ ما هِيَ إلّا فَتْرَةٌ وَجيزَةٌ حَتّى دُقَّ الجَرَسُ بِعُنْفٍ في حُجْرَةِ نَوْمِها . وَهَرْوَلَتْ سَيِّدَتي خارِجَها ، وَأمَرَتْني بِالذَّهابِ إلى الطَّبيبِ لأخْبِرَهُ أنَّ السَّيِّدَةَ قَدْ أُغْمِيَ عَلَيْها ، وَعِنْدَما رَآها تَجَهَّمَ وَجْهُهُ فَجْأةً . وَظَلَّتْ سَيِّدَتي تَنْتَظِرُ في قَلَقٍ .

قالَتْ : « ألَمْ تَمُتْ ؟»

أجابَ الطَّبيبُ بِهُدوءٍ شَديدٍ : « بَلى . ماتَتْ . كُنْتُ أخْشى أنْ يَحْدُثَ ذَلِكَ فَجْأةً .»

وَهَمَسَتْ إلى نَفْسِها: « ماتَتْ ! ماتَتْ فَجْأةً ! هَكَذا ماتَتْ بِهَذِهِ السُّرْعَةِ ! ماذا سَيَقولُ الكونت ؟ يَجِبُ أنْ أُهَيِّئَ الكونت لِهَذا الخَبَرِ . يَجِبُ أنْ أُهَيِّئَ الكونت بِمُنْتَهى الحَذَرِ .» وَهَبَطَتْ إلى الطّابَقِ الأرْضِيِّ .

قالَ لِيَ الطَّبيبُ : « سَيِّدُكِ رَجُلٌ أجْنَبِيٌّ . أيَعْرِفُ كَيْفَ يُسَجِّلُ حالَةَ وَفاةٍ ؟»

« لا أدْري ، يا سَيِّدي . أظُنُّهُ لا يَعْرِفُ .»

وَفكَّرَ هُنَيْهَةً ، ثُمَّ قالَ : « مِنْ فَضْلِكِ أخبِري الأسْرَةَ أنَّني سَأفْعَلُ ذَلِكَ .»

وَشَكَرْتُهُ ، وَتَرَكَني بِجوارِ ليدي غلايد حَتَى جاءَتِ امْرأةٌ لِتَجْهيزِ الجُثَّةِ لِلدَّفْنِ . كانَ اسْمُها جانيت جولد ، وَقَدْ قامَتْ بِعَمَلِها عَلى أكْمَلِ وَجْهٍ . وَأعَدَّتْ سَيِّدَتي تَرْتيباتِ الجِنازَةِ الَّتي لا بُدَّ أنَّها تَكَلَّفَتِ الكَثيرَ مِنَ المالِ . وَسَمِعْنا أنَّ زَوْجَ السَّيِّدَةِ كانَ مُسافِراً لِلْخارِجِ ، وَلَكِنَّ سَيِّدَتي ، بِصِفَتِها عَمَّتَها ، قَرَّرَتْ هِيَ وَأقارِبُها في الرّيفِ وَأظُنُّهُ ريفَ كمبرلاند -- أنْ تُدْفَنَ في نَفْسِ قَبْرِ أمِّها .

وَرَدّاً عَلى تِلْكَ الأسْئِلَةِ ، أوَدُّ أنْ أقولَ إنَّني لَمْ أرَ سَيِّدي يُعْطي ليدي غلايد أيَّ دَواءٍ بِنَفْسِهِ قَطُّ ، وإنَّهُ لَمْ يَكُنْ يَجْلِسُ إطْلاقاً بِمُفْرَدِهِ في الغُرْفَةِ مَعَها .

قُرِئَتْ عَلَيَّ تِلْكَ الأقْوالُ ، وَأُقِرُّ بِصِحَّتِها .

هيستر بينهورن

(بصمة)

قصة ولتر هارترايت

الفَصْلُ السّابِعَ عَشَر

في بِدايَةِ صَيْفِ عامِ ١٨٥٠ ، فارَقْتُ ، أنا وَمَنْ بَقِيَ مِنْ أصْدِقائِي عَلى قَيْدِ الحَياةِ ، غاباتِ أمْريكا الوُسْطى إلى إنْجلترا . رَكِبْنا سَفينَةً لَمْ تَسْتَطِعْ مُواجَهَةَ الأمْواجِ العاتِيَةِ فَغَرِقَت ، ولَكِنَّني أفْلَتُّ مِنَ المَوْتِ . وَكانَ هَذا هُوَ ثالِثُ إفْلاتٍ لي مِنَ المَوْتِ : المَوْتُ مِنَ الحُمّى ، وَالمَوْتُ عَلى يَدِ الهُنودِ ، والمَوْتُ غَرَقاً . تَخَطّاني هَذا كُلُّهُ . وَأخيراً وَصَلْتُ إلى بَلَدي عَلى مَتْنِ سَفينَةٍ أخرى . وَعِنْدَما وَصَلْتُ إلى ليڤربول في ١٣ أكتوبر ١٨٥٠ ، تَوَجَّهْتُ لِتَوِّي إلى لَنْدَن . كُنْتُ قَدْ غادَرْتُ إنْجلترا هَرَباً مِنْ مُسْتَقْبَلي ، وَهَأنَذا أعودُ لِمُواجَهَتِهِ كَما يَنْبَغي لِرَجُلٍ أنْ يُواجِهَهُ .

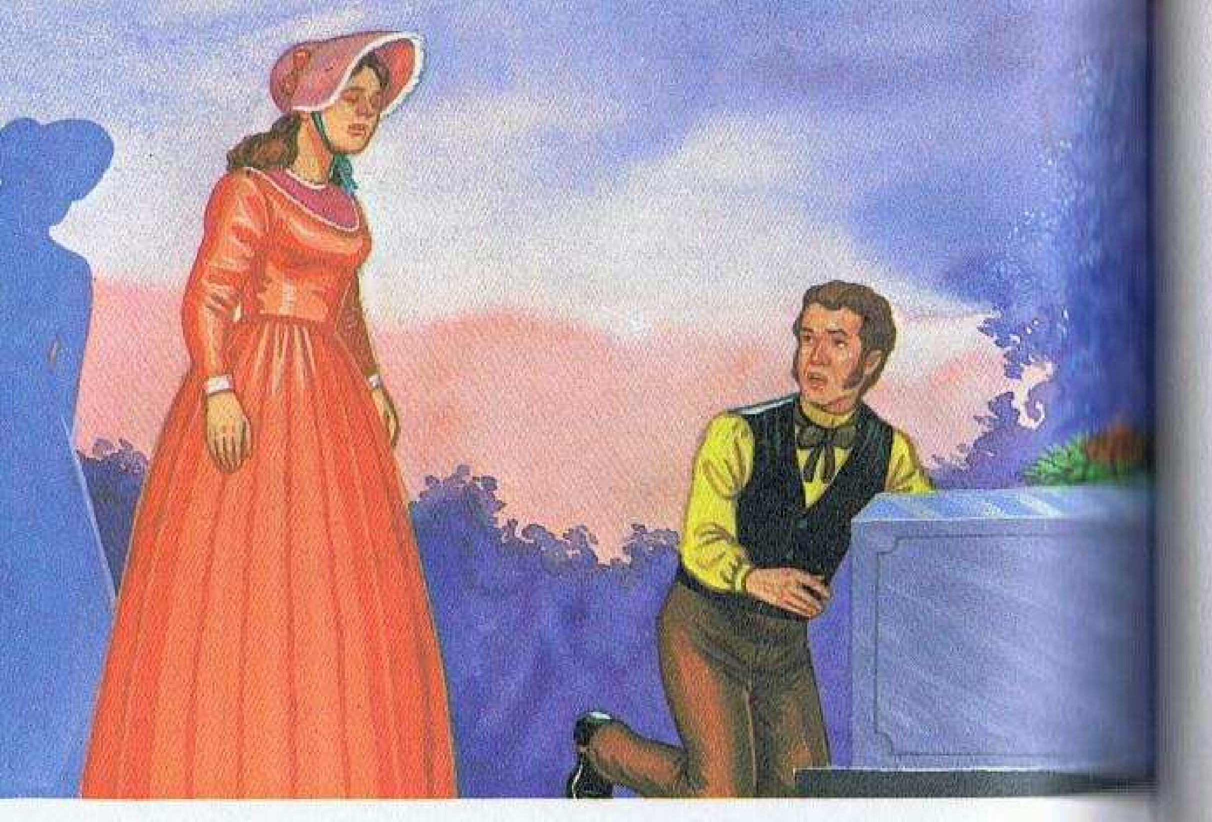
وَذَهَبْتُ لِرُؤْيَةِ أمّي وَأخْتي اللَّتَيْنِ أفْضَتا إلَيَّ بِخَبَرِ وَفاةِ لورا . وَبَذَلَتْ أمّي كُلَّ ما في وُسْعِها لِمُواساتي في فَجيعَتي . وَحاوَلَتْ أنْ

أتغلّبَ على تلكَ الصَّدْمَةِ ، ولكنْ دونَ جدْوى . وبقلْبٍ كسيرٍ ، ذَهبْتُ إلى كمبرلاند لزيارةِ قبْرِ لورا فيرلي . وتَركْتُ المحطَّةَ الصَّغيرَةَ وَمشيتُ في الطَّريقِ ، الَّذي كُنْتُ أتذكَّرُه جيِّداً ، تحْتَ شَمْسٍ غاربَةٍ . كانَ كُلُّ شَيْءٍ كَما هُوَ . وَنسيتُ مَخاطِرَ حياتي في الخارجِ وَتقلُّباتِها عِنْدَما نظرْتُ إلى القبْرِ بما نُقشَ عليْهِ مِنْ حُروفٍ سَوْداءَ حزينَةٍ :

في ذِكْرى لورا – ليدي غلايد ، زَوْجَةِ سير بيرسيڤال غلايد هامبشير – بلاكووتر بارك . ابْنةُ المرْحومِ السَّيِّدِ فيليب فيرلي – ليميريدج هاوس . المَوْلودَةُ في ٢٧ مارس ١٨٢٩ ، والمُتزوِّجَةُ في ٢٢ ديسمبر ١٨٤٩ ، والمُتوفَّاةُ في ٢٥ يوليه ١٨٥٠ .

وَجثَوْتُ أمامَ القبْرِ ، وَأسْنَدْتُ رأسي على شاهدِهِ الأبْيَضِ العَريضِ وأغْمَضْتُ عيْنَيَّ الكليلَتيْنِ ، واسْتَرْجَعْتُ ذِكْراها . أوّاهُ يا حَبيبَتي ! يا حَبيبَتي !

وَمرَّ الوقْتُ . وكانَ أوَّلُ صوْتٍ يَجيءُ إليَّ ، بَعْدَ أنْ غَمرَني سَلامٌ سَماوِيٌّ ، قَدِ انْسابَ فوْقَ عُشْبِ المَدافِنِ كَنَسْمَةِ هواءٍ ، سَمِعْتُهُ يَأتي بِالقُرْبِ مِنّي كَوَقْعِ أقْدامٍ تَمْضي إلى الأمامِ ، ثُمَّ تَوقَّفَ الصَّوْتُ .



نَظَرْتُ أمامي فإذا بي أرى امْرأتَيْنِ تَنْظُرانِ نحْوَ القَبْرِ ثُمَّ تَنْظُرانِ نَحْوي ، وَرَفعتْ إحْداهُما نِقابَها . وفي ضَوْءِ المَساءِ الهادِئِ رَأيْتُ وَجْهَ ماريان هالكوم .

كانَ مُتغيِّراً ، وَكأنَّ السِّنين قَدْ وَطِئَتْهُ بِلا شَفَقَةٍ وَلا رَحْمَةٍ ، وَغيَّرَهُ الألَمُ وَالخَوْفُ والأسى .

وَأقْبلَتِ المَرْأةُ الأخرى في صَمْتٍ وَبُطْءٍ ، وَ وَقفَتْ على جانِبِ القَبْرِ . كُنّا نَقِفُ وَشاهِدُ القبْرِ بيْننا .

وَرَفَعتِ المَرْأةُ نِقابَها .

يا لَهَوْلِ المُفاجَأةِ ! ماذا أرى ؟! لَقَدْ كانَتْ لورا – ليدي غلايد! وَكانَتْ تَقِفُ بِجِوارِ القَبرِ تَنْظُرُ إليَّ مِنْ فَوْقِهِ .

يَجِبُ أنْ أجْتازَ الأسْبوعَ القادِمَ في صَمْتٍ . إنَّني أشْعُرُ بِانْقِباضٍ مَقيتٍ عِنْدَما أفكِّرُ فيما حَدَثَ ، وَلَكِنْ عَلَيَّ ألا أضْعُفَ أوْ أهِنَ . عَلَيَّ أنْ أكونَ هادِئًا رائِقَ البالِ كَيْ أرْوِيَ بَقِيَّةَ هَذِهِ الحِكايَةِ كَثيرَةِ المُنْعَطَفاتِ وَالتَّعاريجِ .

تَغَيَّرَتْ حَياتي فَجْأةً . تَحَوَّلَ هَدَفي في الحَياةِ كُلِّها مُتَّخِذًا مَسارًا جَديدًا . اصْطَحَبْتُ لورا وَماريان لِنَعيشَ في حَيٍّ فَقيرٍ في لَنْدَن يَتَعَذَّرُ فيهِ العُثورُ عَلَيْنا ، وَغَيَّرنا أسْماءَنا فَعَرَفَهُما النّاسُ بِأنَّهُما أخْتانِ لي . وَاسْتَأجَرْتُ طابَقَيْنِ فَوْقَ مَحَلٍّ تِجارِيٍّ ، وَأقَمْتُ في الطّابَقِ العُلْوِيِّ وَكانَ بِهِ غُرْفَةٌ لِعَمَلي وَغُرْفَةٌ لِنَوْمي . وَأقامَتِ الأخْتانِ في الطّابَقِ السُّفْلِيِّ. كُنْتُ أحْصُلُ عَلى قوتِنا بِمُمارَسَةِ الرَّسْمِ ، وَكانَتْ ماريان تَقومُ بِعَمَلِ المَنْزِلِ . وكانَتْ ليدي غلايد في نَظَرِ القانونِ مُتَوَفّاةً ، وَلَكِنَّها كانَتْ حَيَّةً تُرْزَقُ : امْرَأةٌ فَقيرَةٌ تَعيشُ مُخْتَبِئَةً مَعَ مُدَرِّسِ رَسْمٍ فَقيرٍ كَيْ يُحارِبَ مَعْرَكَتَها ، وَكَيْ يُعيدَها إلى وَضْعِها الحَقيقِيِّ في الحَياةِ . أخْبَرَتْني أنَّ أعْداءَنا حاوَلوا أنْ يُنْسوها كُلَّ شَيْءٍ ، وَلَكِنَّها تَذَكَّرَتْني أنا وَماريان . تَذَكَّرَتْني أنا ! لَقَدْ أنْقَذَني القَدَرُ مِنَ المُتَوَحِّشينَ وَالغاباتِ وَالبَحْرِ ، وَها هِيَ الآنَ فَتاتي لأعولَها ، فَتاتي

لأحْمِيَها ، فَتاتي لأحِبَّها .

وَأخْبَرَتْني ماريان عَنِ التَّجارِبِ الَّتي مَرَّتْ بِها مُؤَخَّرًا . لَقَدْ أعْجَزَها نَبَأُ وَفاةِ لورا عَنِ السَّفَرِ لِمُدَّةِ ثَلاثَةِ الأسابيعِ التّالِيَةِ . وَعِنْدَما وَصَلَتْ إلى لَنْدَن كانَ يُساوِرُها شَكٌّ كَبيرٌ في طَريقَةِ مَوْتِ أخْتِها حَتّى إنَّها سَألَتِ السَّيِّدَ كايل المُحامِيَ أنْ يَتَحَرّى الأمْرَ ، وَلَكِنَّ جُهودَهُ ذَهَبَتْ أدْراجَ الرِّياحِ ، فَشَكٌّ في أنْ تَكونَ صَدْمَةُ الأحْداثِ قَدْ أثَّرَتْ عَلى عَقْلِ الآنِسَةِ هالكوم .

وَعادَتْ إلى ليميريدج حَيْثُ دُفِنَ الجُثْمانُ في ٣٠ يوليه . وَشَيَّعَ كونت فوسكو الجِنازَةَ ، وَأقامَ بِليميريدج هاوس ، وَلَكِنَّهُ لَمْ يَرَ السَّيِّدَ فيرلي شَخْصِيًّا ، بَلْ بَعَثَ إلَيْهِ بِرِسالَةٍ يُبَيِّنُ فيها تَفاصيلَ الوَفاةِ . كَما جاءَ بِالرِّسالَةِ أيْضًا أنَّ آن كاثيريك قَدْ تَمَّ العُثورُ عَلَيْها ، وَأنَّها أعيدَتْ إلى مُسْتَشْفى الأمْراضِ العَقْلِيَّةِ ، وَأنَّها تَتَخَيَّلُ نَفْسَها ليدي غلايد – دَليلٌ آخَرُ عَلى اخْتِلالِ قُواها العَقْلِيَّةِ . وَكانَتْ ماريان قَدِ اطَّلَعَتْ عَلى هَذِهِ الرِّسالَةِ ، وَسَلَّمَتْ لَها كُلَّ مَلابِسِ ليدي غلايد وَمُقْتَنَياتِها الشَّخْصِيَّةِ .

وَلَكِنَّ شُكوكَها ظَلَّتْ تُساوِرُها ، فَقامَتْ بِالمَزيدِ مِنَ التَّحَرِّياتِ ، وَلَكِنَّها لَمْ تَكْتَشِفْ سِوى شَيْءٍ واحِدٍ – أنَّ سير بيرسيفال كانَ يَعيشُ في باريس ، فَقَرَّرَتْ ، بَعْدَئِذٍ ، أنْ تَزورَ مُسْتَشْفى الأمْراضِ العَقْلِيَّةِ ،

وَهُناكَ قابَلَتْ أُخْتَها لورا وَتَذَكَّرَتْها .

وَعلى الرَّغْمِ مِنْ صَدْمَةِ اللِّقاءِ وَما واجَهَتْهُ مِنْ صُعوباتٍ ، فَقَدْ صَمَّمَتْ ، لِتَوِّها ، على أَنْ تُطْلِقَ سَراحَها . كانَتْ تَحْتَفِظُ بِسَبْعِمِئَةِ جُنَيْهٍ في المَصْرِفِ ، فَعَرَضَتْ على المُمَرِّضَةِ أَرْبَعَمِئَةِ جُنَيْهٍ إِنْ هِيَ أَطْلَقَتْ سَراحَ لورا خارِجَ أَسْوارِ المُسْتَشْفى. وَنُفِّذَتِ الخُطَّةُ ، وَتَسَلَّمَتِ المُمَرِّضَةُ النُّقودَ ، وَهَرَّبَتْ لورا سِرًّا – وَسافَرَتْ الاثْنَتانِ إِلى ليميريدج بِالقِطارِ . وَخِلالَ الشَّوْطِ الثّاني مِنْ سَفْرَتِهِما ، تَمَكَّنَتْ ماريان مِنْ جَمْعِ بَعْضِ مَعْلوماتٍ عَنِ الحيلَةِ البَشِعَةِ الَّتي تَمَّ بِها خِداعُ أُخْتِها ، وَكانَتْ رِوايَةُ ما حَدَثَ مُضْطَرِبَةً مُشَوَّشَةً بِسَبَبِ ما انْتابَ عَقْلَ لورا الَّذي جَرى إِضْعافُهُ . وَلكِنْ ما تَذَكَّرَتْهُ كانَ كَما يَلي :

عِنْدَما وَصَلَتْ إِلى لَنْدَن مِنْ بلاكووتر بارك ، قابَلَها الكونت ، وَأَخَذَتْ إِلى بَيْتٍ مَجْهولٍ حَيْثُ أُغْمِيَ عَلَيْها بَعْدَ شُرْبِ قَدَحٍ مِنَ الماءِ . ثُمَّ نُقِلَتْ إِلى مَبْنًى كَبيرٍ لا بُدَّ أَنَّهُ كانَ مُسْتَشْفى الأَمْراضِ العَقْلِيَّةِ . وَهُنا ، وَلِأَوَّلِ مَرَّةٍ ، سَمِعَتْهُمْ يُنادونَها بِاسْمِ آن كاثيريك . وَهُنا أَيْضًا ، أَخْبَرَتْها عَيْناها أَنَّها كانَتْ تَلْبَسُ مَلابِسَ آن كاثيريك . وَعِنْدَما أَخْبَرَتْهُمْ مَنْ هِيَ ، غَضِبَتِ المُمَرِّضَةُ ، وَأَرَتْها الاسْمَ عَلى مَلابِسِها ، وَنَصَحَتْها أَلا تَكونَ حَمْقاءَ . كانَ هذا هُوَ كُلَّ ما

اسْتَطاعَتْ أَنْ تَتَذَكَّرَهُ في ذَلِكَ الحينِ . وَلَمْ تُلِحَّ عَلَيْها ماريان أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ؛ خَشْيَةَ إِزْعاجِها وَهِيَ في حالَتِها الواهِيَةِ .

وَعِنْدَما وَصَلا إِلى ليميريدج هاوس . ذَهَبَتْ ماريان إِلى عَمِّها ، بَلْ وَأَدْخَلَتْ أُخْتَها في غُرْفَتِهِ كَيْ يَراها وَإِنْ كانَ ذَلِكَ ضِدَّ رَغْبَتِهِ . وَرَفَضَ أَنْ يَتَعَرَّفَ عَلَيْها . قالَ إِنَّ ابْنَةَ أَخيهِ ماتَتْ وَدُفِنَتْ ، وَإِنَّ تِلْكَ الفَتاةَ آن كاثيريك كانَتْ تَقومُ بِإِحْدى حِيَلِها المَجْنونَةِ . حَتّى الخَدَمُ – وَكانوا يَظُنّونَ أَنَّهُمْ شَهِدُوا دَفْنَها – لَمْ يُمْكِنْ إِقْناعُهُمْ بِالتَّعَرُّفِ عَلَيْها . وَهَدَّدَ السَّيِّدُ فيرلي بِاسْتِدْعاءِ الشُّرْطَةِ إِنْ لَمْ تَبْتَعِدْ فَوْرًا عَنِ البَيْتِ . لا بُدَّ لَنا أَنْ نَتَذَكَّرَ أَنَّ مَظْهَرَ لورا كانَ قَدْ تَغَيَّرَ كَثيرًا بِإِقامَتِها في مُسْتَشْفى الأَمْراضِ العَقْلِيَّةِ ، وَبِفِعْلِ المَتاعِبِ المُريعَةِ الَّتي واجَهَتْها .

كانَ مِنَ الواضِحِ في تِلْكَ الظُّروفِ أَنَّهُ يَتَعَيَّنُ عَلى الأُخْتَيْنِ أَنْ يُغادِرا ليميريدج في الحالِ ، قَبْلَ أَنْ يَنْطَلِقَ بَعْضُ العامِلينَ بِالمُسْتَشْفى لِلْبَحْثِ عَنْ لورا . وَاسْتَقَرَّ رَأْيُ ماريان عَلى أَنْ تَصْطَحِبَها إِلى لَنْدَن لِصُعوبَةِ العُثورِ عَلَيْهِما في تِلْكَ المَدينَةِ الكَبيرَةِ . وَلكِنْ عِنْدَما كانا في طَريقِهِما إِلى المَحَطَّةِ صَمَّمَتْ لورا عَلى أَنْ تُلْقِيَ نَظْرَةً أُخْرى عَلى قَبْرِ أُمِّها ، وَعَلى الرَّغْمِ مِنِ اعْتِراضِ ماريان ، اتَّجَها نَحْوَهُ .

وَهكَذا كانَتْ يَدُ القَدَرِ هِيَ الَّتي وَجَّهَتْ مَسارَهُما ، وَكانَتْ هِيَ الَّتي أعادَتْهُما إلَيَّ .

هَذِهِ هِيَ حِكايَةُ الماضي الَّتي عَرَفْناها إلى هَذا المَدى ، وَقْتَذاكَ . ثُمَّ عَلِمْتُ كَيْفَ نُفِّذَتْ جَريمَةٌ بَشِعَةٌ بِاسْتِغْلالِ الشَّبَهِ بَيْنَ الشّابَّتَيْنِ ؛ فَقَدْ جِيءَ بِآن كاثيريك إلى بَيْتِ الكونت فوسكو عَلى أنَّها ليدي غلايد ، عَلى حينَ أَخَذَتْ لورا مَكانَ الفَتاةِ المُتَوَفّاةِ ، في مُسْتَشْفى الأَمْراضِ العَقْلِيَّةِ . وَكانَ مِنَ الواضِحِ ، أَنَّنا لَنْ نَتَوَقَّعَ شَفَقَةً وَلا رَحْمَةً مِنَ الكونت أَوْ سير بيرسيڤال ، فَقَدْ جَلَبَ نَجاحُ خُطَّتِهِما لِلْكونت ثَرْوَةً مِقْدارُها عَشَرَةُ آلافِ جُنَيْهٍ ، وَلِسير بيرسيڤال عِشْرونَ أَلْفًا . كانا عَلى اسْتِعْدادٍ أَنْ يَفْعَلا أَيَّ شَيْءٍ لِلْحِفاظِ عَلى سِرِّهِما ، وَأَنْ يَبْذُلا كُلَّ ما في وُسْعِهِما لِلْعُثورِ عَلى لورا حينَ عَلِما بِهُروبِها.

كُنّا جَميعاً في خَطَرٍ ، وَكانَ هَذا هُوَ سَبَبَ اخْتِياري حَيًّا فَقيرًا مِنْ أَحْياءِ لَنْدَن لِنَسْكُنَ فيهِ ، فَالنّاسُ عِنْدَما يَعْمَلونَ بِجِدٍّ لِيَكْسِبُوا عَيْشَهُمْ ، لا يَكونُ لَدَيْهِمْ وَقْتٌ لِمُلاحَظَةِ الغُرَباءِ .

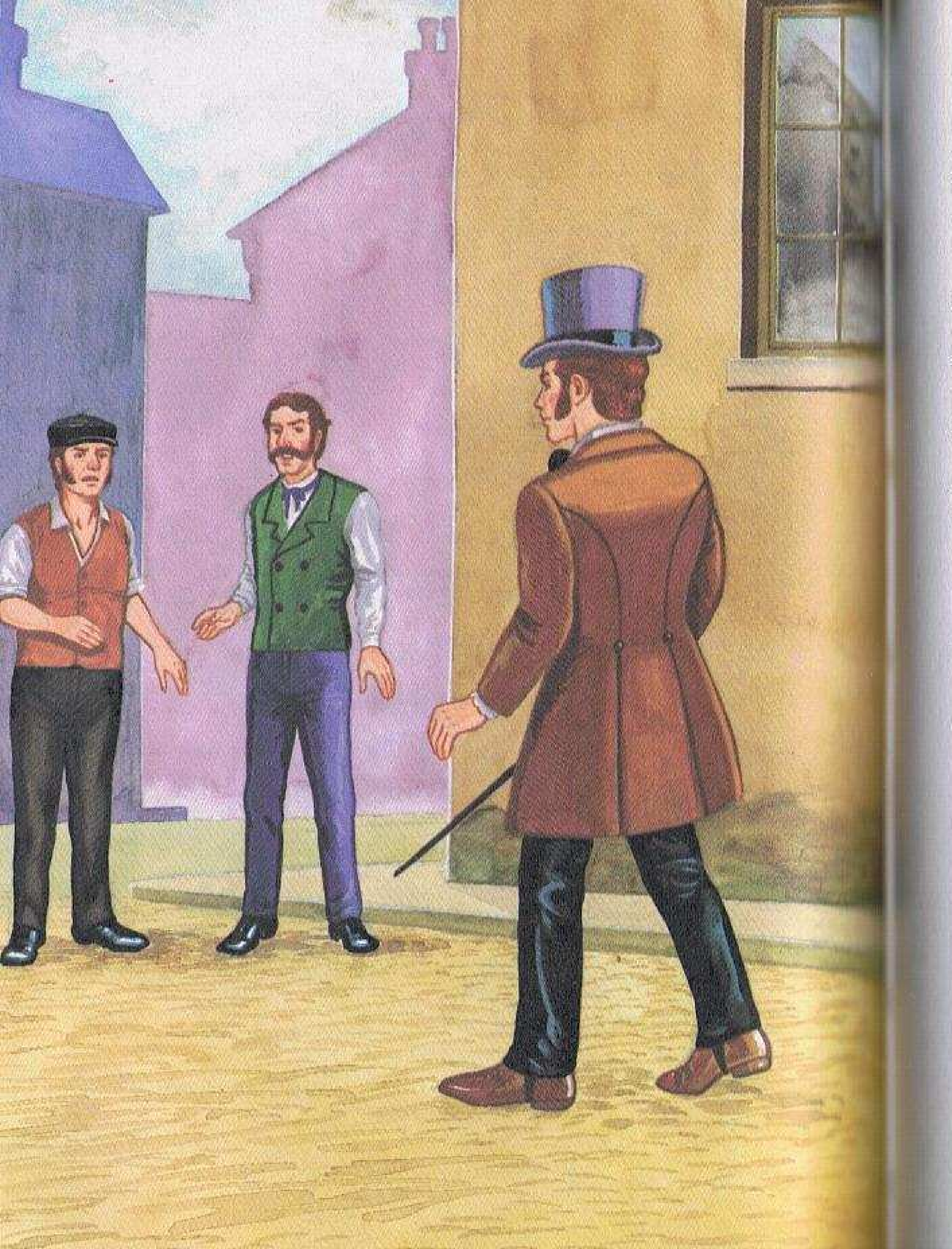
لَمْ تَكُنْ لورا وَأُخْتُها تَخْرُجانِ ، إطْلاقًا بِدوني ، وَما كانا لِيَسْمَحا لِأَحَدٍ أَنْ يَدْخُلَ غُرْفَتَيْهِما مَهْما كانَ السَّبَبُ . وَبِغَضِّ النَّظَرِ عَنِ المَبالِغِ الصَّغيرَةِ الَّتي كُنْتُ أَحْصُلُ عَلَيْها مِنْ عَمَلي اليَوْمِيِّ ، كانَ مَعي أَنا وَماريان ما يَقْرُبُ مِنْ أَرْبَعِمِئَةِ جُنَيْهٍ في البَنْكِ حاوَلْنا أَلا

نَمَسَّها ، فَقَدْ نَحْتاجُ إلَيْها في جُهودِنا لِإعادَةِ لورا إلى مَكانِها الطَّبيعِيِّ في الحَياةِ .

لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ فائِدَةٌ في الاعْتِمادِ عَلى التَّعَرُّفِ عَلَيْها ، أَوْ عَلى ذاكِرَتِها . كانَتْ بَعْدَ كُلِّ ما صادَفَتْهُ مِنْ أَهْوالٍ ، عاجِزَةً عَنْ وَصْفِ الأَحْداثِ الماضِيَةِ الَّتي كانَتْ كَفيلَةً بِأَنْ تُظْهِرَ مَنْ هِيَ ، فَكانَ عَلَيَّ أَنْ أَتَصَرَّفَ دونَ مَعونَتِها .

ذَهَبْتُ إلى السَّيِّدِ كايل لِأُخْبِرَهُ بِما كُنْتُ أَعْرِفُهُ ، وَأَطْلُبَ مَشورَتَهُ ، وَأَسْأَلَهُ عَمّا إذا كانَ ثَمَّةَ أَمَلٌ لَنا . وَعِنْدَ انْصِرافي مِنَ البَيْتِ حَرَصْتُ عَلى التَّأَكُّدِ مِنْ أَنْ لَيْسَ هُناكَ أَحَدٌ يُراقِبُني ، وَلَكِنَّني نَسيتُ أَنَّ سير بيرسيڤال سَيَتَوَقَّعُ مِنّي أَنْ أَذْهَبَ إلى مَكْتَبِ المُحامي ، وَأَنَّهُ سَيَبْعَثُ بِجَواسيسِهِ لِمُراقَبَتي . لَمْ أَتَذَكَّرْ ذَلِكَ إلّا عِنْدَما كانَتْ يَدي عَلى البابِ ، وَكانَ أَوانُ تَراجُعي قَدْ فاتَ . لَمْ أَجِدْ تَشْجيعًا كَبيرًا مِنَ السَّيِّدِ كايل ، بَلْ أَظُنُّ أَنَّهُ شَكَّ في صِحَّةِ اعْتِقادي ؛ فَقَدْ ناقَشَ النِّقاطَ مَعي ثُمَّ قالَ إنَّنا إذا لَجَأْنا لِلْقَضاءِ ، فَإنَّنا سَنَخْسَرُ قَضِيَّتَنا ، وَلَكِنَّهُ أَضافَ نُقْطَةً هامَّةً .

قالَ : « إنَّ أَبْسَطَ وَأَضْمَنَ الأَدِلَّةِ هُوَ المُقارَنَةُ بَيْنَ التَّواريخِ . إنْ كُنْتَ تَسْتَطيعُ أَنْ تُثْبِتَ أَنَّ الفَتاةَ الَّتي كانَتْ في بَيْتِ الكونت تُوُفِّيَتْ قَبْلَ أَنْ تُغادِرَ ليدي غلايد ليميريدج ، فَإنَّكَ تَكونُ في مَرْكَزٍ



قَوِيٌّ ، وَإنْ كُنْتُ أعْلَمُ أنَّكَ لَنْ تَسْتَطيعَ ذَلِكَ .»

قُلْتُ : « إنَّنا نَعْرِفُ مِنْ شَهادَةِ الطَّبيبِ مَتى حَدَثَتِ الوَفاةُ . أمّا التّاريخُ الآخَرُ فَقَدْ يُمْكِنُ التَّوصُّلُ إلَيْهِ فيما بَعْدُ .»

وَكُنْتُ قَدْ بَذَلْتُ قُصارى جَهْدي لأكْتَشِفَ ذَلِكَ التّاريخَ ، وَلكِنَّني أخْفَقْتُ في ذَلِكَ . لَمْ تَسْتَطِعْ مُدَبِّرَةُ البَيْتِ أنْ تُخْبِرَني بِهِ ، وَلَمْ تَسْتَطِعْ ماريان أوْ لورا أنْ تُساعِداني . رُبَّما كانَ الشَّخْصانِ الوَحيدانِ اللَّذانِ يَعْرِفانِ مَتى غادَرَتْ ليدي غلايد البَيْتَ هُما سير بيرسيڤال وَالكونت ، وَلكِنَّهُما ما كانا لِيُساعِدانا ما لَمْ أرْغِمْهُما عَلى ذَلِكَ .

وَعِنْدَما نَهَضْتُ لِلانْصِرافِ ، وَضَعَ السَّيِّدُ كايل في يَدي رِسالَةً مُوَجَّهَةً لِلآنِسَةِ هالكوم . وَ وَعَدْتُهُ بِأنْ أسَلِّمَها لَها ، ثُمَّ سَألْتُهُ إنْ كانَ سير بيرسيڤال لا يَزالُ في باريس .

قالَ السَّيِّدُ كايل : « لَقَدْ عادَ إلى لَنْدَن .»

وَخَرَجْتُ مِنْ عِنْدِهِ ، وَفي الشّارِعِ لاحَظْتُ رَجُلَيْنِ يَتَتَبَّعاني ، فاسْتَدَرْتُ فَجْأةً ، وَمَرَرْتُ مِنْ أمامِهِما وَأنا أنْظُرُ إلى وَجْهَيْهِما لَحْظَةَ اقْتِرابي مِنْهُما ، فَإذا بي أتَعَرَّفُ عَلى أحَدِهِما ، وَكانَ ذَلِكَ الرَّجُلَ الَّذي يُراقِبُني قَبْلَ أنْ أغادِرَ إنْجِلْترا . وَنَظَرْتُ مَلِيًّا إلى الرَّجُلِ الثّاني

حتّى أستطيعَ أنْ أتعرَّفَ عليْهِ ثانيَةً ، ثُمَّ قفزْتُ إلى عربَةٍ تصادَفَ مُرورُها ، وهكذا أفلَتُّ منْهُما . وعِنْدما تأكَّدْتُ تماماً أنَّهما قدْ فقدا أثَري ، عُدْتُ إلى البيْتِ وأعطَيْتُ ماريان الرِّسالَةَ ، ففتَحَتْها لِتوِّها . كانَتْ مِنَ الكونت :

« أكتُبُ إليْكِ ، يا ماريان الرّائِعَةُ ، لأقولَ لكِ كلِمَتَيْنِ :

لا تخافي شيْئاً . اِستَخْدمي فِطْنَتَكِ واستمرّي في عُزْلَتِكِ . اِقْبلي ما حدَثَ وانْعمي براحَتِكِ . إنْ فعَلْتِ هذا ، فلا خوْفَ عليْكِ ، ولَنْ يُلاحَقَ رفيقُكِ اللَّطيفُ . ولكِنْ أرْجوكِ ألا تَضْطَرّيني – أنا الرَّجُلَ العمَليَّ – إلى اتِّخاذِ عمَلٍ مُضادٍّ . إذا عادَ السَّيِّدُ هارترايت إلى إنْجلترا ، فلا تُحاولي رُؤْيَتَهُ . إنّني أسيرُ في طَريقي الخاصِّ ، وفي اليَوْمِ الّذي يَعتَرِضُ فيهِ هذا الطَّريقَ ، اِعتَبِريهِ رَجُلاً مفْقوداً .

ف.»

قالَتْ ماريان مُغْضَبَةً : « ولتر ، لَوْ حدَثَ و وقَعَ سير بيرسيڤال والكونت تحْتَ رحْمَتِكَ ، وكانَ عليْكَ أنْ تعفُوَ عنْ أحدِهِما فلا تَعْفُ عنِ الكونت . » ونظَرَتْ إليَّ وحدَّةُ طبْعِها القديمِ يَشعُّ في عيْنَيْها .

أجبْتُ : « سأحْتَفِظُ بِهذِهِ الرِّسالَةِ لِتُسْعِفَ ذاكِرَتي في الوقْتِ

المُناسِبِ . غداً سأبْدأ في التَّصرُّفِ مِنْ جانِبي . سأذْهَبُ إلى بلاكووتر . علَيْنا أنْ نفْعلَ كُلَّ ما نسْتَطيعُ لِمعْرِفةِ هذا التّاريخِ . لَقدِ استَقْبلَتْ لورا في مُسْتَشفى الأمْراضِ العقْليَّةِ في السّابعِ والعِشْرينَ مِنْ يُوليه ، ولا أظُنُّ أنَّ كونت فوسكو كانَ يسْتَطيعُ أنْ يُبْقيَها في لَنْدن سرًّا لأكْثَرَ مِنْ ليْلَةٍ واحِدَةٍ ؛ لِذا لا بُدَّ أنَّها بدأَتْ سفَرَها في السّادِسِ والعِشرينَ ، وتاريخُ وَفاتِها المُقيَّدُ في شهادَةِ الطَّبيبِ هُوَ الخامِسُ والعِشْرونَ . فإنِ استَطَعْنا أنْ نُثْبتَ أنَّها غادَرَتْ بلاكووتر بعْدَ التّاريخِ المُفترَضِ لِوفاتِها بِيَوْمٍ واحِدٍ ، فقدْ كسَبْنا القضيَّةَ .»

« حسَنٌ ، ولَكِنْ كيْفَ تسْتَطيعُ أنْ تحْصُلَ على الدَّليلِ ؟»

« سأسْألُ السَّيِّدَ دوسن متى رجَعَ إلى بلاكووتر ، حتّى يُساعِدَنا . لا بُدَّ لي أيْضاً ، أنْ أزورَ الفُنْدُقَ الّذي أقامَ فيهِ سير بيرسيڤال بَعْدَ أنِ انْطَلَقَ في جنونٍ بِمرْكَبَتِهِ في الظَّلامِ ، يوْمَ أنْ غادَرَتْ لورا ليميريدج فإنْ فَشِلَ هذانِ الاحتِمالانِ ، فسأتَّجِهُ ، بعْدَ ذلِكَ إلى سير بيرسيڤال والكونت . لا تنْسَيْ سِرَّ سير بيرسيڤال ، وسأحاوِلُ مِنْ جانِبي أنْ أعرِفَ ذلِكَ السِّرَّ .»

ولَمْ أجِدْ عوْناً مِنَ السَّيِّدِ دوسن لأنَّهُ ، بِسبَبِ مرَضِهِ ، لمْ يَذْهبْ فوراً إلى بلاكووتر حينَ بعَثَتِ السَّيِّدَةُ ميتشلسن في طَلَبِهِ . وكانَ الفُنْدُقُ ، عِنْدما ذهبْتُ إليْهِ ، مُغْلَقاً لِرحيلِ صاحِبِهِ . لمْ يكُنِ القدَرُ

فِي صَفّي . إذاً عَليّ أنْ أتّجِهَ إلى السرّ ، فَصَمّمْتُ ، بَعْدَ حَديثٍ
مَعَ ماريان ، عَلى أنْ أبْحَثَ عَنِ السَّيّدَةِ كليمنتس ، كَخُطْوَةٍ أولى ،
في هَذا الطَّريقِ الشّاقّ الوَعْرِ .

الفَصْلُ الثّامِنَ عشَر

بَعْدَ أنْ كَتَبْتُ إلى مَزْرَعَةِ تود في طَلَبِ عُنْوانِ السَّيّدَةِ
كليمنتس ، رَوَتْ لي ماريان النَّزْرَ اليَسيرَ الّذي كانَتْ تَعْرِفُهُ عَنْ
حَياةِ سير بيرسيڤال . قالَتْ إنّ أباهُ ، سير فيلكس غلايد كانَ دَميمَ
الخِلْقَةِ مُشوَّهاً ، وَإنّهُ لا هُوَ وَلا زَوْجَتُهُ كانا يَنْشُدانِ الأُلْفَةَ أوِ
الأصْدِقاءَ ، بَلْ كانا يَعيشانِ وَحْدَهُما ، وَسَرْعانَ ما سافَرا إلى
الخارِجِ . كانَ هَذا كُلّ ما تَعْرِفُهُ ، وَلكِنّني لَمْ أجِدْ فيهِ شَيْئاً يُفيدُني
كَثيراً .

وَعِنْدَما تَلَقّيْتُ العُنْوانَ مِنَ السَّيّدَةِ تود ، ذَهَبْتُ لِزِيارَةِ السَّيّدَةِ
كليمنتس ، الّتي سَألَتْني لِتَوّها إنْ كُنْتُ قَدِ اسْتَطَعْتُ أنْ أعْثُرَ على
آن كاثيريك ، فَأجَبْتُها بِأنّني أظُنّ أنّنا لَنْ نَراها أبَداً عَلى قَيْدِ الحَياةِ .
وَلكِنّني لَمْ أقُلْ كُلّ ما كُنْتُ أعْرِفُهُ .

وَاضْطَرَبَتِ المِسْكينَةُ اضْطِراباً شَديداً في بادِئِ الأمْرِ ، وَلَكِنَّها وافَقَتْ على أنْ تُخْبِرَني بِكُلِّ ما كُنْتُ أُريدُ مَعْرِفَتَهُ عِرْفاناً مِنْها بِما أَوْلَيْتُهُ مِنْ عَطْفٍ لآن فيما مَضى . قالَتْ إنَّهُما بَعْدَ رَحيلِهِما مِنْ ليميريدج ، ذَهَبَتا إلى لَنْدَن ، ثُمَّ إلى جرمزبي خَشْيَةَ أنْ يَعْثُرَ عَلَيْهِما رِجالُ المُسْتَشْفى إنْ هُما ذَهَبَتا إلى البَيْتِ ، وَفي جرمزبي وَقَعَتْ آن ، لأوَّلِ مَرَّةٍ ، فَريسَةَ مَرَضِ القَلْبِ . وَتَرَكَها المَرَضُ في حالَةِ ضَعْفٍ شَديدٍ ، وَلَكِنَّها ، عَلى الرَّغْمِ مِنْ ذَلِكَ ، قَرَّرَتْ أنْ تَعودَ إلى هامبشير لِرُؤْيَةِ ليدي غلايد . وَكانَتْ عَوْدَتُهُما إلى هُناكَ تُفَسِّرُ كَيْفِيَّةَ مَجيئِها إلى حَظيرَةِ القَوارِبِ وَرُؤْيَتِها لورا ، ذاتَ يَوْمٍ . وَلَكِنَّ المَرَضَ القَديمَ عاوَدَها ، فَاضْطُرَّتْ إلى مُلازَمَةِ الفِراشِ . ثُمَّ ذَهَبَتِ السَّيِّدَةُ كليمنتس لِلْبُحَيْرَةِ في اليَوْمِ التّالي لَعَلَّها تَجِدُ ليدي غلايد فَتُناشِدَها العَوْنَ ، وَلَكِنَّها لِسوءِ الحَظِّ ، قابَلَتْ كونت فوسكو بَدَلاً مِنْها ، فَأَخْبَرَها أنَّ ليدي غلايد كانَتْ تُريدُ مِنْ آن أنْ تَعودَ إلى لَنْدَن في الحالِ . وَعِنْدَما أَوْضَحَتْ لَهُ السَّيِّدَةُ كليمنتس أنَّ الفَتاةَ كانَتْ مَريضَةً ، ذَكَرَ أنَّهُ هُوَ نَفْسُهُ كانَ طَبيباً ، وَأَنَّهُ سَيَأْتي وَيَرى ما يُمْكِنُهُ عَمَلُهُ لِعِلاجِ المَريضَةِ .

وَأَعْطاها دَواءً مَنَحَها مِنَ القُوَّةِ ما مَكَّنَها مِنَ القِيامِ بِالسَّفْرَةِ المَطْلوبَةِ . وَذَهَبَتْ آن وَالسَّيِّدَةُ كليمنتس إلى لَنْدَن ،

وَاسْتَأْجَرَتا حُجْرَتَيْنِ لِسُكْناهُما ، وَأَرْسَلَتا عُنْوانَهُما إلى الكونت حَسَبَ طَلَبِهِ ؛ حَتّى تَسْتَطيعَ ليدي غلايد أنْ تَزورَ آن .

وَبَعْدَ أُسْبوعَيْنِ جاءَتِ امْرَأَةٌ – لا بُدَّ أنَّها كانَتِ الكونتيسة فوسكو – إلى البَيْتِ ، وَقالَتْ إنَّها كانَتْ مُرْسَلَةً مِنْ قِبَلِ ليدي غلايد الَّتي كانَتْ تَرْغَبُ في رُؤْيَةِ السَّيِّدَةِ كليمنتس لِتَرْتيبِ مُقابَلَةٍ مَعَها ؛ لِذا فَقَدْ ذَهَبَتِ السَّيِّدَةُ كليمنتس مَعَها في العَرَبَةِ ، وَلَكِنَّ السَّيِّدَةَ أَوْقَفَتِ العَرَبَةَ عِنْدَ أَحَدِ المَتاجِرِ وَهَبَطَتْ مِنْها ، وَلَمْ تَظْهَرْ بَعْدَ ذَلِكَ قَطُّ . وَانْتَظَرَتِ السَّيِّدَةُ كليمنتس بَعْضاً مِنَ الوَقْتِ ، وَلَكِنْ دونَ جَدْوى ، فَعادَتْ إلى البَيْتِ ، وَهِيَ نَهْبٌ لِلْقَلَقِ ، لِتَكْتَشِفَ أنَّ آن قَدِ اخْتَفَتْ ، وَلَمْ تَرَها مُنْذُ ذَلِكَ الحينِ .

سَأَلْتُها : « هَلْ كُنْتِ وَالسَّيِّدَةُ كاثيريك جارَتَيْنِ ؟ »

« نَعَمْ ، كُنّا جارَتَيْنِ في أولد ولمنغهام ، في الحَيِّ القَديمِ مِنَ المَدينَةِ . كانَتِ امْرَأَةً مُشاكِسَةً ، يا سَيِّدي ، وَكانَ زَوْجُها كاتِباً لِلسِّجِلّاتِ . وَقَدْ تَوَقَّعَ زَوْجي أنَّ الأُمورَ سَتَسوءُ عِنْدَما يَأْتِيانِ لِلسَّكَنِ . وَكانَ حُكْمُهُ صائِباً ، فَقَبْلَ مُضِيِّ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ عَلى إقامَتِهِما في مَكانِهِما الجَديدِ ، ثارَتْ مَشاكِلُ جَديدَةٌ مَعَ أَحَدِ الرِّجالِ . أَنْتَ تَعْرِفُهُ جَيِّداً . إنَّهُ سير بيرسيفال غلايد . »

وَازْدادَتْ ضَرَباتُ قَلْبي . تُرى هَلْ كُنْتُ في سَبيلي إلى السِّرِّ ؟

سَأَلْتُها : « أَ كانَ مِنْ سُكّانِ تِلْكَ المَنْطِقَةِ ؟»

« لا ، يا سَيِّدي . جاءَ بَيْنَنا كَغَريبٍ . وَكانَ أَبوهُ قَدْ ماتَ مُنْذُ وَقْتٍ قَصيرٍ في بَلَدٍ أَجْنَبِيٍّ . إِنَّني لا أَزالُ أَذْكُرُ تِلْكَ المُشْكِلَةَ جَيِّداً ، فَقَدْ وَجَدَ كاثيريك زَوْجَتَهُ وَفي حِيازَتِها خَواتِمُ وَساعَةٌ ذَهَبِيَّةٌ ما كانَتْ تَسْتَطيعُ سِوى سَيِّدَةٍ مِنَ الطَّبَقَةِ الرّاقِيَةِ أَنْ تَمْلِكَها . كانَتْ هَدايا مِنْ سير بيرسيڤال . وَجاءَ كاثيريك ، ذاتَ لَيْلَةٍ ، وَهُوَ في حالَةِ هِياجٍ شَديدٍ لِيُخْبِرَ زَوْجي بِذَلِكَ ؛ ثُمَّ إِذْ بِهِ ، بَعْدَ يَوْمَيْنِ ، يَجِدُ زَوْجَتَهُ وَسير بيرسيڤال يَتَهامَسانِ . وَتَشاجَرَ الرَّجُلانِ . وَفي تِلْكَ اللَّيْلَةِ رَحَلَ كاثيريك مِنَ القَرْيَةِ ، وَلَمْ يَرَهُ أَحَدٌ بَعْدَ ذَلِكَ قَطُّ . قيلَ إِنَّ كَرامَتَهُ كانَتْ تَأْبى عَلَيْهِ أَنْ يُواجِهَ جيرانَهُ بَعْدَ تِلْكَ الفَضيحَةِ . وَرَحَلَ سير بيرسيڤال هُوَ الآخَرُ .»

« وَالسَّيِّدَةُ كاثيريك ؟»

« بَقِيَتْ في مَكانِها ، يا سَيِّدي . قالَتْ إِنَّ كُلَّ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ سِوى سوءِ ظَنٍّ فاحِشٍ لَمْ يَكُنْ لِيُخْرِجَها مِنْ بَيْتِها كَامْرَأَةٍ مُذْنِبَةٍ . بَقِيَتْ هُناكَ وَأَظُنُّ أَنَّ سير بيرسيڤال كانَ يَبْعَثُ إِلَيْها نُقوداً تُنْفِقُ مِنْها .»

وَفَكَّرْتُ هُنَيْهَةً . كانَ يَبْدو أَنْ لَيْسَ هُناكَ – فيما قيلَ – أَمَلٌ في الوُصولِ إلى ذَلِكَ السِّرِّ . وَلَكِنْ كانَ مِنَ الغَريبِ أَنْ تَبْقى السَّيِّدَةُ كاثيريك في مَكانِها . تُرى لِمَ فَعَلَتْ ذَلِكَ ؟ هَلْ دَفَعَها سير بيرسيڤال إلى البَقاءِ هُناكَ ؟ أَيْنَ أَجِدُ مِفْتاحَ ذَلِكَ اللُّغْزِ الغامِضِ ؟ هَلْ كانَتِ السَّيِّدَةُ كاثيريك عَلى حَقٍّ حينَ قالَتْ أَنَّهُ كانَ ثَمَّةَ سوءُ ظَنٍّ فاحِشٌ ؟ وَبَدَأْتُ أَعْتَقِدُ أَنَّ اللِّقاءاتِ الَّتي كانَتْ تَتِمُّ في الخَفاءِ لا صِلَةَ لَها بِشَرَفِ السَّيِّدِ كاثيريك بِصِفَتِهِ زَوْجَها . كانَ ثَمَّةَ شَيْءٌ خَفِيٌّ في حالَتِنا هَذِهِ .

سَأَلْتُ : « أَ تَعْرِفينَ لِمَ احْتَجَزَ سير بيرسيڤال آن ؟»

« لا أَعْرِفُ سِوى ما أَخْبَرَتْني هِيَ بِهِ ، يا سَيِّدي . كانَ عَقْلُها يَشْرُدُ في اكْتِئابٍ ، وَلَمْ تَكُنْ صافِيَةَ الذِّهْنِ تَماماً . كانَتْ تَقولُ إِنَّ أُمَّها تَعْرِفُ سِرّاً ما لِسير بيرسيڤال ، وَإِنَّها أَفْضَتْ إِلَيْها بِهِ . وَعِنْدَما اكْتَشَفَ سير بيرسيڤال هَذا الأَمْرَ ، احْتَجَزَها . كُلُّ ما قالَتْهُ لي أَنَّ أُمَّها تَسْتَطيعُ أَنْ تُدَمِّرَ حَياةَ سير بيرسيڤال ، إِنْ هِيَ أَرادَتْ . لا أَظُنُّ أَنَّها كانَتْ تَعْرِفُ فِعْلاً كُلَّ الحَقيقَةِ ، وَإِلّا لَأَخْبَرَتْني بِها.»

كُنْتُ ، مِنْ قَبْلُ ، أَظُنُّ أَنَّ آن قَدْ لا تَعْرِفُ كُنْهَ هَذا السِّرِّ ، وَلَكِنْ مِنَ الجائِزِ أَنَّها كانَتْ تَتَظاهَرُ بِمَعْرِفَتِها لَهُ . وَكانَ هَذا يَكْفي لِتَصَرُّفِ سير بيرسيڤال نَحْوَها .

وَرَدًّا عَلى الأسئِلَةِ المُتَكَرِّرَةِ لِلْمَرْأةِ المِسْكِينَةِ ، اضطُرِرْتُ أنْ أعْتَرِفَ لَها بِوَفاةِ آن ، فَسَألَتْني في حُزْنٍ وَأسًى إنْ كانَتِ الفَتاةُ قَدْ أُقيمَتْ لَها جِنازَةٌ لائِقَةٌ . وَكانَ بِاسْتِطاعَتي أنْ أرُدَّ بِالإيجابِ . ثُمَّ طَلَبْتُ مِنْها خِدْمَةً أخيرَةً .

« هَلْ تَسْمَحينَ بِإعْطائي عُنْوانَ السَّيِّدَةِ كاثيريك في نيو ولمنغهام ؟ »

سَألَتْ بِقَلَقٍ بالغٍ : « لِمَ تُريدُ رُؤيَتَها ؟ لا تَذْهَبْ إلَيْها ، يا سَيِّدي! لا تَذْهَبْ . إنَّها امْرَأةٌ رَهيبَةٌ ! أنْتَ لا تَعْرِفُها مِثْلَما أعْرِفُها . »

قُلْتُ في رِفْقٍ : « أنا واثِقٌ أنَّ تَحْذيرَكِ صادِرٌ عَنْ نِيَّةٍ طَيِّبَةٍ ، وَلَكِنَّني مُصَمِّمٌ عَلى رُؤيَتِها . هُناكَ سِرٌّ دَفينٌ بَيْنَ الاثْنَيْنِ لا يَعْرِفُهُ أحَدٌ مِنّا ، وَلَسَوْفَ أكْتَشِفُهُ . »

وَأدْرَكَتْ أنَّني مُصَمِّمٌ عَلى ذَلِكَ ؛ فَأعْطَتْني العُنْوانَ .

وَوَدَّعْتُها قائِلاً : « سَأكْتُبُ إلَيْكِ قَريبًا . » ثُمَّ انْصَرَفْتُ وَمَضَيْتُ لِحالِ سَبيلي .

الفَصْلُ التّاسِعَ عَشَر

أخْبَرْتُ ماريان بِخُطَّتي الخاصَّةِ بِالذَّهابِ إلى ولمنغهام . وَاتَّفَقْنا عَلى أنْ نَتَراسَلَ يَوْمِيًّا طيلَةَ غِيابي ، وَسَأعْرِفُ ، ما دامَتْ تَكْتُبُ إلَيَّ بِانْتِظامٍ ، أنَّ الأُمورَ تَسيرُ عَلى ما يُرامُ . أمّا إذا حَدَثَ وَجاءَ صَباحُ يَوْمٍ لَمْ أتَلَقَّ فيهِ خِطاباً مِنْها ، فَعَلَيَّ أنْ أعودَ ، فَوْراً ، بِأوَّلِ قِطارٍ .

وَأسْرَعْتُ الخُطى إلى المَحَطَّةِ وَأنا مُفْعَمٌ بِالأمَلِ . كُنْتُ واثِقاً أنَّ سَفَري لَنْ يَكونَ عَقيماً . وَكانَ صَباحاً جَميلاً صافِيًا ، مُنْعِشاً ، شَعَرْتُ فيهِ بِقُوَّةٍ تَسْري في جَميعِ أوْصالي .

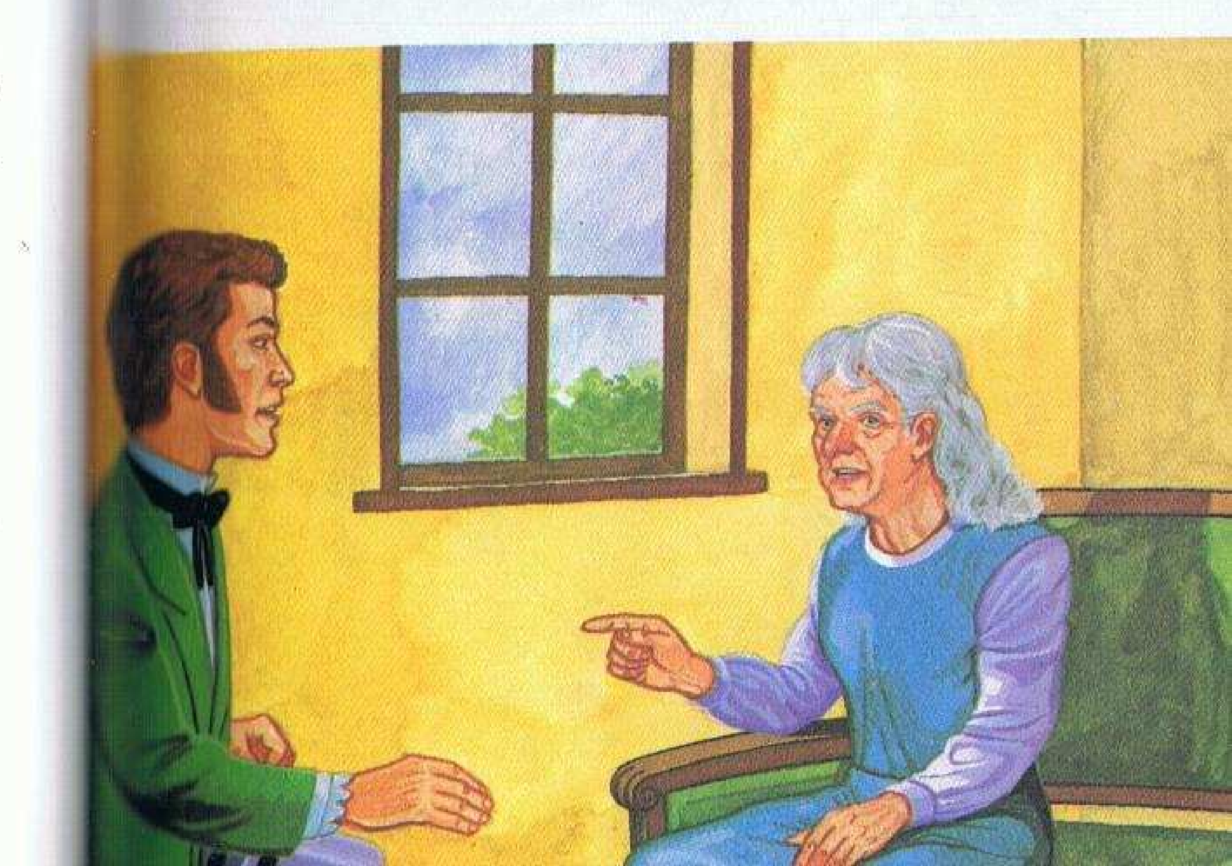
وَما إنْ وَصَلْتُ إلى ولمنغهام حَتّى سَألْتُ عَنِ الحَيِّ الَّذي كانَتْ تَسْكُنُهُ السَّيِّدَةُ كاثيريك . وَ وَجَدْتُ البَيْتَ دونَ عَناءٍ . كانَتْ تُجاوِرُهُ رُقْعَةٌ مِنَ العُشْبِ بِسِياجٍ مِنَ السِّلْكِ الرَّخيصِ . وَهُناكَ وَقَفَتِ امْرَأةٌ وَطِفْلانِ يَنْظُرونَ إلى عَنْزَةٍ عَجْفاءَ عَلى العُشْبِ . كانَ المَنْظَرُ كُلُّهُ

مَنْظَراً فَقيراً بائِساً .

وَمَشَيْتُ إلى البابِ وَطَرَقْتُهُ ، فَفَتَحَتْهُ خادِمَةٌ يَعْلو وَجْهَها حُزْنٌ وَاكْتِئابٌ ، وقادَتْني إلى الدّاخِلِ .

دَخَلْتُ حُجْرَةً تَكْتَظُّ بِأثاثٍ رَخيصٍ ، وَكانَتْ تَجْلِسُ فيها امْرَأَةٌ عَجوزٌ ذاتُ شَعْرٍ أشْيَبَ يَتَدَلّى عَلى صُدْغَيْها ، وَعَيْنَيْنِ صارِمَتَيْنِ ، بادَرَتْني بِقَوْلِها : « لا تُثْقِلْ عَلَيَّ ، وَاذْكُرْ بِسُرْعَةٍ ما تُريدُ قَوْلَهُ . »

كانَتْ نَغْمَةُ صَوْتِها صارِمَةً كَعَيْنَيْها . وَأشارَتْ إلى مَقْعَدٍ ، ثُمَّ تَفَحَّصَتْني مِنْ قِمَّةِ رَأسي إلى أخْمَصِ قَدَمَيَّ . وَرَأَيْتُ أنَّ فُرْصَتي الوَحيدَةَ مَعَ هَذِهِ المَرأةِ هِيَ أنْ أتَحَدَّثَ إلَيْها بِنَفْسِ نَغْمَتِها ، وَأنْ



أكونَ في مِثْلِ صَرامَتِها .

قُلْتُ : « أ تَعْرِفينَ أنَّ ابْنَتَكِ مَفْقودَةٌ ؟ »

« أعْرِفُ . »

« أ ما خَشيتِ احْتِمالَ مَوْتِها ؟ »

« بَلى . أجِئْتَ إلى هُنا لِتُخْبِرَني بِمَوْتِها ؟ »

« نَعَمْ . »

« لِمَ ؟ »

سَألَتْ هَذا السُّؤالَ الغَريبَ دونَ أيِّ تَغَيُّرٍ في صَوْتِها أوْ وَجْهِها أوْ طَريقَتِها . ظَلَّتْ عَلى هُدوئِها وَكَأنَّني أنْبَأْتُها بِمَوْتِ العَنْزَةِ الواقِفَةِ خارِجَ النّافِذَةِ .

مَضَتْ تَسْألُ : « كَيْفَ عَرَفْتَ أخْبارَ ابْنَتي ؟ »

« ساعَدْتُها بَعْدَ هُروبِها مِنْ مُسْتَشْفى الأمْراضِ العَقْلِيَّةِ . »

« لَقَدْ أخْطَأتَ كَثيراً . لِمَ جِئْتَ إلى هُنا ؟ وَكَيْفَ عَرَفْتَ عُنْواني ؟ »

« حَصَلْتُ عَلَيْهِ مِنَ السَّيِّدَةِ كليمنتس . »

« السَّيِّدَةُ كليمنتس امْرَأَةٌ بَلْهاءُ ! عِمْ صَباحاً .»

وَمَضَيْتُ أقولُ دونَ أنْ أكْتَرِثَ بِكَلِماتِها : « لَقَدْ ساعَدَ مَوْتُ ابْنَتِكِ رَجُلَيْنِ شِرِّيرَيْنِ على الإضْرارِ بِشَخْصٍ عَزيزٍ عَلَيَّ . أحَدُ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ هُوَ سير بيرسيڤال غلايد .»

« حَقًّا ؟ »

وَنَظَرْتُ لأرى إنْ كانَ ذِكْرُ ذَلِكَ الاسْمِ قَدْ أثَّرَ فيها ، وَلَكِنْ لَمْ تَخْتَلِجْ عَضَلَةٌ واحِدَةٌ مِنْ عَضَلاتِ وَجْهِها .

سَأَلَتْ : « لِمَ تَذْكُرُ لي هَذا ؟»

« لأنَّني مُصَمِّمٌ على تَقْديمِ سير بيرسيڤال لِلْعَدالَةِ عِقاباً لَهُ على ما جَناهُ !»

« أنا لا أبالي بِتَصْميمِكَ .»

« هُناكَ أحْداثٌ مُعَيَّنَةٌ في حَياةِ سير بيرسيڤال أَوَدُّ أنْ أعْرِفَها . أحْداثٌ وَقَعَتْ في أولد ولمنغهام عِنْدَما كانَ زَوْجُكِ كاتِباً فيها .»

ها قَدْ أثَّرْتُ على المَرْأَةِ أخيراً ! لَمْ تَبْقَ على ما كانَتْ عَلَيْهِ مِنْ هُدوءٍ .

وَسَأَلَتْ : « ماذا تَعْرِفُ عَنْ هَذِهِ الأحْداثِ ؟»

« كُلُّ ما اسْتَطاعَتِ السَّيِّدَةُ كليمنتس أنْ تَقولَهُ لي .»

« آه ، بَدَأْتُ أفْهَمُ . تُريدُ أنْ أساعِدَكَ ضِدَّ سير بيرسيڤال . تُريدُ أنْ تَعْرِفَ كُلَّ شَيْءٍ عَنْ حَياتِيَ الخاصَّةِ. حَسَناً ، قُمْ بِعَمَلِكَ بِنَفْسِكَ ، ثُمَّ ، حينَ تُتِمُّهُ ، عُدْ إليَّ .»

« ألَنْ تُساعِديني ؟»

« نعم .»

قُلْتُ : « أنْتِ خائِفَةٌ مِنْ سير بيرسيڤال غلايد .»

« أتَظُنُّ ذَلِكَ ؟» كانَتْ يَداها تَتَحَرَّكانِ في قَلَقٍ .

مَضَيْتُ أقولُ : « سير بيرسيڤال رَجُلٌ ذو نُفوذٍ وَمَرْكَزٍ كَبيرٍ في الحَياةِ . إنَّهُ بارون يَمْتَلِكُ أراضِيَ كَثيرَةً ، وَهُوَ سَليلُ عائِلَةٍ عَريقَةٍ .»

قالَتْ بِازْدِراءٍ : « نَعَمْ . نَعَمْ . صَدَقْتَ ! عائِلَةٌ عَريقَةٌ ! خاصَّةً مِنْ ناحِيَةِ أُمِّهِ !»

لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ وَقْتٌ لِلتَّفْكيرِ فيما كانَتْ تَعْنيهِ كَلِماتُها ، فاسْتَطْرَدْتُ أقولُ: « لا أعْرِفُ إلّا القَليلَ عَنْ سير بيرسيڤال ، وَلَكِنَّني أعْرِفُ أنَّهُ لَمْ يَكُنْ يُحِبُّكِ قَطُّ . وَلَمْ يَكُنْ هَذا الحُبُّ هُوَ سَبَبَ لِقائِكِ بِهِ بِالقُرْبِ مِنْ حُجْرَةِ السِّجِلّاتِ . كانَ هُناكَ سَبَبٌ آخَرُ !»

وَرَأَيْتُ تَغَيُّراً غَريباً يَطْرَأُ عَلَيْها . بَدَتْ تِلْكَ المَرْأةُ الجَريئَةُ الصّارِمَةُ خائِفَةً مَذْعورَةً .

قالَتْ مُشيرَةً إلى البابِ : « إذْهَبْ ! اذْهَبْ وَلا تَعُدْ ثانِيَةً ! »

وَراقَبَتْني خُلْسَةً وَأنا أتَّجِهُ نَحْوَ البابِ . أ كانَتْ تُفكِّرُ في قُوَّتي وَشَبابي ؟ أ كانَتْ تَتَساءَلُ ماذا يُمْكِنُ أنْ يَحْدُثَ إن أنا الْتَقَيْتُ سير بيرسيڤال وَجْهاً لِوَجْهٍ ؟

وَدونَ كَلِمَةٍ أخرى ، سَواءٌ مِنّي أوْ مِنْها ، غادَرْتُ الحُجْرَةَ والبَيْتَ .

وَذَهَبْتُ إلى فُنْدُقي وَطَلَبْتُ عَشائي ، وَجَلَسْتُ أكْتُبُ إلى ماريان. وَسَنَحَتْ لي ، بَعْدَ كِتابَةِ الخِطابِ إلَيْها ، فُرْصَةُ التَّفْكير فيما عَلِمْتُهُ. بَدا لي أنَّ حُجْرَةَ السِّجِلّاتِ في ولمنغهام كانَتْ شَيْئاً لَهُ أهَمِّيَّتُهُ . كانَتْ مَكاناً غَريباً لِلِقاءاتِ سير بيرسيڤال وَزَوْجَةِ الكاتِبِ . فَعِنْدَما ذَكَرْتُها لِلسَّيِّدَةِ كاثيريك أصيبَتْ بِالذُّعْرِ عَلى الرَّغْمِ مِنْ عَيْنَيْها الصّارِمَتَيْنِ. أ كانَتْ هُناكَ جَريمَةٌ مُتَّصِلَةٌ بِحُجْرَةِ السِّجِلّاتِ ؟ وَلِمَ كانَتِ السَّيِّدَةُ كاثيريك عَلى هَذِهِ الدَّرَجَةِ مِنَ الاحْتِقارِ لِمَكانَةِ سير بيرسيڤال وَنُفوذِهِ؟ لِمَ تَكَلَّمَتْ عَلى هَذا النَّحْوِ الغَريبِ عَنْ أمِّهِ؟ أ كانَتْ أمُّهُ مِنْ أصْلٍ وَضيعٍ ؟ ما كُنْتُ أسْتَطيعُ أنْ أكْتَشِفَ ذَلِكَ

إلّا بِالنَّظَرِ في دَفْتَرِ تَسْجيلِ الزِّيجاتِ. تُرى أيْنَ كانَ ؟ وَبَعْدَما فَكَّرْتُ في الأمْرِ مِنْ جَميعِ نَواحيهِ ، حَكَمْتُ أنَّهُ قَدْ يَكونُ في حُجْرَةِ سِجِلّاتِ أولد ولمنغهام .

لِذا انْطَلَقْتُ في صَباحِ اليَوْمِ التّالي إلى أولد ولمنغهام ، وَكانَتْ عَلى رابِيَةٍ مُرْتَفِعَةٍ وَمحاطَةً بِبُيوتٍ خَرِبَةٍ مُهَدَّمَةٍ مِنْ بُيوتِ القَرْيَةِ القَديمَةِ .

وَعِنْدَما اقْتَرَبْتُ لاحَظْتُ وُجودَ رَجُلَيْنِ يَقِفانِ خَلْفَ حائِطٍ ، وَتَعَرَّفْتُ عَلى أحَدِهِما لِتَوّي – كانَ أحَدَ الرَّجُلَيْنِ اللَّذَيْنِ تَتَبَّعاني حينَ غادَرْتُ مَكْتَبَ السَّيِّدِ كايل في لَنْدَن . كانَ الأمْرُ كَما حَسِبْتُ : كانَ سير بير سيڤال مُسْتَعِدًّا لي ، وَكانَتْ كُلُّ تَحَرُّكاتي مَوْضعَ مُراقَبَتِهِ . إذاً فَقَدْ كُنْتُ أسيرُ في الاتِّجاهِ الصَّحيحِ . وَكانَ هَذا مِمّا شَجَّعَني .

كانَ الكاتِبُ في كوخِهِ الصَّغيرِ . كانَ رَجُلاً بَشوشاً ، ثَرْثاراً ، لا يُكِنُّ احْتِراماً – كَما اكْتَشَفْتُ – لِلْقَرْيَةِ وَلا لِجيرانِهِ . وَالْتَقَطَ المَفاتيحَ مِنْ أحَدِ الخَطاطيفِ بِجِوارِ المِدْفَأةِ ، وَهُوَ يَتَكَلَّمُ طَوالَ الوَقْتِ ، ثُمَّ أغْلَقَ بابَ الكوخِ خَلْفَهُ وَخَرَجْنا .

قالَ : « لَيْسَ ثَمَّةَ أحَدٌ يَعْتَني بِبَيْتي . زَوْجَتي مُتَوَفّاةٌ وَأبْنائي كُلُّهُمْ

مُتزوِّجونَ . مكانٌ مُوحِشٌ ، أ ليْسَ كَذلِكَ ؟ وَلكِنَّني سافرْتُ إلى لَنْدَن مُنْذُ خمْسٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً . ما أخْبارُها الآنَ ؟ »

وَقادَني وَهُوَ يُثَرْثِرُ على هَذا النَّحْوِ إلى حُجْرَةِ السِّجِلّاتِ الَّتي كانَ بابُها مَتيناً وَسَميكاً . وَ وَجَدْنا بَعْضَ صُعوبَةٍ في فَتْحِ قُفْلِها ، وَلَمْ يَدُرِ المِفْتاحُ إلّا بَعْدَ جَهْدٍ جَهيدٍ .

قالَ : « هَذا القُفْلُ لا بُدَّ أنْ يُغَيَّرَ . إنَّهُ دائِماً مَصْدَرُ إزْعاجٍ لي . »

وَكانَتْ حُجْرَةُ السِّجِلّاتِ أكْبَرَ مِنَ المَألوفِ ، وَمُظْلِمَةً وَقَديمَةَ الأثاثِ . وَكانَتِ النّافِذَةُ الوَحيدَةُ بِها مَوْجودَةً بِالسَّقْفِ . وَعَلى الأرْضِ تَبَعْثَرَتْ ثَلاثَةُ صَناديقَ لِلتَّعْبِئَةِ وَالكَثيرُ مِنَ الأوْراقِ القَديمَةِ المَكْسُوَّةِ بِالغُبارِ . وَكانَ الجَوُّ خانِقاً .

وَمَضى الرَّجُلُ يَتَكَلَّمُ وَيَتَكَلَّمُ ، وَلكِنّي قاطَعْتُهُ بِسُؤالِهِ عَنْ سِجِلِّ الزَّواجِ ، فَأخْرَجَهُ أخيراً مِنْ خِزانَةِ كُتُبٍ قَديمَةٍ مُهَشَّمَةٍ . وَدَهِشْتُ لِرُؤْيَتي مِثْلَ هَذا الدَّفْتَرِ الهامِّ يُحْتَفَظُ بِهِ في مَكانٍ غَيْرِ مَأمونٍ كَهَذا ، حَيْثُ يَسْتَطيعُ أيُّ شَخْصٍ أنْ يَصِلَ إلَيْهِ .

سَألْتُهُ : « أ لا يَنْبَغي أنْ يُحْتَفَظَ بِهَذا الدَّفْتَرِ في مَكانٍ أكْثَرَ أماناً ؟ »

أجابَ : « شَيْءٌ غَريبٌ حَقّاً . كانَ رَئيسي السّابِقُ يُرَدِّدُ نَفْسَ

الكَلامِ مُنْذُ سَنواتٍ وَسَنَواتٍ . كانَ مُحامِياً ، يا سَيِّدي . وَكانَ يُدَقِّقُ في كُلِّ شَيْءٍ . كانَ طيلَةَ حَياتِهِ يَحْتَفِظُ بِنُسْخَةٍ مِنْ هَذا الدَّفْتَرِ في مَكْتَبِهِ في نولزبري . كانَ يَقولُ دائِماً : « كَيْفَ لي أنْ أعْرِفَ أنَّ السِّجِلَّ في هَذِهِ الحُجْرَةِ قَدْ لا يُسْرَقُ أوْ يُتْلَفُ ؟ قَدْ تَقَعُ حادِثَةٌ في يَوْمٍ مِنَ الأيّامِ فَتُكْتَشَفُ قيمَةُ نُسْخَتي . » كانَ رَجُلاً رائِعاً ! قُلْتَ لي أيَّةَ سَنَةٍ ، يا سَيِّدي ؟ »

قُلْتُ : « سَنَةَ ألْفٍ وَثَمانِمِئَةٍ وَأرْبَعٍ . »

« ها هِيَ ذي ، يا سَيِّدي ، ها هِيَ السَّنَةُ الَّتي تُريدُها . » وَ وَضَعَ الدَّفْتَرَ مَفْتوحاً أمامي .

لَمْ أكُنْ أعْرِفُ في أيِّ شَهْرٍ وُلِدَ سير بيرسيڤال ، وَلكِنَّني كُنْتُ أعْرِفُ السَّنَةَ مِنْ سِنِّهِ . كانَ الدَّفْتَرُ مِنَ النَّوْعِ القَديمِ . وَكانَتِ البَياناتُ عِنْدَ عَقْدِ أيِّ قِرانٍ تُكْتَبُ في الصَّفْحَةِ الخالِيَةِ ، ثُمَّ يُجَرُّ خَطٌّ في أسْفَلِها . وَتَفَحَّصْتُ الكِتابَةَ مُقَلِّباً الصَّفَحاتِ إلى الوَراءِ حَتّى وَصَلْتُ إلى سِبْتِمبر ١٨٠٣ ، وَهُناكَ وَجَدْتُ الزّيجَةَ المَطْلوبَةَ ، كانَتْ مُدَوَّنَةً في أسْفَلِ صَفْحَةٍ لَمْ يَكُنْ بِها مَجالٌ كَبيرٌ ، فَكانَ أنْ حُشِرَتْ في حَيِّزٍ ضَيِّقٍ لِلْغايَةِ . وَفي أعْلى الصَّفْحَةِ التّالِيَةِ ، وَقَعَتْ عَيْناي عَلى قَيْدِ زيجَتَيْنِ لأخَوَيْنِ في حَيِّزٍ كَبيرٍ .

لَمْ يَكُنْ هُناكَ شَيْءٌ غَريبٌ فيما يَتَعَلَّقُ بِقَيْدِ زَواجِ سير فيليكس غلايد سِوى ضيقِ المكانِ الَّذي حُشِرَ فيه . وَكَتَبْتُ البَياناتِ في مُفَكِّرَتي ، وَلَكِنَّ آمالي في الوُصولِ إلى السِّرِّ تَضاءَلَتْ كَثيراً . لَمْ يَبْدُ هُناكَ سِرٌّ ما . إذاً ما الَّذي يُمْكِنُ عَمَلُهُ بَعْدَ ذَلِكَ ؟ سَأَلْتُ إنْ كانَ الشَّيْخُ الَّذي قامَ بِمَراسيمِ الزَّواجِ لا يَزالُ حَيّاً .

« لا ، يا سَيِّدي ، لَقَدْ ماتَ قَبْلَ مَجيئي إلى هُنا . » ثُمَّ مَضى صاحِبي الثَّرْثارُ يَقولُ : « لَقَدْ حَصَلْتُ على هَذِهِ الوَظيفَةِ بِمُساعَدَةِ السَّيِّدِ وَنْزبورو . إنَّهُ ابْنُ رَئيسِيَ السّابِقِ الَّذي حَدَّثْتُكَ عَنْهُ . إنَّهُ شابٌّ لَطيفٌ جِدًّا ، يا سَيِّدي ، وَيَعيشُ في نولزبري مِثْلَ أبيهِ . وَهُوَ مُحامٍ كَأَبيهِ أيْضاً . »

« كَمْ تَبْعُدُ نولزبري عَنْ هُنا ؟ »

« بَعيدَةٌ ، يا سَيِّدي . حَوالى ثَمانِيَةِ كيلومِتْراتٍ . »

كانَ الوَقْتُ بَعْدَ الظُّهْرِ بِقَليلٍ ، وَكانَ أمامي كَثيرٌ مِنَ الوَقْتِ لِقَطْعِ المَسافَةِ سَيْرًا على قَدَمَيَّ . وَبَدا لي أنَّهُ مِنَ الحِكْمَةِ أنْ أذْهَبَ لِرُؤْيَةِ السَّيِّدِ وَنْزبورو ، فَقَدْ يَكونُ قادِراً على أنْ يُخْبِرَني بِشَيْءٍ . لِذا شَكَرْتُ الكاتِبَ على ما تَجَشَّمَهُ مِنْ مَتاعِبَ ، وَمَشَيْتُ بِسُرْعَةٍ .

الفَصْلُ العِشْرون

عِنْدَما انْطَلَقْتُ صَوْبَ نولزبري ، لاحَظْتُ الرَّجُلَيْنِ مَرَّةً أخْرى ، وَلَكِنَّ رَجُلاً ثالِثاً كانَ قَدِ انْضَمَّ إلَيْهِما . ما كانَ جَواسيسُ سير بيرسيڤال لِيَسْمَحوا لي بِأنْ أغيبَ عَنْ أنْظارِهِمْ . إذاً عَلَيَّ أنْ أحُثَّ الخُطى .

وَأخَذْتُ أقَلِّبُ في ذِهْني ، أثْناءَ سَيْري في الطَّريقِ الرّيفِيِّ ، ما قالَهُ لي كاتِبُ السِّجِلّاتِ ، فَقَرَّرْتُ أنَّني لَنْ أخْسَرَ شَيْئاً إنِ اسْتَطَعْتُ أنْ ألْقِيَ نَظْرَةً على نُسْخَةِ السِّجِلِّ المَحْفوظَةِ ، وَأنْ أطْلُبَ مِنَ السَّيِّدِ وَنْزبورو أنْ يُطْلِعَني عَلَيْها .

وَأطْلَعَني هَذا عَلَيْها مُرَحِّباً حينَ وَصَلْتُ إلى مَكْتَبِهِ ، وَقالَ : « مِمّا يُرْثى لَهُ ألّا يَكونَ أبي على قَيْدِ الحَياةِ ؛ لِيَسْمَعَ أنَّ هُناكَ أخيراً مَنْ يَطْلُبُ نُسْخَتَهُ القَيِّمَةَ ! »

كانَ هَذا الدَّفْتَرُ في حَجْمِ الدَّفْتَرِ الأَصْلِيِّ تَماماً . وَقَلَّبْتُ الصَّفَحاتِ بِأَصابِعَ مُرْتَجِفَةٍ حَتّى وَصَلْتُ إِلى شَهْرِ سبتمبر مِنْ عامِ ١٨٠٣ . وَكُنْتُ أُحاوِلُ إِخْفاءَ مَشاعِري ، وَلَكِنْ لَمْ يَطُلْ هَذا كَثيراً ؛ إِذْ سَرْعانَ ما وَجَدْتُ الصَّفْحَةَ المَنْشودَةَ . نَعَمْ ، وَجَدْتُ الزيجاتِ الأُخْرى الَّتي رَأَيْتُها مِنْ قَبْلُ ، وَلَكِنْ ماذا كانَ في نِهايَةِ الصَّفْحَةِ ؟ لا شَيْءَ ! لا شَيْءَ أَلْبَتَّةَ ! لا إِشارَةَ واحِدَةً إِلى زَواجِ سير فيليكس غلايد !

وَ وَثَبَ قَلْبي مِنْ مَكانِهِ ، حَتّى ظَنَنْتُ أَنَّهُ سَيَنْفَجِرُ . لَمْ يَكُنْ زَواجُ أَبيهِ مُسَجَّلاً . لا شَيْءَ سِوى ذَلِكَ الحَيِّزِ الضَّيِّقِ ؛ أَيْ نَفْسِ المِساحَةِ المَوْجودَةِ في الدَّفْتَرِ الأَصْلِيِّ ، وَلَكِنَّها خالِيَةٌ تَماماً .

وَأَدْرَكْتُ الحَقيقَةَ . لَقَدْ كانَ أَيْضاً خالِياً في الدَّفْتَرِ الأَصْلِيِّ حَتّى جاءَ سير بيرسيفال إِلى أولد ولمنغهام سَنَةَ ١٨٢٧ وَكَتَبَ الكَلِماتِ بِنَفْسِهِ في سِجِلِّ الزَّواجِ . إِذاً لَمْ يَكُنْ أَبَواهُ قَدْ تَزَوَّجا إِطْلاقاً !

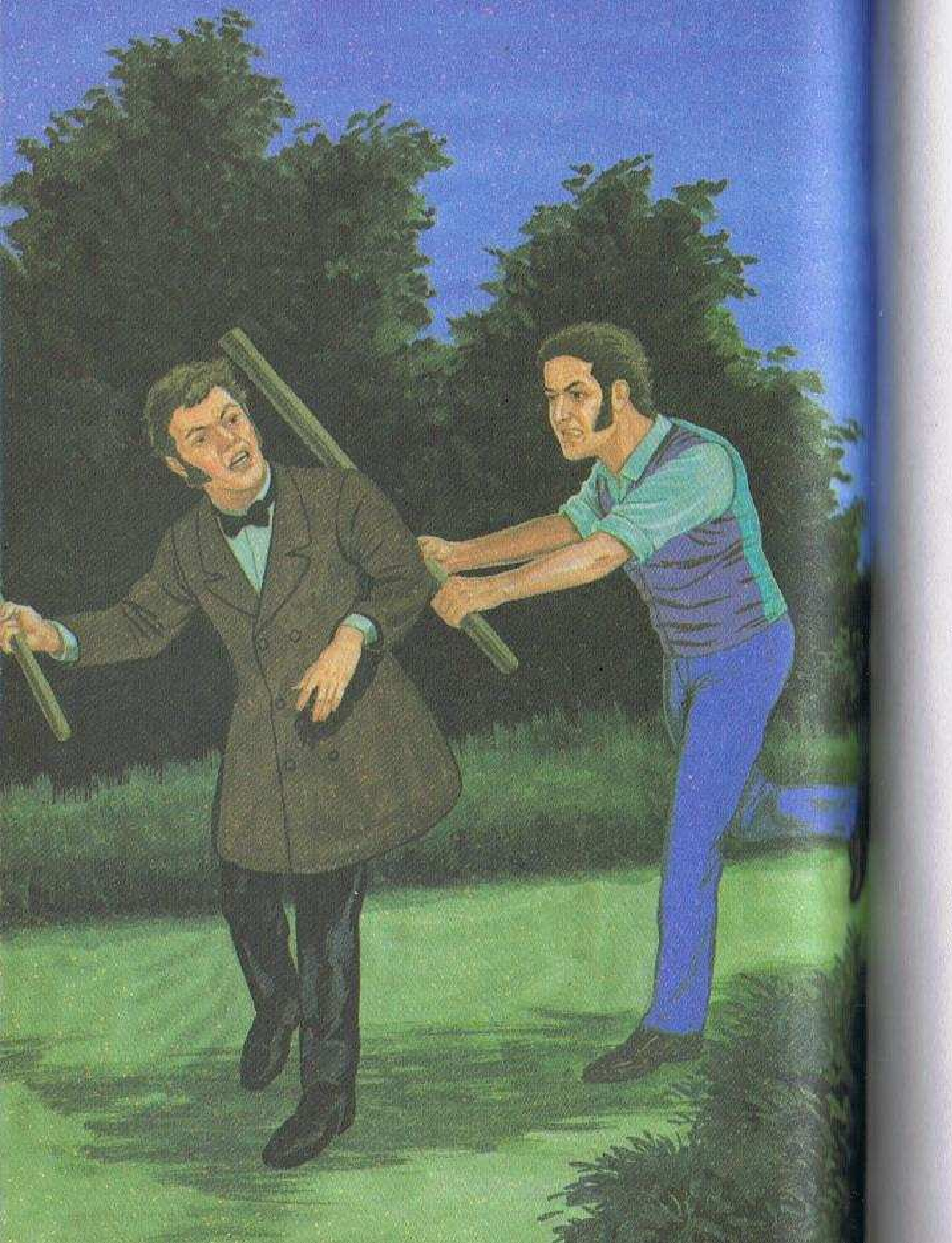
وَخارَتْ قُوايَ ، وَكِدْتُ أَقَعُ عَلى الأَرْضِ . ما كانَ هَذا لِيَخْطُرَ بِبالي قَطُّ . لَمْ يَكُنْ لِسير بيرسيفال أَيُّ حَقٍّ في بلاكووتر بارك . لَمْ يَكُنْ باروناً . إِذاً لَيْسَ مِنَ المُسْتَغْرَبِ أَنْ يَقْلَقَ مِثْلُ ذَلِكَ المَخْلوقِ التَّعِسِ ؟ وَمَنْ يَسْتَغْرِبُ لأَنَّهُ احْتَجَزَ آن كاثيريك في مُسْتَشْفى

الأَمْراضِ العَقْلِيَّةِ ما دامَ كانَ يَعْتَقِدُ أَنَّها تَعْرِفُ ذَلِكَ ؟ لَقَدِ ارْتَكَبَ جَريمَةً شَنْعاءَ . كانَ هَذا هُوَ السِّرَّ . وَكانَ مِلْكي ! كَلِمَةٌ مِنّي وَيُطْرَدُ مِنْ كُلِّ المُجْتَمَعاتِ البَشَرِيَّةِ مَغْموراً ، مُفْلِساً ، مَنْبوذاً . كانَتْ حَياةُ الرَّجُلِ كُلُّها مُتَوَقِّفَةً عَلَيَّ ، وَكانَ يَعْرِفُ ذَلِكَ حينَذاكَ مِثْلَما كُنْتُ أَعْرِفُهُ . كُنْتُ في خَطَرٍ داهِمٍ ، وَكانَ مِنْ واجِبي أَلا أَنْسى أَنَّ لي صَديقَتَيْنِ في حاجَةٍ إِلَيَّ .

وَقَرَّرْتُ أَنْ أَعودَ وَأَنْسَخَ بَياناتِ السِّجِلِّ الأَصْلِيِّ خَشْيَةَ أَنْ تَنالَهُ يَدُ الإِتْلافِ . لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ ، حينَذاكَ ، أَنَّ أَيَّ نُسْخَةٍ أَنْقُلُها كانَتْ عَديمَةَ الفائِدَةِ ، وَأَنَّهُ مِنَ اللازِمِ أَنْ يَقومَ مُحامٍ بِذَلِكَ وَأَنْ يُوَقِّعَ عَلَيْها. أُكَرِّرُ ، لَمْ أَكُنْ أَعْرِفُ ذَلِكَ حينَذاكَ ، فَانْطَلَقْتُ في الحالِ لِلْعَوْدَةِ كَيْ أُنَفِّذَ ما نَوَيْتُ قَبْلَ أَنْ أَنامَ تِلْكَ اللَّيْلَةَ .

كانَ الظَّلامُ يُرْخي سُدولَهُ . وَظَنَنْتُ أَنَّهُمْ قَدْ يَتَعَقَّبونَني ثانِيَةً ، وَيُهاجِمونَني في الطَّريقِ ، لِذا فَقَدْ تَوَقَّفْتُ لِشِراءِ عَصاً ثَقيلَةٍ غَليظَةٍ ، ثُمَّ انْطَلَقْتُ بِسُرْعَةٍ وَسَطَ الطَّريقِ .

وَأَخَذَ المَطَرُ يَتَساقَطُ حَتّى اسْتَحالَ عَلَيَّ ، في بادِئِ الأَمْرِ ، أَنْ أَرى إِنْ كانَ هُناكَ مَنْ يَتَعَقَّبُني أَوْ لا . وَلَكِنْ عِنْدَما كُنْتُ عَلى بُعْدِ كيلومِتْرَيْنِ مِنْ مَقْصِدي ، فوجِئْتُ بِثَلاثَةِ رِجالٍ يَقْفِزونَ إِلى الطَّريقِ مِنْ سِياجٍ مِنَ أَشْجارٍ ، وَيُهاجِمونَني . ضَرَبَني أَوَّلُهُمْ بِعَصاهُ ، وَلَكِنْ



لِحُسْنِ حَظِّي ، وَقَعَتِ الضَّرْبَةُ بِخِفَّةٍ على كَتِفِيَ ، واسْتَطَعْتُ أنْ أرُدَّها بِشِدَّةٍ على رأسِهِ ، وتَرَنَّحَ الرَّجُلُ وارْتَدَّ بِظَهْرِهِ على رَفِيقِهِ وَهُما يَنْدَفِعانِ نَحْوي ، فَكانَ أنْ كَسَبْتُ بِضْعَ ثَوانٍ . وَجَرَيْتُ في وَسَطِ الطَّرِيقِ بِأقْصى سُرْعَةٍ مُمْكِنَةٍ ، تُساعِدُني خِبْراتي الأخيرَةُ في أمريكا الوُسْطى .

وَتَبِعَني الرَّجُلانِ اللَّذانِ لَمْ يَلْحَقْ بِهِما أذًى . كانا عَدّاءَيْنِ ماهِرَيْنِ ، وَلَمْ أسْتَطِعْ ، في البِدايَةِ أنْ أتَفَوَّقَ عَلَيْهِما . وَكانَ مِنَ الخَطَرِ أنْ أجْرِيَ في الظَّلامِ ، وَلَكِنْ لِحُسْنِ الحَظِّ ، لَمْ أتَعَثَّرْ أوْ أقَعْ . وَبَعْدَ مَسافَةٍ قَصِيرَةٍ ، وَصَلْنا إلى جُزْءٍ مُرْتَفِعٍ مِنَ الطَّرِيقِ ، وَبَدَأتُ أبْتَعِدُ عَنْهُما ، وَخَفَتَ وَقْعُ أقْدامِهِما خَلْفي . وَما إنْ سَبَقْتُهُمْ بِقَدْرٍ كافٍ حَتّى تَرَكْتُ الطَّرِيقَ وَانْعَطَفْتُ أجْري عَبْرَ الحُقُولِ . وَلَمْ أحْدِثْ صَوْتًا على العُشْبِ النّاعِمِ . وَسُرِرْتُ لِسَماعي وَقْعَ أقْدامِهِما يُواصِلُ الرَّكْضَ في الطَّرِيقِ أمامَ المَكانِ الَّذي تَرَكْتُهُ . وَهَكَذا كُتِبَتْ لِيَ النَّجاةُ .

اتَّجَهْتُ لاهِثًا نَحْوَ أولد ولمنغهام ، وَ وَجَدْتُ كوخَ كاتِبِ السِّجِلّاتِ ، وَلَكِنَّ الرَّجُلَ كانَ قَدْ تَغَيَّرَ على نَحْوٍ غَرِيبٍ مُنْذُ أنْ رَأيْتُهُ آخِرَ مَرَّةٍ . وَقابَلْتُهُ في الخارِجِ وَهُوَ يُمْسِكُ شَمْعَةً .

سَألَني في قَلَقٍ : « أيْنَ المَفاتيحُ ؟ أأخَذْتَها ؟ »

« أيّةُ مَفاتيحَ ؟ لَقَدْ أَتيتُ لِتوّي مِنْ نولزبري . »

« مَفاتيحُ حُجْرَةِ السِّجلّاتِ . لَقَدْ ضاعَتْ . تُرى مَنْ أَخَذَها ؟ »

لا بُدَّ أَنَّ أَحَدَهُمْ قَدْ ذَهَبَ إلى حُجْرَةِ السِّجلّاتِ ! وَتَكَهَّنْتُ مَنْ يَكونُ ، وَهُرِعْتُ صَوْبَ حُجْرَةِ السِّجلّاتِ . وَقَبْلَ أَنْ أَخْطُوَ عَشْرَ خُطُواتٍ ، جاءَ إِلَيَّ رَجُلٌ في الظَّلامِ وَقالَ : « سير بيرسيڤال ؟ »

قُلْتُ : « أَنْتَ مُخْطِئٌ . أَنا لَسْتُ سير بيرسيڤال . »

« مَعْذِرَةً ، حَسِبْتُ أَنَّكَ سَيِّدي . »

« لَعَلَّكَ تَوَقَّعْتَ أَنْ تُقابِلَ سَيِّدَكَ هُنا ؟ »

قالَ : « لَقَدْ طَلَبَ مِنّي أَنْ أَنْتَظِرَ هُنا . » ثُمَّ مَضى .

وَفي تِلْكَ اللَّحْظَةِ لَحِقَ بي كاتِبُ السِّجلّاتِ ، فَأَسْرَعْنا الخُطى في طَريقِنا ، وَإِذْ بِنا نُقابِلُ غُلامًا يَبْدو عَلَيْهِ الانْفِعالُ ، وَقالَ لَنا إِنَّهُ كانَ ثَمَّةَ شَخْصٌ يُشْعِلُ أَعْوادَ ثِقابٍ داخِلَ حُجْرَةِ السِّجلّاتِ . وَارْتَجَفَ الكاتِبُ واسْتَنَدَ إِلَيَّ بِشِدَّةٍ .

قُلْتُ : « هَيّا ، هَيّا . لَمْ يَفُتِ الأَوانُ بَعْدُ . سَنُمْسِكُ بِهِ . »

وَبَيْنَما كُنّا نُسْرِعُ تَبَدَّتْ لَنا حُجْرَةُ السِّجلّاتِ بِكامِلِها ، وَرَأَينا نافِذَةَ السَّقْفِ مُضاءَةً بِوَهَجٍ شَديدٍ مِنَ الدّاخِلِ ، كانَتْ تَتَوَهَّجُ تَحْتَ

سَماءٍ مُظْلِمَةٍ. وَأَسْرَعْتُ إلى البابِ ، وَبِالقُرْبِ مِنْهُ شَمَمْتُ رائِحَةً غَريبَةً ، وَسَمِعْتُ ضَوْضاءً شَديدَةً آتِيَةً مِنَ الدّاخِلِ ، وَرَأَيْتُ الضَّوْءَ يَزْدادُ تَوَهُّجًا ، ثُمَّ تَصَدَّعَ الزُّجاجُ في نافِذَةِ السَّقْفِ . وَ وَضَعْتُ يَدي عَلى البابِ ، كانَ مُلْتَهِبًا ؛ لَقَدْ شَبَّ حَريقٌ في حُجْرَةِ السِّجلّاتِ .

وَقَبْلَ أَنْ أَهُمَّ بِالتَّحَرُّكِ سَمِعْتُ المِفْتاحَ يَدورُ بِعُنْفٍ في القُفْلِ ، وَصَوْتَ رَجُلٍ خَلْفَ البابِ يَصيحُ ، في جُنونٍ ، طالِبًا النَّجْدَةَ ، وَخَرَّ الخادِمُ الَّذي لا بُدَّ أَنَّهُ قَدْ تَبِعَني عَلى رُكْبَتَيْهِ صائِحًا : « أَوّاهُ ، يا سَيِّدي ، إِنَّهُ سير بيرسيڤال ! سير بيرسيڤال ! »

وَبَيْنَما كانَ يَصيحُ بِهَذِهِ الكَلِماتِ النّائِحَةِ ، كانَتْ هُناكَ مُحاوَلَةٌ أَخيرَةٌ وَعَقيمَةٌ لِإِدارَةِ المِفْتاحِ في القُفْلِ .

صِحْتُ بِالرَّجُلِ الَّذي يَسْتَغيثُ : « حاوِلْ مَعَ البابِ الآخَرِ ! هَذا القُفْلُ تالِفٌ . لَنْ يَنْفَتِحَ البابُ أَبَدًا ! »

وَبَعْدَ المُحاوَلَةِ الأَخيرَةِ لِإِدارَةِ المِفْتاحِ ، تَوَقَّفَ الصِّياحُ ، لا صَوْتَ سِوى فَحيحِ النّارِ . وَالْتَفَتُّ إلى بَعْضِ الرِّجالِ في الحَشْدِ وَطَلَبْتُ مِنْهُمْ أَنْ يَتْبَعوني إلى أَحَدِ المَنازِلِ الخَرِبَةِ ، وَأَنْ يُحْضِروا كُتْلَةً ثَقيلَةً مِنَ الخَشَبِ .

صِحْتُ : « هيَّا نُحطِّمِ البابَ ! »

وَحَمَلْنا تِلْكَ الكُتْلَةَ الثَّقيلَةَ إلى البابِ وَسْطَ الحَشْدِ وَالضَّجيجِ . وَكانَتِ النّيرانُ تَزْدادُ تَوهُّجاً . وَهَجَمْنا على البابِ نَدُقُّهُ ؛ ها قَدْ صارَ مُقَلْقَلاً . دَوْرَةٌ أُخرى مَعَ كُتْلَةِ الخَشَبِ . لَقَدْ زَحْزَحْناهُ ! وَبَدَأَتِ النّيرانُ تَزْحَفُ خارِجَةً مِنَ الفَجَواتِ . هَجْمَةٌ أُخْرى أَخيرَةٌ وَهَوى البابُ مُرْتَطِماً بِالأَرْضِ . وَسادَ الحَشْدَ صَمْتٌ مُطْبِقٌ ، وَتَقَدَّمْنا لِلْبَحْثِ عَنِ الجُثَّةِ ، وَلَكِنَّ النّارَ أَجْبَرَتْنا عَلى التَّراجُعِ إلى الخَلْفِ . وَلَمْ نَسْتَطِعْ أَنْ نَرى شَيْئاً في الحُجْرَةِ سِوى أَلْسِنَةِ اللَّهَبِ في أَعْلى الحُجْرَةِ وَفي أَسْفَلِها وَفي كُلِّ أَرْجائِها .

هَمَسَ الخادِمُ : « أَيْنَ هُوَ ؟ »

قالَ كاتِبُ السِّجِلّاتِ: « إِنَّهُ تُرابٌ وَرَمادٌ . وَالسِّجِلُّ تُرابٌ وَرَمادٌ . وا أَسَفاهُ ، يا سادَةُ ! »

واسْتَدْعَيْنا عَرَبَةَ المَطافِئِ ، وَ وَصَلَتْ في الوَقْتِ المُناسِبِ لِتَمْنَعَ امْتِدادَ الحَريقِ . وَ وَجَدْنا الجُثَّةَ بِالقُرْبِ مِنَ البابِ . كانَ سير بيرسيڤال قَدْ حاوَلَ الهَرَبَ ، وَلَكِنَّهُ كَفَّ عَنْ مُحاوَلَتِهِ بَعْدَ أَنْ فاتَ الأَوانُ . كانَ مُسْتَلْقِياً عَلى وَجْهِهِ وَقَدْ فارَقَ الحَياةَ .

وَسُئِلَ الخادِمُ إِنْ كانَ يُمْكِنُهُ التَّعَرُّفُ عَلى الجُثَّةِ ، وَلَكِنْ يَبْدو أَنَّهُ

كانَ في شِبْهِ إِغْماءَةٍ أَعْجَزَتْهُ عَنِ الكَلامِ ؛ لِذا فَقَدْ جاءوا إِلَيَّ يَسْأَلونَني ، وَهكَذا رَأَيْتُهُ لأَوَّلِ وَآخِرِ مَرَّةٍ .

في اعْتِقادي أَنَّ الحَريقَ كانَ مُجَرَّدَ حادِثَةٍ ، وَكُنْتُ واثِقاً أَنَّ سير بيرسيڤال لَمْ يَتَعَمَّدْ إِحْراقَ السِّجِلِّ ، بَلْ تَعَمَّدَ أَنْ يُمَزِّقَ الصَّفْحَةَ الَّتي سَبَقَ أَنْ دَوَّنَ الكَلِماتِ في نِهايَتِها ، وَكانَ ذَلِكَ كَفيلاً بِأَنْ يُزيلَ كُلَّ الأَدِلَّةِ عَلى جَريمَتِهِ ، وَيَفِي بِغَرَضِهِ . وَلَكِنْ كانَ لا بُدَّ لَهُ مِنْ ضَوْءٍ لِرُؤْيَةِ ما كانَ يَفْعَلُهُ ، وَلا شَكَّ أَنَّ الوَرَقَةَ وَالصَّناديقَ المُعَبَّأَةَ بِمُحْتَوَياتِها قَدِ اشْتَعَلَتْ ، وَانْتَشَرَتِ النّارُ بِسُرْعَةٍ خاطِفَةٍ حَتّى لَمْ يَعُدْ مِنَ المُمْكِنِ السَّيْطَرَةُ عَلَيْها ، مِمّا أَدّى إِلى ميتَتِهِ البَشِعَةِ .

وَعُدْتُ إِلى الفُنْدُقِ بَعْدَ الحَريقِ مُنْهَكاً مَكْدوداً ، وَآوَيْتُ إِلى فِراشي . وَفي اليَوْمِ التّالي حَمِدْتُ اللّهَ إِذْ تَلَقَّيْتُ ، كَما أَلِفْتُ ، خِطاباً مِنْ ماريان يُبْلِغُني فيهِ أَنَّ كُلَّ الأُمورِ كانَتْ تَسيرُ سَيْراً مُرْضِياً. كَما تَلَقَّيْتُ خِطاباً آخَرَ لَمْ يُذْكَرْ فيهِ اسْمُ صاحِبِهِ ، وَلَكِنَّني أَدْرَكْتُ أَنَّهُ كانَ مُرْسَلاً مِنَ السَّيِّدَةِ كاثيريك . وَها أَنَذا أَقْرَؤُهُ كَما جاءَ :

« سَيِّدي :

« لَقَدْ عَرَفْتُ الخَبَرَ ، وَأَعْتَقِدُ أَنَّكَ تَسَبَّبْتَ في مَوْتِهِ . لَقَدْ كُنْتَ عَلى دَرَجَةٍ كَبيرَةٍ مِنَ السَّذاجَةِ عِنْدَما حاوَلْتَ ، كَما سَمِعْتُ ،

مُساعَدَتَهُ . وَلَوْ أَنَّكَ أَنْقَذْتَهُ ، لاعْتَبَرْتُكَ عَدُوّي ، وَلَكِنْ ما دُمْتَ لَمْ تُفْلِحْ في إِنْقاذِهِ ، فَأَنْتَ صَديقي ، وَسَأُجازيكَ بِمُحاوَلَةِ إِشْباعِ فُضولِكَ .

« كُنْتُ مُتَزَوِّجَةً بِرَجُلٍ أَبْلَهَ ، وَتَعَرَّفْتُ بَعْدَ ذَلِكَ عَلى رَجُلٍ آخَرَ لَنْ أَدْعُوَهُ بِاسْمِهِ . أَنْتَ تَعْرِفُ اسْمَهُ جَيِّدًا ، مِثْلَما أَعْرِفُهُ ، قَدَّمَ لِيَ الكَثيرَ مِنَ الهَدايا – هَدايا كُنْتُ أُحِبُّها ، وَبِالطَّبْعِ فَقَدْ أَرادَ شَيْئًا في مُقابِلِها . ماذا تَظُنُّ أَنَّهُ أَرادَ مِنّي ؟ لا شَيْءَ سِوى مِفْتاحِ حُجْرَةِ السِّجِلّاتِ دونَ عِلْمِ زَوْجي ، وَحَصَلْتُ عَلَيْهِ وَأَعْطَيْتُهُ إِيّاهُ .

« بِالطَّبْعِ ، كُنْتُ أَعْرِفُ أَنَّ هَذا خَطَأٌ ، وَلَكِنَّهُ لَنْ يُضيرَني ، فَأَهْداني ساعَةً ذَهَبِيَّةً . أَرَدْتُ أَنْ أَعْرِفَ سَبَبَ حاجَتِهِ إِلى المِفْتاحِ فَأَخْبَرَني . لَقَدْ أَرْغَمْتُهُ عَلى أَنْ يُخْبِرَني ، وَهَذِهِ هِيَ كُلُّ الحِكايَةِ .

« أَخْبَرَهُ أَبوهُ أَنَّهُ هُوَ وَأُمَّهُ لَمْ يَكونا مُتَزَوِّجَيْنِ . وَلَمْ يَتْرُكِ الأَبُ وَصِيَّةً عِنْدَ وَفاتِهِ ، فَجاءَ الابْنُ إِلى إِنْجِلْترا عَلى وَجْهِ السُّرْعَةِ لِيَتَمَلَّكَ البَيْتَ وَالأَرْضَ قَبْلَ أَنْ تَثورَ أَيَّةُ مُشْكِلَةٍ ، وَلَكِنَّهُ حينَ أَرادَ أَنْ يَقْتَرِضَ مَبْلَغًا مِنَ المالِ عَلى أَمْلاكِهِ ،كانَ عَلَيْهِ أَنْ يُقَدِّمَ شَهادَةَ زَواجِ أَبَوَيْهِ ، وَهَذا ما لَمْ يَسْتَطِعْ أَنْ يَفْعَلَهُ .

« وَجاءَ إِلى أُولد ولمنغهام ، وَكانَتْ أُمُّهُ امْرَأَةً مُتَزَوِّجَةً قَبْلَ أَنْ تُقابِلَ أَباهُ ، وَلَكِنَّها هَجَرَتْ زَوْجَها وَجاءَتْ إِلى أُولد ولمنغهام .

وَكانَ الأَبُ يَعيشُ مُتَكَتِّمًا خُصوصِيّاتِهِ ، وَمِنَ الجائِزِ أَنْ يَكونَ النّاسُ قَدْ ظَنّوا أَنَّ زَواجَهُ قَدْ تَمَّ أَيْضًا عَلى نَهْجِ حَياتِهِ ، إِذًا ما كانَ هُناكَ ما يَدْعوهُمْ إِلى العَجَبِ .

« كانَتْ فِكْرَةُ بيرسيڤال الأُولى أَنْ يُمَزِّقَ صَفْحَةَ السِّجِلِّ الَّتي تَحْمِلُ التّاريخَ المَقْصودَ ، وَلَكِنَّهُ عِنْدَما رَأى الفَراغَ الخالِيَ مِنَ الكِتابَةِ وَالمَتْروكَ في نِهايَةِ الصَّفْحَةِ ، انْتَهَزَ الفُرْصَةَ وَمَلَأَها بِبَياناتِ زَواجِ أَبيهِ . وَكانَ قَدْ دَأَبَ مُنْذُ وَقْتٍ طَويلٍ ، عَلى صُنْعِ حِبْرٍ مِنْ لَوْنٍ مُطابِقٍ ، وَتَمَرَّنَ عَلى الخَطِّ المَوْجودِ في السِّجِلِّ ، وَنَجَحَ في ذَلِكَ نَجاحًا كَبيرًا . كانَ طَيِّبَ الشُّعورِ نَحْوي . أَعْطاني ساعَةً ذَهَبِيَّةً أُخْرى ، ثُمَّ راحَ ، بَعْدَ ذَلِكَ ، يَدْفَعُ لي مَبالِغَ مِنَ المالِ عَلى شَريطَةِ أَنْ أُقيمَ هُنا . كانَ يَعْتَقِدُ أَنَّ جيراني لَنْ يُرَحِّبوا بِالحَديثِ إِلَيَّ هُنا ؛ لِذا لَنْ يَكونَ لَدَيَّ فُرْصَةٌ كَبيرَةٌ لِلْحَديثِ عَنْ سِرِّهِ . وَقَدْ رَفَضَ أَنْ يُصارِحَ أَحَدًا بِأَنَّ الشُّكوكَ القَديمَةَ عَنْ سُلوكي لَمْ تَكُنْ صادِقَةً ؛ لِأَنَّهُ لَوْ فَعَلَ ذَلِكَ فَقَدْ يَسْأَلُ النّاسُ عَمّا كُنّا نَتَهامَسُ بِهِ . أَتَفْهَمُ الآنَ كَمْ كُنْتُ أَكْرَهُهُ ؟ أَتَفْهَمُ الآنَ لِمَ أَنا مَسْرورَةٌ مِنْكَ ؟

« وَكانَ مَوْلايَ وَسَيِّدي يَأْذَنُ لي بِالسَّفَرِ بَيْنَ وَقْتٍ وَآخَرَ ، بِقَصْدِ تَغْييرِ المَكانِ . وَذَهَبْتُ مَرَّةً إِلى ليميريدج لِتَمْريضِ أُخْتٍ لي غَيْرِ شَقيقَةٍ . كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّها مَيْسورَةُ الحالِ ، وَلَكِنَّني لَمْ أَحْصُلْ عَلى

شَيْءٍ لأنَّها كانَتْ مُعْدَمَةً . ثُمَّ اصْطَحَبْتُ آن مَعي إلى الشَّمالِ ، وَأَلْحَقْتُها بِالمَدْرَسَةِ هُناكَ . وَتَعَلَّقَتِ السَّيِّدَةُ فيرلي بِابْنَتي تَعَلُّقاً أَبْلَهَ وَهكَذا بَدَلاً مِنْ أَنْ تَتَعَلَّمَ الكَثيرَ في المَدْرَسَةِ ، أَخَذَتْها إلى ليميريدج هاوس وَدَلَّلَتْها ، وَهُناكَ تَعَلَّقَتْ بِأَشْياءَ لا مَعْنى لَها ، فَكانَتْ تَلْبَسُ مَلابِسَ بَيْضاءَ دائِماً . وَعِنْدَما عُدْنا إلى بَيْتِنا اسْتَمَرَّتْ عَلى هَذا المِنْوالِ . طَبْعاً كُنّا نَتَشاجَرُ دائِماً . وَذاتَ يَوْمٍ تَسَلَّمْتُ خِطاباً غاضِباً مِنَ الرَّجُلِ الخَبيثِ – المُتَوَفّى الآنَ – أَغاظَني . وَكُنْتُ قَدْ صَرَّحْتُ أَمامَ ابْنَتي بِأَنَّني أَسْتَطيعُ أَنْ أُدَمِّرَ حَياتَهُ إِنْ فَتَحْتُ فَمي وَأَبَحْتُ بِسِرِّهِ . لَمْ أَقُلْ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَكِنَّ تَعْبيراتِ وَجْهِ ابْنَتي كانَ كافِياً لأَنْ أَطْرُدَها مِنَ الغُرْفَةِ في التَّوِّ وَاللَّحْظَةِ .

« يُمْكِنُكَ أَنْ تُخَمِّنَ الباقِيَ . وَفي أَثْناءِ إِحْدى زِياراتِهِ قالَتِ الفَتاةُ شَيْئاً عَنْ سِرِّهِ – وَلَوْ أَنَّها لَمْ تَكُنْ تَعْرِفُ ما هُوَ – جُنَّ جُنونُهُ ، وَبَعَثَ بِها إلى مُسْتَشْفى الأَمْراضِ العَقْلِيَّةِ حَيْثُ لا تَسْتَطيعُ أَنْ تَضُرَّهُ – وَكانَ مُسْتَشْفًى خاصًّا حَسَبَ طَلَبي . وَلِسوءِ الحَظِّ رَسَخَتْ فِكْرَةُ مَعْرِفَتِها لِلسِّرِّ في ذِهْنِها . وَسُرْعانَ ما أَدْرَكَتْ أَنَّهُ هُوَ الَّذي أَدْخَلَها مُسْتَشْفى الأَمْراضِ العَقْلِيَّةِ . وَكانَ أَوَّلَ ما قُلْتُهُ لِلْمُمَرِّضاتِ هُناكَ إِنَّها احْتُجِزَتْ لِمَعْرِفَتِها سِرَّهُ ، وَإِنَّها كانَتْ تَنْوي أَنْ تَبوحَ بِهِ ، وَتُدَمِّرَهُ عِنْدَما يَحينُ الوَقْتُ المُناسِبُ . مِنَ الجائِزِ أَنَّها قالَتْ لَكَ نَفْسَ

الشَّيْءِ ، وَلَكِنْ مَهْما قالَتْ ، فَإِنَّها لَمْ تَكُنْ تُدْرِكُ ما هُوَ .

« هَلْ أَشْبَعْتُ فُضولَكَ ؟ آمُلُ ذَلِكَ . أَرْجو أَنْ تَتَذَكَّرَ أَنَّكَ إِنْ ذَكَرْتَ هَذا الخِطابَ في أَيِّ وَقْتٍ لاحِقٍ ، فَإِنَّني سَأُنْكِرُ مَعْرِفَتي بِهِ . لَنْ أَعْتَرِفَ إِطْلاقاً بِأَنَّني قَدْ كَتَبْتُ إِلَيْكَ . »

وَلاحَظْتُ أَنَّ الخِطابَ لَمْ يَذْكُرْ نُسْخَةَ السِّجِلِّ بنولزبري ، فَاسْتَنْتَجْتُ أَنَّ السَّيِّدَةَ كاثيريك وَسير بيرسيڤال لَمْ يَكونا يَعْرِفانِ بِوُجودِها . وَلَكِنْ فيما عَدا ذَلِكَ ، لَمْ أَجِدْ شَيْئاً جَديداً بِالخِطابِ .

وَفي اليَوْمِ التّالي شَعَرْتُ بِالاضْطِرابِ وَأَنا أَتَلَقّى المُذَكِّرَةَ التّالِيَةَ مِنْ ماريان بَدَلاً مِنْ خِطابِها المُعْتادِ : عُدْ بِأَسْرَعِ ما يُمْكِنُكَ . اضْطُرِرْتُ إلى تَغْييرِ مَسْكَنِنا . تَعالَ إلى جور وُوك ، فولهام (رقم ٥) . سَأَكونُ بِانْتِظارِكَ . كِلانا في أَمانٍ وَبِخَيْرٍ ، وَلَكِنْ عُدْ .

ماريان

ماذا حَدَثَ ؟ لا بُدَّ أَنَّهُ الكونت هَذِهِ المَرَّةَ . كُنْتُ قَلِقاً ، وَلَكِنَّني كُنْتُ أَعْلَمُ أَنَّني أَسْتَطيعُ الاعْتِمادَ عَلى ماريان . وَكانَ عَلَيَّ أَنْ أَحْضُرَ التَّحْقيقَ في حادِثِ وَفاةِ سير بيرسيڤال في ذَلِكَ الصَّباحِ ، وَلَكِنَّهُ لِحُسْنِ الحَظِّ ، لَمْ يَسْتَغْرِقْ وَقْتاً طَويلاً . وَانْتَهى بِقَرارِ مَوْتِهِ قَضاءً وَقَدَراً ، فَرَحَلْتُ لِتَوِّي بِالقِطارِ السَّريعِ .

الفصلُ الحادي والعشْرون

كانتِ السّاعةُ تقْتربُ مِنَ العاشرةِ قبْلَ أنْ أصلَ إلى فولهام ، وَجاءَتْ لورا وَماريان إلى البابِ وَرحّبتا بي ، وكأنّما غِبْتُ عَنْهُما عِدّةَ شُهورٍ . وَأظْهرَتْ نَظراتُ لورا الّتي صارتْ أكْثرَ تألّقاً أنّ كُلَّ أخْبارِ مَوْتِ زَوْجِها كانَتْ قَدْ حُجِبتْ عنْها . كانَتْ سَعيدةً بِالبيْتِ الجَديدِ الّذي يَقعُ في مَنْطِقَةٍ جَميلةٍ بيْنَ أشْجارٍ وَحُقولٍ وَنَهرٍ . وَدَهِشْتُ كثيراً لِهذا التّحسُّنِ الكَبيرِ ، وَعرَفْتُ أنّني كُنْتُ مَديناً بِهِ لِحُبِّ ماريان وَرِعايَتِها لَها .

وَعِنْدما جَلَسْتُ أنا وَماريان وَحْدَنا حاوَلْتُ أنْ أشْكُرَها وَلَكِنّها حَوّلَتْ ناظِرَيْها إليَّ قائلَةً : « إنّكَ تَبْدو مُتْعَباً ، يا ولتر. أ كانَتْ رِسالتي إليْكَ صَدْمَةً لَكَ ؟»

« في البِدايَةِ فَقَطْ . أ كانَ السّببُ هُوَ فوسكو ؟»

« نعَمْ . رَأيْتُهُ أمْسِ . جاءَ إلى البيْتِ وَلَكِنّهُ لَمْ يَصْعَدْ إلَيْنا . رَأيْتُهُ مِنْ خِلالِ النّافِذةِ يَتَحدّثُ إلى رَجُلٍ في الجانِبِ المُقابِلِ مِنَ الطّريقِ . كانَ الرّجُلُ هُوَ صاحِبَ مُسْتَشْفى الأمْراضِ العَقْلِيّةِ ، يا ولتر !»

« هَلْ أراهُ الكونت البَيْتَ ؟»

« لا . كانا يَتَحدّثانِ وَكأنّهُما تَقابَلا صُدْفَةً . وَعِنْدما انْصَرَفَ الرّجُلُ الآخَرُ ، بَعَثَ الكونت لنا بِبِطاقَتِهِ . وَخَرجْتُ إلى الشّارِعِ كَيْ أقابِلَهُ . كُنْتُ مُصمِّمَةً على ألا يَدْخُلَ البَيْتَ . وتقدَّمَ بِانْحِناءَتِهِ وَابْتِسامَتِهِ المَقيتَةِ . لا أسْتَطيعُ أنْ أنْبِئَكَ بِما قالَهُ عَنّي ، وَلَكِنّني سَأُخْبِرُكَ بِما قالَهُ عَنْكَ . قالَ إنّهُ كانَ قَدْ تَرَكَ سير بيرسيفال يَتّبِعُ أهْواءَهُ هُوَ ، وَلَكِنْ ما دامَ الرّجُلُ قَدْ ماتَ ، فَإنّهُ سَيَتَصَرّفُ بِنَفْسِهِ إنِ اضْطُرَّ إلى ذَلِكَ ، وَإنّهُ يَعْتَقِدُ أنّهُ يَنْبَغي عَلَيْكَ ، الآنَ ، أنْ تُحَوِّلَ انْتِباهَكَ نَحْوَهُ ، وَإنّهُ قَدْ قابَلَ صاحِبَ مُسْتَشْفى الأمْراضِ العَقْلِيّةِ بِناءً على تَرْتيبٍ سابِقٍ ، وَلَكِنّهُ تَرَدّدَ في أنْ يَدُلَّهُ على البَيْتِ لِسَبَبٍ واحِدٍ لا غَيْرَ : مِنْ أجْلي أنا ، يا ولتر ، فَصَرَفَ الرّجُلَ حينَ تَذَكّرَ أنّني سَأقَعُ في مَتاعِبَ كَثيرَةٍ بِسَبَبِ تَدْبيرِ هَرَبِ لورا مِنَ المُسْتَشْفى ، وَأنّني سَأحْزَنُ إنْ هِيَ فارَقَتْني . وَطَلَبَ مِنّي شَيْئاً واحِداً فَقَطْ – أنْ أمْنَعَكَ مِنَ العَمَلِ ضِدّهُ . وَلَكِنّني لَمْ أعِدْهُ . قالَ : « حَذِّري السَّيِّدَ هارترايت بِأنّي رَجُلٌ ذَكِيٌّ وَلا أكْتَرِثُ بِالقانونِ . دَعيهِ يَقْتَنِعْ

بما لَديْهِ . وإنْ هاجَمني ، فَسَيَجِدُ فوسكو بِانْتِظارِهِ . ›› ثُمَّ حَيّاني بِانْحِناءَةٍ ، وَانْصَرَفَ . »

وَتَوَقَّفَتْ لَحْظَةً ثُمَّ واصَلَتْ حَديثَها : « وما إنْ دَخَلْتُ البَيْتَ ثانِيَةً حَتّى قَرَّرْتُ أنْ أتَصَرَّفَ . كانَ يَعْرِفُ مَكانَنا ، وَكانَ مِنَ الخَطَرِ البَقاءُ فيهِ . وَلَمْ يَكُنْ لَدَيَّ وَقْتٌ لأَكْتُبَ إلَيْكَ سِوى مُذَكِّرَةٍ موجَزَةٍ. وجِئْنا إلى هُنا . بِالطَّبْعِ لَمْ أُخْبِرْ لورا عَنِ الكونت .»

وَرَدَدْتُ عَلَيْها بِحَرارَةٍ وَامْتِنانٍ . وَسَأَلَتْني إنْ كُنْتُ أنْوي الاسْتِمْرارَ في مُواجَهَةِ الكونت . وَعِنْدَما أجَبْتُها بِأنّي مُصَمِّمٌ عَلى المُضِيِّ في طَريقي ، تَأَلَّقَتْ عَيْناها . كانَتْ جِدَّ سَعيدَةٍ .

اِسْتَطْرَدْتُ قائِلاً : « هُناكَ صُعوباتٌ كَثيرَةٌ أمامَنا ، وَلكِنْ يُمْكِنُنا الصَّبْرُ وَالأناةُ . وَفي هَذِهِ الأَثْناءِ ، أرى أَنَّهُ لا بُدَّ أنْ تُخْبِري لورا عَنْ مَوْتِ زَوْجِها . قَدْ تَسْمَعُ عَنْهُ صُدْفَةً ، وَمِنَ الأَفْضَلِ أنْ تَعْرِفَهُ مِنْكِ .»

وَ وَعَدَتْ بِأنْ تَفْعَلَ ذَلِكَ حينَ تَسْنَحُ فُرْصَةٌ . وَعُدْنا شَيْئًا فَشَيْئًا إلى حَياتِنا المُعْتادَةِ ، وَلَمْ نَعُدْ نَتَحَدَّثُ عَنْ سير بيرسيڤال .

وَاكْتَشَفْتُ أنَّ الكونت سَيَبْقى في إنْجِلْترا . كانَ مِنَ السَّهْلِ عَلَيَّ أنْ أَتَوَصَّلَ إلى هَذِهِ الحَقيقَةِ إذْ كُنْتُ أعْرِفُ عُنْوانَهُ ، فَسَأَلْتُ

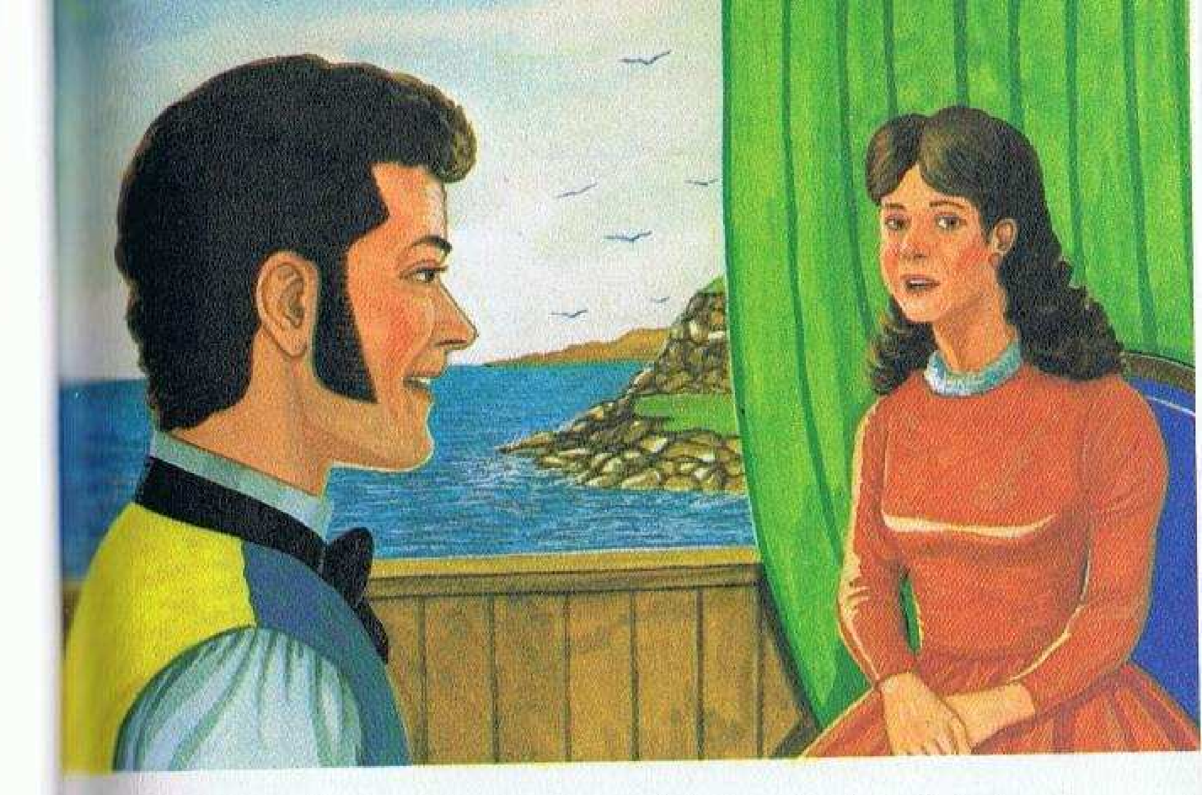
سِمْسارَ العَقاراتِ إنْ كُنْتُ أَسْتَطيعُ اسْتِئْجارَ بَيْتِهِ ، فَأَخْبَرَني بِاسْتِحالَةِ طَلَبي لأنَّ مُسْتَأْجِرَهُ لَنْ يُغادِرَهُ .

وَمَرَّتْ أَرْبَعَةُ أَشْهُرٍ ، وَازْدادَ تَحَسُّنُ صِحَّةِ لورا . بَدَأَتْ ذِكْرَياتُها عَنْ ليميريدج تَعودُ إلَيْها . لَمْ يَفْتُرْ حُبّي لَها في يَوْمٍ مِنَ الأَيّامِ . وَبَدَأْتُ أُلاحِظُ نَفْسَ فَتَراتِ الصَّمْتِ ، كَما كانَ يَحْدُثُ في الماضي ، عِنْدَما كُنّا نَجْلِسُ في غُرْفَةٍ بِمُفْرَدِنا ، وَنَفْسَ التَّرَدُّدِ في طَريقَتِها ، وَنَفْسَ اخْتِلاجاتِ يَدَيْها . وَلَمْ يَمْضِ وَقْتٌ طَويلٌ قَبْلَ أنْ أتَحَدَّثَ إلى ماريان عَنْ حُبّي. وَكُنّا قَدْ ذَهَبْنا إلى السّاحِلِ الجَنوبِيِّ لِقَضاءِ عُطْلَةٍ قَصيرَةٍ ، وَرَأَيْتُ أنَّها فُرْصَةٌ طَيِّبَةٌ .

قُلْتُ : « لَقَدِ اسْتَرْشَدْتُ بِنَصيحَتِكِ في الماضي ، وَالآنَ سَأَسْتَرْشِدُ بِها مَرَّةً أُخْرى . أَخْبِريني ماذا أَفْعَلُ ؟»

كُنّا نَجْلِسُ مَعًا بِجِوارِ النّافِذَةِ ، وَبَيْنَما كُنْتُ أَتَحَدَّثُ وَهِيَ تُصْغي إلَيَّ ، كُنّا نَتَأَمَّلُ بَهاءَ ضَوْءِ الشَّمْسِ وَهِيَ تَسْطَعُ عَلى رَوْعَةِ البَحْرِ .

وَمَضَيْتُ أَقولُ : « مَهْما يَحْدُثْ ، فَإنَّني مُصَمِّمٌ عَلى مُهاجَمَةِ الكونت . قَدْ يُهاجِمُني في شَخْصِ لورا . أنا الآنَ لَيْسَ لِيَ الحَقُّ القانونِيُّ في التَّصَرُّفِ نِيابَةً عَنْها . عَلَيَّ أنْ أُحارِبَ مِنْ أجْلِ زَوْجَتي ، أ تُوافِقينَ عَلى ذَلِكَ ، يا ماريان ؟»



أجابَتْ : « أوافِقُ على كُلِّ كَلِمَةٍ مِمّا قُلْتَ .»

قُلْتُ : « عَلَيْنا أنْ نَكْتَشِفَ هَذا التّاريخَ المَفْقودَ . لورا لا تَسْتَطيعُ أنْ تَتَذَكَّرَ شَيْئًا مِمّا حَدَثَ في لَنْدَن ، وَالقانونُ لَنْ يُسْعِفَنا إطْلاقًا . يَبْدو أنْ لَيْسَ هُناكَ سِوى فُرْصَةٍ ضَئيلَةٍ جِدًّا في النَّجاحِ ، وَلَكِنْ عَلَيْنا أنْ نَمْضِيَ قُدُمًا . ماريان ، لا بُدَّ لي أنْ أحارِبَ مِنْ أجْلِ زَوْجَتي .»

قالَتْ : « ولتر ؛ لَقَدْ فَرَّقْتُ بَيْنَكُما ذاتَ مَرَّةٍ . انْتَظِرْ هُنا ، يا أرْوَعَ ويا أعَزَّ صَديقٍ ، حَتّى تَأْتِيَ لورا وَتُخْبِرَكَ ماذا فَعَلْتُ الآنَ .»

وَغادَرَتِ الغُرْفَةَ .

وَفُتِحَ البابُ وَدَخَلَتْ لورا وَحْدَها - دَخَلَتْ وَلَهْفَةُ السَّعادَةِ بادِيَةٌ في خُطُواتِها .

قالَتْ : « يا أعَزَّ حَبيبٍ ، ما أسْعَدَني بِكَ ! »

وَبَعْدَ عَشَرَةِ أيّامٍ كُنّا أكْثَرَ سَعادَةً - كُنّا زَوْجَيْنِ .

الفصلُ الثّاني والعِشْرون

لا بُدَّ أنْ أمرَّ ، في عُجالَةٍ ، على تِلْكَ الأيّامِ السَّعيدَةِ لأصِلَ إلى الوَقْتِ الَّذي تَعامَلْتُ فيهِ مَعَ الكونت . لَمْ أكُنْ قَدْ رَأيْتُهُ طيلَةَ حَياتي ، فقَرَّرتَ كَيْ أبْدأَ عَمَلي أنْ أراهُ . وَانْتَظَرْتُ ذاتَ يَوْمٍ خارِجَ بَيْتِهِ ، حتّى رَأيْتُهُ خارِجاً مِنْهُ . كانَ رَجُلاً ضَخْماً بَديناً يُناهِزُ السِّتّينَ . وَكانَ شَديدَ الاعْتِزازِ بِنَفْسِهِ ، ويَمْشي في خُيَلاءَ . وتَبِعْتُهُ ، وإذْ بِهِ يَتَوقَّفُ أمامَ إعْلانٍ عَنْ دارِ الأوبرا ، وَبَعْدَ أنْ وَقَفَ أمامَهُ هُنَيْهَةً نادى على مَرْكَبَةٍ انْطَلَقَتْ بِهِ . ولَمْ يَكُنْ ثَمَّ شَكٌّ في أنَّهُ ذاهِبٌ لِشِراءِ تَذْكِرَةٍ لَهُ ، فَقَرَّرتُ أنْ أذْهَبَ إلى هُناكَ أيْضاً ، وَأنْ آخُذَ مَعي صَديقِيَ العَزيزَ بيسكا ، لأرى إنْ كانَ يَسْتَطيعُ أنْ يَتَعَرَّفَ على عَدُوّي ، وقَدْ يَسْتَطيعُ أنْ يَقولَ لي شَيْئاً عَنْهُ .

كانَ مِنَ اليَسيرِ أنْ أجِدَ الكونت حينَ دُخولنا دارَ الأوبرا . وَجَلَسْتُ أنا وَبيسكا في مَقْعَدَيْنِ إلى جِوارِ مَقْعَدِهِ ، وَانْتَظَرْنا حتّى

انْتَهى الفَصْلُ الأوَّلُ ، وَهُنا نَهَضَ الكونت وَهُوَ يَبْتَسِمُ ابْتِسامَةَ الأكابِرِ ، وَراحَ يَتَفَحَّصُ المُتَفَرِّجينَ في مُخْتَلِفِ أرْجاءِ المَسْرَحِ . وَانْتَهَزْتُ الفُرْصَةَ فَأشَرْتُ لِبيسكا نَحْوَهُ وَسَألْتُهُ عَمّا إذا كانَ يَعْرِفُهُ .

لكِنَّهُ لَمْ يَعْرِفْهُ . سَألْتُهُ ثانِيَةً ، وَدَفَعْتُ بِهِ إلى مَوْقِعٍ أعْلى حَتّى يَسْتَطيعَ أنْ يَراهُ على نَحْوٍ أفْضَلَ ، وَلكِنْ دونَ جَدْوى . لَمْ يَسْتَطِعْ صَديقي أنْ يَتَعرَّفَ على عَدُوّي .

وَنَظَرَ رَجُلٌ نَحيفٌ خَفيفُ الشَّعْرِ كانَ يَقِفُ بِجِوارِنا – رَجُلٌ كانَتْ بِهِ عَلامَةٌ على خَدِّهِ الأيْسَرِ – نَظَرَ بِاهْتِمامٍ إلى بيسكا وَأنا أساعِدُهُ إلى المَكانِ الأعْلى ، ثُمَّ نَظَرَ بِاهْتِمامٍ أكْبَرَ إلى الكونت . وَفي تِلْكَ الأثْناءِ كانَ بيسكا يَنْظُرُ بِإمْعانٍ إلى وَجْهِ الكونت الضَّخْمِ ، وَفَجْأةً الْتَقَتْ أعْيُنُ الإيطالِيَّيْنِ .

لَمْ يَكُنْ بيسكا يَعْرِفُ الكونت ، وَلكِنْ كانَ مِنَ الواضِحِ ، لأوَّلِ وَهْلَةٍ ، أنَّ الكونت يَعْرِفُ بيسكا وَيَخْشاهُ أيْضاً . اِرْبَدَّ وَجْهُهُ ، وَانْطَفَأ بَريقُ عَيْنَيْهِ ، وَتَلاشَتِ ابْتِسامَتُهُ الجَذْلى . وَما هِيَ إلاّ هُنَيْهَةٌ حَتّى غادَرَ المَسْرَحَ في هُدوءٍ . كَما لاحَظْتُ أنَّ الرَّجُلَ النَّحيفَ الَّذي كانَ بِجِوارِنا قَدِ انْصَرَفَ هُوَ الآخَرُ ، وَجَذَبْتُ بيسكا إلى الخارِجِ أيْضاً وَهُوَ دَهِشٌ لِلْغايَةِ .

صاحَ : « ما الخَبَرُ ؟ ما الخَبَرُ بِحَقِّ السَّماءِ ؟ »

كانَ تَلَهُّفُ الكونت على أنْ يُفلِتَ مِنْ بيسكا يَعْني أنَّهُ سيُغادِرُ لَنْدن ويُفْلِتُ مِنّي . وتَعَجَّلْتُ بيسكا في العَوْدَةِ إلى بَيْتِهِ ، وفي غُرْفَتِهِ أخْبَرْتُهُ بِكُلِّ شَيْءٍ كما أرْويهِ هُنا .

قُلْتُ : « إنَّهُ يَعْرِفُكَ . اِسْتَعْرِضْ حَياتَكَ قَبْلَ مَجيئِكَ إلى إنْجِلْترا . إنَّهُ يَخْشاكَ . لِمَ ؟ »

وَأحْدَثَتْ كَلِماتي العادِيَّةُ في ظاهِرِها ، نَفْسَ الأثَرِ عَلى بيسكا مِثْلَما أحْدَثَتْهُ رُؤْيَةُ بيسكا على الكونت ؛ أُمْتُقِعَ وَجْهُهُ ، وَارْتَعَدَ مِنْ قِمَّةِ الرَّأْسِ إلى أخْمَصِ القَدَمَيْنِ ، وهَمَسَ قائِلاً : « أنْتَ لا تَعْرِفُ خُطورَةَ ما تَسْأَلُ . أ لَيْسَ ثَمَّةَ طَريقٌ آخَرُ لَكَ لِلْوصولِ إلَيْهِ ؟ أ لَيْسَ ثَمَّةَ طَريقٌ آخَرُ ؟ »

« نَعَمْ . »

قالَ بَعْدَ فَتْرَةِ صَمْتٍ : « لَقَدْ أنْقَذْتَ حَياتي مَرَّةً ، لِذا فَهِيَ مِلْكٌ لَكَ ، وَسَأُخْبِرُكَ . وَلَكِنَّني بِذَلِكَ أضَعُ حَياتي في يَدَيْكَ . »

أخْبَرَني أنَّهُ عِنْدَما كانَ في إيطاليا ، انْضَمَّ إلى جَمْعِيَّةٍ سِرِّيَّةٍ ، تُدْعَى « الأخُوَّة » . كانَ هَدَفُها مُسانَدَةَ حُقوقِ الشَّعْبِ . وَكانَ مِنْ مَبادِئِها أنَّهُ إنْ كانَتْ حَياةُ المُواطِنِ ذاتَ نَفْعٍ ؛ فَلَهُ الحَقُّ في التَّمَتُّعِ

بِها ، أمّا إنْ كانَتْ حَياتُهُ مَصْدَرَ شَرٍّ لِمُواطِنيهِ ؛ فالمَوْتُ جَزاؤُهُ . وَحينَئِذٍ يَقْتُلُهُ عُضْوٌ مِنْ جَماعَةِ « الأخُوَّة » سِرًّا بِأمْرٍ مِنْ رَئيسٍ أوْ أمينِ الجَماعَةِ في حَيِّهِ . وَكانَ بيسكا أحَدَ أمناءِ هَذِهِ الجَمْعِيَّةِ ، فَكانَ كُلُّ عُضْوٍ يَنْضَمُّ إلَيْها يَمْثُلُ أمامَهُ ؛ وَمِنْ ثَمَّ فَمِنَ الجائِزِ أنْ يَنْسى بِسُهولَةٍ وُجوهاً كَثيرَةً ، وَلَكِنَّ أصْحابَها لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّهْلِ عَلَيْهِم أنْ يَنْسَوْهُ . وَكانَ عَلى كُلِّ عُضْوٍ وَشْمٌ ، أوْ سِمَةٌ تَبْقى طولَ حَياتِهِ .

وَرَفَعَ ذِراعَهُ العارِيَةَ وَأراني عَلامَةً مَحْفورَةً بِالكَيِّ في اللَّحْمِ في الجُزْءِ الأعْلى تَحْتَ الإبِطِ ، وقالَ : « إنَّ الرَّجُلَ الَّذي يَخونُ جَماعَةَ ‹‹ الأخوَّة ›› يُقتَلُ . لا تَسْتَطيعُ أيُّ قَوانينَ بَشَرِيَّةٍ أنْ تَحْميَهُ . هَذا ما يَجِبُ أنْ أقولَهُ لَكَ . إنْ كانَ الرَّجُلُ الَّذي رَأَيْناهُ بِدارِ الأوبرا يَعْرِفُني ، فَلا بُدَّ أنَّهُ تَغَيَّرَ كَثيراً حَتَّى إنَّني لا أسْتَطيعُ مَعْرِفَتَهُ . أقولُ أنا لا أعْرِفُ شَيْئاً عَنْهُ ، وَأُناشِدُكَ اللَّهَ ألا تَقولَ لي شَيْئاً عَنْهُ . لَنْ أزيدَ عَلى هَذا . اُتْرُكْني قَليلاً ، يا ولتر . لَقَدْ هَزَّ ما قُلْتَهُ أعْصابي . »

وَهَوى في مَقْعَدِهِ وَهُوَ يَدْفِنُ وَجْهَهُ بَيْنَ راحَتَيْهِ . وَخَرَجْتُ صامِتاً .

لَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ شَكٌّ في أنَّ الكونت كانَ عُضْواً في جَمْعِيَّةِ « الأخُوَّة » ، وَأنَّهُ خانَها . إنْ لَمْ يَكُنْ ذَلِكَ صَحيحاً فَلِمَ كانَ خائِفاً مِنْ بيسكا ؟ لِذَلِكَ فَإنَّهُ رُبَّما يُغادِرُ إنْجِلْترا لِتَوِّهِ ، وَيَنْبَغي عَلَيَّ أنْ أراهُ فَوْراً ، وَأُرْغِمَهُ عَلى إعْطائي الأدِلَّةَ الَّتي كُنْتُ أُريدُها . وَهَذا

سيكونُ ، دونَ شكٍّ ، مصدَرَ خطرٍ كبيرٍ ، وَمِنْ ثَمَّ يجِبُ أنْ أعملَ أوّلاً على سلامتي ، وذَلِكَ مِنْ أجْلِ لورا إنْ لَمْ يكُنْ مِنْ أجْلي .

وَعُدْتُ إلى البيْتِ ، وكَتَبْتُ ما يلي لِپيسكا :

« الرَّجُلُ الّذي رَأيْتَهُ في دارِ الأوبرا ، عُضْوٌ في جَمْعيَّةِ « الأخوَّة » وقَدْ خانَها . بادِرْ باسْتِخْدامِ سُلْطَتِكَ في الحالِ ضِدَّ ذَلِكَ الرَّجُلِ . إنَّهُ يَسْكُنُ في البيْتِ رَقْمِ ٥ شارِعِ فورست ، سانت جونز وود . لَقَدْ خاطَرْتُ بِكلِّ شَيْءٍ ، وَخَسِرْتُ ، دافِعًا حَياتي ثَمنًا لِفشَلي – ولتر هارترايت . »

وَ وَضعْتُ هَذِهِ الأسْطُرَ في ظَرْفٍ كَتَبْتُ عَلَيْهِ : « اِحْتَفِظْ بِهَذا حَتّى التّاسِعَةِ مِنْ صَباحِ الغَدِ . إنْ لَمْ أكْتُبْ إلَيْكَ قَبْلَ ذَلِكَ الوَقْتِ ، افْتَحْهُ واقْرأْهُ . »

ثُمَّ وَضعْتُ الظَّرْفَ في ظَرْفٍ ثانٍ ، وَبَعثْتُ بِهِ إلى صَديقي .

وَ وَصَلَ رَدُّهُ بَعْدَ ذَلِكَ وكانَ كالآتي:

« تَلَقَّيْتُ خِطابَكَ . إنْ لَمْ أرَكَ قَبْلَ الوَقْتِ المَذْكورِ ، فَسأَفْتَحُ الظَّرْفَ حينَ تَدُقُّ السّاعَةُ التّاسِعَةَ . »

وَغادَرْتُ البيْتَ وَذَهَبْتُ إلى شارِعِ فورست ، وَصَعِدْتُ إلى

مَرْكَبَةٍ وَقَدْ تَملَّكَني شُعورٌ بِالقَلَقِ حَتّى وَصَلْتُ إلى وُجْهَتي ، وَعِنْدَما صرفْتُها رأيْتُ ثانِيَةً الرَّجُلَ النَّحيفَ ذا العَلامَةِ على خَدِّهِ . أ كانَ وُجودُه في هَذا الشّارِعِ مُجَرَّدَ صُدْفَةٍ ، أمْ أنَّهُ تَتبَّعَ الكونت مِن دارِ الأوبرا إلى بَيْتِهِ ؟ لَمْ يَكُنْ لَدَيَّ وَقْتٌ أفكِّرُ فيهِ في مِثْلِ هَذِهِ الأمورِ، وَلَكِنَّني بَعثْتُ بِاسْمي إلى الكونت . وَبَعْدَ تَلَكُّؤٍ أذِنَ لي بِدُخولِ بَيْتِهِ .

رَأيْتُهُ يَحْزِمُ أشْياءَهُ ، فَقُلْتُ لَهُ : « يَبْدو أنَّكَ موشِكٌ عَلى السَّفَرِ .»

سَأَلَ : « هَلْ مُهِمَّتُكَ لَها عَلاقَةٌ بِسَفَري ؟»

« إلى حَدٍّ ما .»

« أ تَعْرِفُ أيْنَ سَأذْهَبُ ؟»

« لا ، لا أعْرِفُ سِوى سَبَبِ رَحيلِكَ مِنْ لَنْدَن .»

وَانْسَلَّ مِن أمامي في هُدوءٍ ورَوِيَّةٍ ، وَأغْلَقَ البابَ ، وَ وَضَعَ المِفْتاحَ في جَيْبِهِ .

سَأَلَ : « أ تَظُنُّ أنَّكَ تَسْتَطيعُ أنْ تَعْبَثَ مَعي ؟»

قُلْتُ : « لَمْ أجِئْ إلى هُنا لأعْبَثَ مَعَكَ . إنَّني هُنا في مَسْألَةِ حَياةٍ أوْ مَوْتٍ ، وَلَوْ فُتِحَ البابُ الآنَ ، فَلَنْ أخْرُجَ .»

وَجلَسَ إلى مِنْضَدَةٍ وَقالَ : « مِنْ فَضْلِكَ ، أخبِرْني لِمَ سأغادِرُ لَنْدَن . »

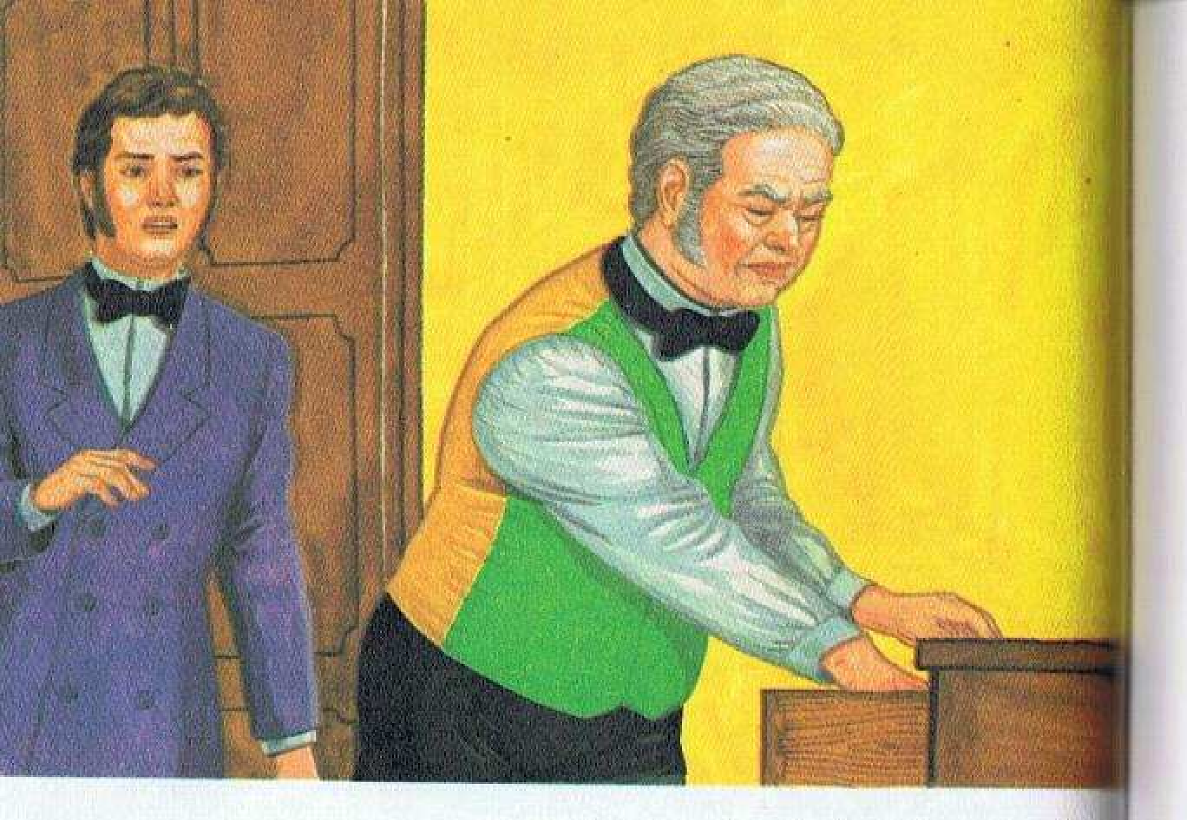
« سَأَفْعَلُ ما هُوَ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ . سَأُريكَ . أَنْتَ لَسْتَ مُرْتَدِيًا مِعْطَفَكَ . اِرْفَعْ رُدْنَ قَميصِكَ فَوْقَ ذِراعِكَ اليُسْرى ؛ وَسَتَرى السَّبَبَ . »

وَارْبَدَّ وَجْهُهُ ، وَحَمْلَقَتْ عَيْناهُ في حِقْدٍ مَريرٍ إلى عَيْنَيَّ ، وَلَمْ يَقُلْ شَيْئًا ، وَلَكِنَّهُ فَتَحَ دُرْجَ المِنْضَدَةِ بِيَدِهِ اليُسْرى بِبُطْءٍ ، وَدَسَّ يَدَهُ فيهِ ؛ فَسَمِعْتُ صَوْتَ شَيْءٍ ثَقيلٍ بِداخِلِهِ . كانَتْ حَياتي في كِفَّةِ القَدَرِ .

قُلْتُ : « اِنْتَظِرْ لَحْظَةً . لَدَيَّ شَيْءٌ أُريدُ قَوْلَهُ . »

« لَقَدْ قُلْتَ ما يَكْفي . إنَّني أُفَكِّرُ في تَهْشيمِ رَأْسِكَ وَبَعْثَرَتِهِ في أَرْجاءِ الغُرْفَةِ . »

أَجَبْتُ : « قَبْلَ أَنْ تُقَرِّرَ ذَلِكَ ، اقْرَأْ هَذا . » وَأَعْطَيْتُهُ رَدَّ بيسكا عَلى خِطابي . وَفَهِمَ لِتَوِّهِ ، ما فَعَلْتُهُ ، فَأَخْرَجَ يَدَهُ مِنَ الدُّرْجِ خاوِيَةً قائِلاً : « إِنَّكَ أَذْكى مِمّا ظَنَنْتُ . هَيّا إلى المَوْضوعِ الَّذي جِئْتَ مِنْ أَجْلِهِ . ماذا تُريدُ ؟ كَمْ مِنَ الوَقْتِ تُعْطيني قَبْلَ أَنْ يُفْتَحَ الخِطابُ ؟ »



« حَتّى التّاسِعَةِ مِنْ صَباحِ الغَدِ . »

« التّاسِعَةُ ؟ نَعَمْ . نَعَمْ . إنَّ فَخَّكَ مَنْصوبٌ لي بِبَراعَةٍ . هَلّا قُلْتَ لي ما تُريدُ ؟ »

قُلْتُ : « أَنْتَ تَعْلَمُ أَنَّكَ ارْتَكَبْتَ خُدْعَةً بَشِعَةً ، كَسَبْتَ بِها عَشَرَةَ آلافِ جُنَيْهٍ . لا أُريدُ أَيَّ نُقودٍ ذَهَبَتْ إلى يَدَيْكَ الآثِمَتَيْنِ ، وَلَكِنَّني أُريدُ اعْتِرافًا كامِلاً مُوَقَّعًا بِإِمْضائِكَ ، وَدَليلاً عَلى التّاريخِ الَّذي غادَرْتَ فيهِ سَيِّدَةٌ هِيَ الآنَ زَوْجَتي ، بلاكووتر ، وَسافَرْتَ إلى لَنْدَن . »

قالَ بِهُدوءٍ : « هكَذا ! لَقَدْ وَجَدْتُ نُقْطَةَ الضَّعْفِ . أ تُريدُ شَيْئاً آخَرَ ؟»

« لا .»

« لِنفرِضْ أنّني وافقْتُ . سأكْتُبُ الإقْرارَ ، وأسْتَطيعُ أنْ أعْطِيكَ خطاباً كَتَبَهُ صَديقي المُتوفّى يُخْبِرُني فيهِ عَنْ وَقْتِ وُصولِ زَوْجَتِهِ إلى لَنْدن مُوَقَّعاً مِنْهُ وَمُؤَرَّخاً . أ هَذا يَكْفي ؟ أسْتَطيعُ أيْضاً أنْ أخْبِرَكَ بِاسْمِ الرَّجُلِ الَّذي أجَّرَ المَرْكَبَةَ الَّتي قابَلْتُ فيها ليدي غلايد في المحطَّةِ . إنَّ دفاتِرَهُ سَتَدُلُّكَ على ذَلِكَ التّاريخ ، ولكِنَّني سأفْعَلُ هذهِ الأشْياءَ بِشُروطي . أوَّلاً : أغادِرُ أنا وَزَوْجَتي هَذا البَيْتَ عِنْدَما نُريدُ . ثانياً : أنْ تُرْسِلَ وَكيلي الَّذي سَيَأتي إلى هُنا في السَّاعَةِ السَّابِعَةِ ، مَعَ أمْرٍ كِتابِيٍّ إلى الرَّجُلِ الَّذي لَدَيْهِ خِطابُكَ ، تَطْلُبُ مِنْهُ أنْ يُعيدَهُ دونَ أنْ يَفْتَحَهُ ، وَأنْ تَبْقَى هُنا ، بَعْدَ وُصولِهِ ، نِصفَ ساعَةٍ قَبْلَ أنْ تُغادِرَ هَذا البَيْتَ . ثالِثاً : تُقابِلُني كَرَجُلٍ شَريفٍ في وَقْتٍ ما ، في المُسْتَقْبَلِ ، في أوروبّا ، حتى يُصَفِّيَ سَيْفانا نِزاعَنا ، بِصِفَةٍ نِهائِيَّةٍ .»

كانَ قَراراً واضِحاً وَسَريعاً ؛ إذْ قُلْتُ : « أقْبَلُ بِشَرْطٍ واحِدٍ : عِنْدَما يَأتي وَكيلُكَ بِخِطابي يُحْرَقُ دونَ أنْ يُفْتَحَ .»

قالَ : لَقَدْ قَبِلْتُ ؛ فَالأمْرُ لا يَسْتَأهِلُ المُناقَشَةَ .» ثُمَّ مَدَّ ذِراعَهُ مُصافِحاً وَقالَ : « هاكَ الدَّليلُ ! كانَتْ مَسْألَةً صَعْبَةً وَهِيَ تَأخُذُ

مَجْراها ، وَلَكِنْ ها هِيَ ذي قَدِ انْتَهَتْ .»

وَتَناوَلَ بَعْضَ الأوْراقِ ، وَجَلَسَ لِتَوِّهِ لِيَكْتُبَ عَنْ طيبِ خاطِرٍ . راحَ يَكْتُبُ بِسُرْعَةٍ مُتَناهِيَةٍ ، السَّاعَةَ تِلْوَ السَّاعَةِ ، دونَ أنْ يَتَوَقَّفَ لَحْظَةً واحِدَةً ، حَتّى أحاطَتْ بِهِ كَوْمَةٌ مِنَ الوَرَقِ . وَعِنْدَ السَّاعَةِ الرّابِعَةِ ، وَقَّعَ في النِّهايَةِ ، بِاسْمِهِ . وَصاحَ وَهُوَ يَثِبُ وَكَأنَّهُ شابٌّ في مَيْعَةِ الصِّبا : « لَقَدْ تَمَّتْ مُهِمَّتي ، يا سَيِّدُ هارترايت ! انْتَهَتْ ! وَالآنَ هَيّا نُرَتِّبْها جَميعاً .»

وَجَلَسَ عَلى الأرْضِ وَشَبَّكَها مَعاً بِقِطْعَةٍ مِنَ الخَيْطِ ، ثُمَّ كَتَبَ عُنْوانَ الرَّجُلِ الَّذي اسْتَأجَرَ مِنْهُ المَرْكَبَةَ ، كَما ناوَلَني خِطابَ سير بيرسيڤال . وَكانَ مُؤَرَّخاً بِتاريخ ٢٥ يوليه ، وَكانَ يَحْمِلُ تاريخَ سَفَرِ ليدي غلايد إلى لَنْدن وَهُوَ يَوْمُ ٢٦ يوليه ، أيْ أنَّهُ في اليَوْمِ الَّذي تَوَهَّمَ فيهِ النّاسُ أنَّها قَدْ تُوُفِّيَتْ (يَوْمَ الخامِسِ وَالعِشْرينَ) كانَتْ هِيَ عَلى قَيْدِ الحَياةِ في هامبشير وَتَنْوي السَّفَرَ في اليَوْمِ التّالي .

وَاسْتَسْلَمَ الكونت لإغْفاءَةٍ قَصيرَةٍ ، وَما إنِ اسْتَيْقَظَ حَتّى وَصَلَ وَكيلُهُ ، وَكانَ أجْنَبِيّاً ذا لِحْيَةٍ سَوْداءَ .

قالَ الكونت مُقَدِّماً إيّانا : « السَّيِّدُ هارترايت – السَّيِّدُ ريوبل .» وَكَتَبْتُ سَطْرَيْنِ إلى پيسكا راجِياً إيّاهُ أنْ يُسَلِّمَ خِطابي إلى ذَلِكَ

الرَّجُلِ ، وَناوَلْتُهُ رِسالَتي . وَفَحَصَ الكونت العُنْوانَ ، وقالَ وَهُوَ يَرْمُقُني بِنَظْرَةٍ حاقِدَةٍ : « هذا ما ظَنَنْتُهُ .»

وأَكْمَلَ حَزْمَ حَقائِبِهِ ، ثُمَّ بَدَأَ يَدْرُسُ خَريطَةً مَعَهُ ، وَهُوَ يَنْظُرُ ، بَيْنَ الحينِ والحينِ ، في قَلَقٍ إلى ساعَتِهِ . وَقُبَيْلَ السّاعَةِ الثّامِنَةِ ، عادَ ريوبل ، وَأَحْرَقَ الخِطابُ الّذي جاءَ بِهِ في الحالِ . وَنُقِلَتْ حَقائِبُ السَّفَرِ إلى مَرْكَبَةِ ريوبل ، وَاسْتَقَلَّتِ الكونتيسةُ فوسكو المَرْكَبَةَ . وَالْتَفَتَ الكونت إلَيَّ لِيَقولَ لي كَلِمَةً أخيرَةً .

قالَ : « أوصيكَ خَيْرًا بِالآنِسَةِ هالكوم . أوصيكَ بِها خَيْرًا . إنَّني قَلِقٌ عَلى تِلْكَ الفَتاةِ الرّائِعَةِ . أناشِدُكَ بِقَلْبي ، أَنْ تَهْتَمَّ بِها !» ثُمَّ دَفَعَ بِجِسْمِهِ البَدينِ إلى داخِلِ المَرْكَبَةِ ، وَرَحَلَ .

الفَصْلُ الثّالِثُ والعِشْرونَ

وَراقَبْتُهُما أنا وَالوَكيلُ حَتّى غابا عَنْ أَنْظارِنا ، ثُمَّ عُدْتُ إلى غُرْفَةِ الجُلوسِ لأَنْتَظِرَ نِصْفَ ساعَةٍ . وَقَضَيْتُ الوَقْتَ في قِراءَةِ اعْتِرافِ الكونت . كانَ إقْرارًا مُطَوَّلاً كُلُّهُ طَنْطَنَةٌ وَكَلِماتٌ مُنَمَّقَةٌ حَذَفْتُ الكَثيرَ مِنْها .

حِكايَةُ الكونت

وَصَلْتُ إلى إنجلترا مَعَ صَديقي سير بيرسيڤال غلايد عامَ ١٨٥٠ في عَمَلٍ سِياسِيٍّ لَنْ أَبوحَ بِهِ . كُنّا – نَحْنُ الاثْنَيْنِ – في حاجَةٍ إلى نُقودٍ ، نُقودٍ لا نَسْتَطيعُ أَنْ نَحْصُلَ عَلَيْها إلّا بِمَوْتِ زَوْجَتِهِ . وَكانَ لِصَديقي ، فَوْقَ ذَلِكَ ، مَتاعِبُ تَتَعَلَّقُ بِفَتاةٍ اسْمُها آن كاثيريك ، كانَ يَعْتَقِدُ أَنَّها تَعْرِفُ سِرًّا يُمْكِنُ أَنْ يَقْضِيَ عَلَيْهِ . لِذا رَكَّزْتُ كُلَّ مَواهِبي الذِّهْنِيَّةِ عَلى مُحاوَلَةِ العُثورِ عَلى هَذِهِ الفَتاةِ .

وَعلِمْتُ أنَّها كانَتْ تُشْبِهُ ليدي غلايد ، وَأنَّها هَرَبَتْ مِنْ مُسْتَشْفى الأمْراضِ العَقْلِيَّةِ . وَ وَثَبَتْ فِكْرَةٌ جبَّارَةٌ إلى ذِهْنِيَ المُتَوَقِّدِ – فِكْرَةٌ كانَتْ لَها ، بَعْدَ ذَلِكَ ، نَتائِجُ مُذْهِلَةٌ . كانَ عَلى الشَّابَّتَيْنِ أنْ يَتَبادَلا مَكانَيْهِما !

وَانْتَظَرْتُ عِنْدَ حَظيرَةِ القَوارِبِ في بلاكووتر ، وَلكِنْ ، بَدَلاً مِنْ مُقابَلَةِ آن كاثيريك ، كَما كُنْتُ أتَوَقَّعُ ، قابَلْتُ امْرَأةً أخْرى اصْطَحَبَتْني لِرُؤْيَتِها . كانَتْ مَريضَةً . وَبَدَأتُ خُطَطي . كُنْتُ قَدْ دَرَسْتُ الطِّبَّ فَأعْطَيْتُها ما كانَ ضَرورِيًّا لِتَقْوِيَتِها ، وَأعْدَدْتُ العُدَّةَ لِكَيْ تَذْهَبَ إلى لَنْدَن .

كانَ أمامي مُشْكِلَةٌ أوْ مُشْكِلَتانِ ، وَلكِنَّني نَجَحْتُ في حَلِّهِما . كَتَبَتِ الآنِسَةُ هالكوم خِطابَيْنِ وَأعطَتْهُما الخادِمَةَ « فاني » ؛ فَتَعَقَّبْتُها إلى الفُنْدُقِ خَلْفَ عَرَبَةٍ لِنَقْلِ البَضائِعِ ، ثُمَّ اسْتَعَنْتُ بِزَوْجَتي العَزيزَةِ الَّتي خَدَّرَتْ « فاني » وَحَصَلَتْ عَلى الخِطابَيْنِ ، وَفَعَلَتْ كَما طَلَبْتُ مِنْها قَبْلَ أن تُعيدَهُما إلى ثِيابِها ثانِيَةً .

وَعِنْدَما ذَهَبَتْ زَوْجَتي العَزيزَةُ إلى لَنْدَن لإحْضارِ السَّيِّدَةِ ريوبل إلى بلاكووتر ، ذَهَبَتْ بِنَفْسِ قِطارِ السَّيِّدَةِ كليمنتس وَآن كاثيريك ، وَتَتَبَّعَتْهُما إلى بَيْتِهِما ، ثُمَّ عادَتْ إلَيَّ بِعُنْوانِهِما ، وَكُنْتُ أخْشى ألا تُرْسِلَهُ السَّيِّدَةُ كليمنتس كَما طَلَبْتُ مِنْها ذَلِكَ . حينَئِذٍ غادَرْتُ

بلاكووتر لِكَيْ أعِدَّ بَيْتي في لَنْدَن ، وَلِكَيْ أنجز مَهَمَّةً صَغيرَةً مَعَ السَّيِّدِ فيرلي في كمبرلاند .

كُنْتُ أعْلَمُ أنَّ الفاتِنَةَ ماريان سَبَقَ لَها أنْ كَتَبَتْ إلَيْهِ تَسْألُهُ أنْ يَسْتَقْبِلَها هِيَ وَأخْتَها في ليميريدج ، فَذَهَبْتُ إلى هُناكَ بِنَفْسي لإقْناعِهِ بِالمُوافَقَةِ عَلى ذَلِكَ ، إذْ كانَ لا بُدَّ لِلَّيدي غلايد أنْ تُغادِرَ بلاكووتر بِمَحْضِ إرادَتِها ، وَأنْ تَسْتَريحَ لَيْلَةً في لَنْدَن في بَيْتِ عَمَّتِها في الطَّريقِ إلى هُناكَ . كُنْتُ أريدُ أنْ تَكونَ الدَّعْوَةُ مُوجَّهَةً مِنَ السَّيِّدِ فيرلي ، وَعِنْدَما أقولُ إنَّهُ كانَ مُعْتَلَّ العَقْلِ وَالجِسْمِ مَعًا ، وَإنَّني اسْتَخْدَمْتُ مَعَهُ كُلَّ قُوايَ لِلتَّأثيرِ عَلَيْهِ ، فَقَدْ قُلْتُ ما فيهِ الكِفايَةُ . جِئْتُ ، وَقابَلْتُ ، وَتَغَلَّبْتُ عَلى السَّيِّدِ فيرلي .

وَفي أثْناءِ عَوْدَتي إلى بلاكووتر وَجَدْتُ ماريان أسْوَأ حالاً ، وَلكِنَّني أجَّلْتُ نِزاعي مَعَ الطَّبيبِ حَتَّى تَحَسَّنَتْ بِفَضْلِ رِعايَةِ إخْصائِيٍّ مِنْ لَنْدَن . وكانَ عَلَيَّ أنْ أتَخَلَّصَ مِنَ السَّيِّدِ دوسن ، وَفِعلاً تَخَلَّصْتُ مِنْهُ .

كانَ الخَدَمُ أيْضاً مَصْدَرَ إزْعاجٍ كَبيرٍ لَنا ؛ فَفي البَيْتِ كانوا يَتَدَخَّلونَ في خُطَطي ، وَلِذا طَلَبْتُ مِنْ سير بيرسيڤال أنْ يَفْصِلَهُمْ جَميعاً . الخادِمَةُ الوَحيدَةُ الَّتي بَقِيَتْ كانَتْ مِنَ الغَباءِ بِحَيْثُ لَمْ تَكُنْ تُلاحِظُ أيَّ شَيْءٍ نُريدُ إخْفاءَهُ . وَأرْسَلْنا السَّيِّدَةَ ميتشلسن

لِلْبَحْثِ عَنْ بَيْتٍ في توركاي ، وَبِذَلِكَ أَصْبَحْنا عَلى أُهْبَةِ الاسْتِعْدادِ . وكانَت ليدي غلايد مَريضَةً في حُجْرَتِها . وَكانَتِ الخادِمَةُ الغَبِيَّةُ مُحْتَجَزَةً هُناكَ لِرِعايَتِها . وَكانَتْ ماريان لا تَزالُ ، بِالرَّغْمِ مِنْ تَماثُلِها لِلشِّفاءِ ، مُلازِمَةً لِلْفِراشِ وَبِرُفْقَتِها السَّيِّدَةُ لِلْقِيامِ بِتَمْريضِها . ولَمْ يَكُنْ ثَمَّةَ أُناسٌ آخَرونَ بِالبَيْتِ سِوايَ وَزَوْجَتي وَسير بيرسيڤال .

وَلَعِبْتُ الخُطْوَةَ التّالِيَةَ في اللُّعْبَةِ . كُنْتُ أُريدُ أَنْ تُسافِرَ ليدي غلايد بِدونِ أُخْتِها . وَفي سُكونِ اللَّيْلِ حَمَلْتُ أنا وَزَوْجَتي الكونتيسة وَمدام ريوبل ، ماريان وَهِيَ نائِمَةٌ عَلى سَريرِها ، إِلى غُرْفَةٍ في الجُزْءِ المَهْجورِ مِنَ البَيْتِ (حاوِلوا مِنْ فَضْلِكُمْ أَنْ تَتَصَوَّروا هَذا المَنْظَرَ الفَريدَ !) وَتَرَكْناها هُناكَ تَحْتَ رِعايَةِ مدام ريوبل ، الَّتي وافَقَتْ بِكُلِّ سُرورٍ ، أَنْ تَبْقى سَجينَةً مَعَها حَتّى تَرْحَلَ ليدي غلايد . وَأَعْطَيْتُ سير بيرسيڤال خِطابَ الدَّعْوَةِ المُوَجَّهَ مِنَ السَّيِّدِ فيرلي ، وَطَلَبْتُ إِلَيْهِ أَنْ يُرِيَهُ لِزَوْجَتِهِ . كَما كَتَبْتُ إِلى صاحِبِ مُسْتَشْفى الأَمْراضِ العَقْلِيَّةِ أُخْبِرُهُ أَنَّ مَريضَتَهُ قَدْ تَمَّ العُثورُ عَلَيْها ، وَأَنَّها سَتُعادُ عَلى وَجْهِ السُّرْعَةِ .

وَفي يَوْمِ الأَرْبِعاءِ ٢٤ يوليه ذَهَبَتْ زَوْجَتي إِلى السَّيِّدَةِ كليمنتس في عَرَبَةٍ بِرِسالَةٍ يُفْتَرَضُ أَنَّها مِنْ ليدي غلايد . وَكانَتْ تِلْكَ الرِّسالَةُ

كافِيَةً لأَنْ تَجْعَلَها تُغادِرُ البَيْتَ . وَاصْطَحَبَتْها زَوْجَتي إِلى مَتْجَرٍ وَتَرَكَتْها تَنْتَظِرُ في العَرَبَةِ بِالخارِجِ . ثُمَّ عادَتِ الكونتيسةُ فوسكو إِلى بَيْتِنا في لَنْدَن قائِلَةً إِنَّنا كُنّا نَتَوَقَّعُ مَجيءَ زائِرَةٍ – ليدي غلايد . وَفي تِلْكَ الأَثْناءِ ، ذَهَبْتُ بِنَفْسي في عَرَبَةٍ أُخْرى ، إِلى آن كاثيريك بِرِسالَةٍ تَطْلُبُ مِنْها أَنْ تَنْضَمَّ إِلى السَّيِّدَةِ كليمنتس وَليدي غلايد ، وَبِالطَّبْعِ جاءَتْ لِتَوِّها (يا لَهُ مِنْ شَيْءٍ طَريفٍ !) وَلَكِنْ عِنْدَما اقْتَدْتُها إِلى حُجْرَةِ الاسْتِقْبالِ اضْطَرَبَتِ اضْطِراباً شَديداً حينَما لَمْ تَرَ أَحَداً سِوى الكونتيسةِ فوسكو . صُدِمَتْ صَدْمَةً عَنيفَةً حَتّى ظَنَنْتُ أَنَّها سَتَموتُ في التَّوِّ وَاللَّحْظَةِ ، وَتُفْسِدُ كُلَّ خُطَطي .

وَاسْتُدْعِيَ طَبيبٌ قيلَ لَهُ إِنَّ ليدي غلايد كانَتْ بِحاجَةٍ إِلى خِدْماتِهِ في الحالِ . وَمِنْ حُسْنِ الحَظِّ اسْتَطاعَ أَنْ يُحَسِّنَ حالَتَها بَعْضَ الشَّيْءِ ، وَلَكِنَّ مَرَضَها كانَ مِنَ الشِّدَّةِ بِحَيْثُ لَمْ يَكُنْ بِمَقْدورِها أَنْ تَقولَ أَيَّ شَيْءٍ قَدْ يَدْفَعُهُ إِلى الشَّكِّ . وَمَعَ ذَلِكَ كُنْتُ في غايَةِ القَلَقِ خَشْيَةَ أَنْ تَموتَ بِأَسْرَعَ مِمّا كُنّا نُريدُهُ . وَقَضَتْ لَيْلَةً عَصيبَةً .

وَفي الخامِسِ وَالعِشْرينَ ، ذَهَبْتُ في طَلَبِ مَرْكَبَةٍ لاسْتِقْبالِ ليدي غلايد في مَحَطَّةِ القِطارِ في اليَوْمِ التّالي ، وَعِنْدَما عُدْتُ إِلى البَيْتِ في السّاعَةِ الخامِسَةِ وَجَدْتُ آن كاثيريك قَدْ فارَقَتْها الحَياةُ – فارَقَتْها

الحياةُ في الخامسِ والعشرينَ ، ولَمْ تكُنْ ليدي غلايد لِتَصِلَ حتّى السّادسِ والعِشْرين ! كُنْتُ رَجُلاً مَهْزوماً . تَصوَّروا ! فوسكو ، رَجُلٌ مَهْزومٌ !

ولَكِنْ كانَ وَقْتُ التَّراجُعِ قَدْ فاتَ . كانَ الطَّبيبُ قَدْ سَجَّلَ الوَفاةَ بِنَفْسِهِ حَتّى يُوفِّرَ عَلَيَّ جُهْدي . ولَمْ أَسْتَطِعْ تَغْييرَ التّاريخِ ، فاتَّجَهْتُ – كَما يَتَّجِهُ الرِّجالُ – إلى المُسْتَقْبَلِ ، رابِطَ الجَأْشِ ، مَرَّةً أُخرى .

وقابَلْتُ ليدي غلايد بِالمَحَطَّةِ ومَعي تَحْتَ مَقْعَدِ عَرَبَتي المَلابِسَ الَّتي كانَتْ تَلْبَسُها آن كاثيريك . واخْتَرَعْتُ أَخْباراً كَثيرةً أَطْمَئِنُها بِها ، واصْطَحَبْتُها إلى بَيْتِ مدام ريوبل حَيْثُ أَعْطَيْتُها شَراباً مُخَدِّراً فَنامَتْ . وَ وَصَلَتْ مدام ريوبل بَعْدَ ذَلِكَ ، ونَقَلْتُها إلى فِراشِها ، وغَيَّرْتُ مَلابِسَها تارِكَةً مَلابِسَ آن كاثيريك في الغُرْفَةِ . وفي اليَوْمِ التّالي أَخَذْناها إلى مُسْتَشْفى الأَمْراضِ العَقْلِيَّةِ ، وقُلْنا لِلْمُمَرِّضَةِ إِنَّ المَرْأَةَ البَلْهاءَ كانَتْ تَتَوهَّمُ أَنَّها ليدي غلايد .

لَقَدِ ارْتَكَبْتُ خَطَأَيْنِ : سَماحي لِهارترايت بِأَنْ يُفْلِتَ مِنّي ، وتَرْكي ليدي غلايد طَليقَةً بَعْدَ هُروبِها . وهُنا كُنْتُ – أنا فوسكو – خائِناً لِنَفْسِ السَّبَبِ ؟ أُنْظُروا في قَلْبي ! أُنْظُروا تَرَوْا صورَةَ ماريان

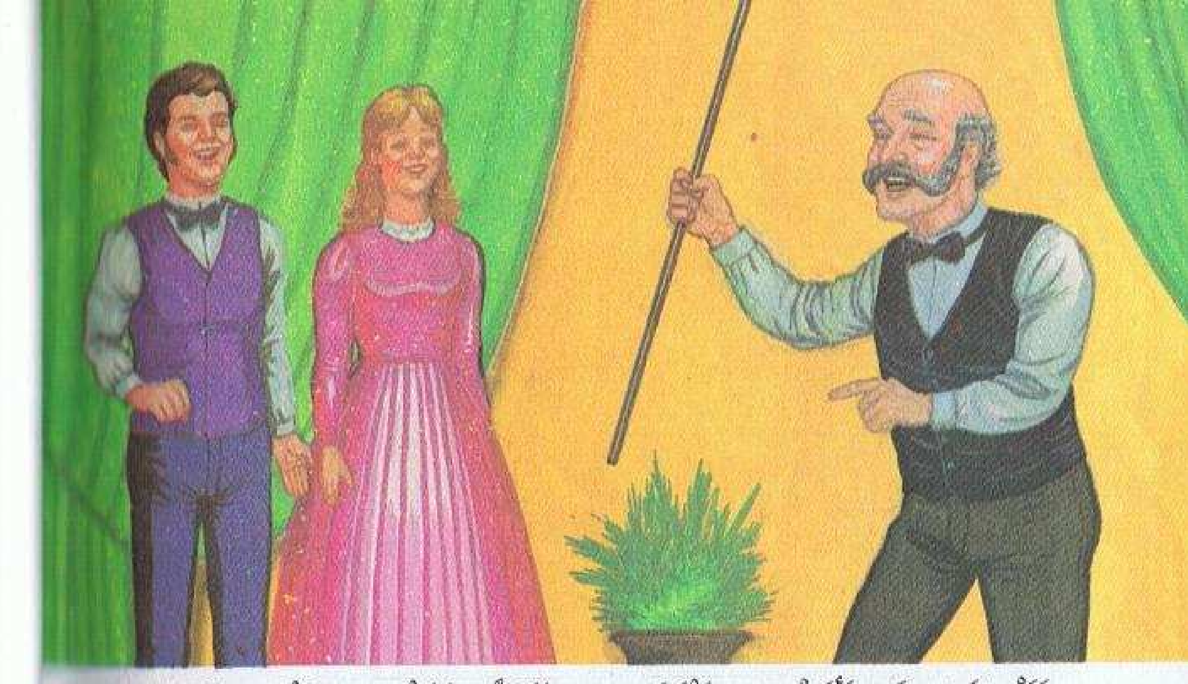
هالكوم ، أَوَّلَ وآخِرَ حُبٍّ في حَياةِ فوسكو .

فوسكو

وعِنْدَما انْتَهَيْتُ مِنْ قِراءَةِ هَذا الإِقْرارِ ، كانَتْ مُدَّةُ نِصْفِ السّاعَةِ قَدْ مَضَتْ ، فَتَرَكْتُ ريوبل في البَيْتِ الخالي ، ولَمْ أَرَهُ هُوَ أَوْ زَوْجَتَهُ ثانِيَةً .

يَنْبَغي عَلَيَّ أَنْ أُسْرِعَ إلى نِهايَةِ حِكايَتي . وَجَدْتُ المَكْتَبَ الَّذي اسْتَأْجَرَ مِنْهُ الكونت العَرَبَةَ بِسُهولَةٍ ، وحَصَلْتُ عَلى التّاريخِ المَطْلوبِ . وتَذَكَّرَ سائِقُ العَرَبَةِ مُقابَلَةَ ليدي غلايد بِالمَحَطَّةِ ، وكانَ قَدْ لاحَظَ اسْمَها عَلى الحَقائِبِ الَّتي كانَ عَلَيْهِ أَنْ يَحْمِلَها إلى عَرَبَتِهِ ، لِذا أَيْقَنْتُ أَنَّهُ كانَ لَدَيَّ ، وَقْتَذاكَ ، الوَسيلَةُ لِتَدْميرِ تِلْكَ الخُدْعَةِ الشِّرّيرَةِ بِرُمَّتِها . كانَ مَعي صورَةٌ مِنْ شَهادَةِ الوَفاةِ ، واعْتِرافُ الكونت ، وخِطابُ سير بيرسيڤال . وقَرَّرَ السَّيِّدُ كايل الَّذي أَخَذْتُ لَهُ هَذِهِ الأَوْراقَ أَنَّ قَضِيَّتي قَدْ ثَبَتَ الدَّليلُ عَلَيْها ، ورافَقَنا في الحالِ إلى كمبرلاند .

لا أَسْتَطيعُ أَنْ أَكْتُبَ عَنْ مُقابَلَتي مَعَ السَّيِّدِ فيرلي ؛ لأَنَّني لا أَذْكُرُها إلا بِكُلِّ اشْمِئْزازٍ وضَجَرٍ . كانَ أَمْراً طَبيعيًّا أَنْ يُوافِقَ عَلى طَلَبي بِوُجوبِ قَبولِ لورا في وَضْعِها الصَّحيحِ ما دامَ ذَلِكَ سَيُوَفِّرُ



عَلَيْهِ المَتاعِبَ . وَأَقَمْنا في مَزْرَعَةِ تود ، وَلَكِنَّنا عَقَدْنا في البَيْتِ الكَبيرِ اجْتِماعاً لِلْخَدَمِ وَأَهالي البُيوتِ المُجاوِرَةِ ، وَشَرَحْنا لَهُمُ المَوْضوعَ مِنْ أَوَّلِهِ إلى آخِرِهِ . وَقَرَأْنا الأَوْراقَ عَلَناً ، ثُمَّ سَأَلْتُ إنْ كانوا يُرَحِّبونَ بِقَبولِ سَيِّدَتِهِمُ الواقِفَةِ إلى جِواري ، فَأَخَذَ رَجُلٌ عَجوزٌ يَقْفِزُ في الهَواءِ مُلَوِّحاً بِعَصاهُ فَرِحاً وَهُوَ يَصيحُ : « ها هِيَ ذي ، وَعَلى خَيْرِ ما يُرامُ ! اهْتِفوا بِحَياتِها ، يا رِجالُ !» وَهَتَفَ الرِّجالُ ، وَبَكَتْ زَوْجاتُهُمْ ، ثُمَّ غادَرَ جَميعُنا البَيْتَ لِزِيارَةِ القَبْرِ ، وَكُنّا قَدِ اسْتَدْعَيْنا رَجُلاً لإِزالَةِ الكَلِماتِ الزّائِفَةِ عَلى شاهِدِ القَبْرِ ، وَأَكْمَلَ عَمَلَهُ وَنَحْنُ وُقوفٌ حَوْلَهُ ، وَكَتَبَ في مَكانِها هَذِهِ الكَلِماتِ البَسيطَةَ : « آن كاثيريك – ٢٥ يوليه ١٨٥٠ » .

وَعُدْنا إلى أصدِقائنا بِالمَزْرَعَةِ لِقَضاءِ تِلْكَ اللَّيْلَةِ (رَفَضْتُ أنْ أبيتَ تَحْتَ سَقْفِ السَّيِّدِ فيرلي) . وَفي اليَوْمِ التّالي عُدْتُ إلى لَنْدن ، وَهُناكَ بَدَأَتْ حَياتُنا وَهِيَ خالِيَةٌ مِنَ الهُمومِ الَّتي كانَتْ تُعَكِّرُ صَفْوَنا .

وَفي أَحَدِ الأَيّامِ سَنَحَتْ لي فُرْصَةُ السَّفَرِ إلى باريس بِخُصوصِ بَعْضِ الأَعْمالِ الفَنِّيَّةِ . وَبَيْنَما كُنْتُ هُناكَ ، رَأَيْتُ حَشْداً يَتَجَمَّعُ حَوْلَ أَحَدِ المَباني . وَعِنْدَما سَأَلْتُ عَنِ السَّبَبِ عَلِمْتُ أَنَّ رَجُلاً عُثِرَ عَلَيْهِ غارِقاً في نَهْرِ السّينِ ، وَأَنَّ جُثَّتَهُ كانَتْ مَوْجودَةً بِالدّاخِلِ . وَقيلَ إنَّهُ كانَ رَجُلاً مُفْرِطَ البَدانَةِ . وَدَفَعَني شَكٌّ مُتَزايِدٌ إلى الانْضِمامِ إلى أولَئِكَ الَّذينَ كانوا يُريدونَ رُؤْيَةَ الجُثَّةِ . وَكانَتْ شُكوكي في مَحَلِّها . هُناكَ كانَ يَتَمَدَّدُ الكونت ، في مَلابِسَ مُتَواضِعَةٍ ، وَبِهِ جُرْحٌ فَوْقَ مَوْضِعِ قَلْبِهِ ، وَعَلى ذِراعِهِ في مَوْضِعِ الدّائِرَةِ الحَمْراءِ ، كانَ الحَرْفُ « ت » يُغَطّيها ، هَذا الحَرْفُ هُوَ بِدايَةُ كَلِمَةِ « تراديتوري » الإيطالِيَّةِ ، وَتَعْني « خائِن » . وَلَمْ تُكْتَشَفِ اليَدُ الَّتي صَرَعَتْ كونت فوسكو ، إطْلاقاً . وَلَكِنَّني لَمْ أَنْسَ الرَّجُلَ النَّحيلَ ذا العَلامَةِ في وَجْهِهِ ، وَالَّذي رَأَيْتُهُ ، لأَوَّلِ مَرَّةٍ ، في دارِ الأوبرا . عَلى كُلٍّ ، أَنا لا أَعْلَمُ شَيْئاً . إنَّهُ مُجَرَّدُ شَكٍّ .

وَعُدْتُ إلى إنْجِلْترا ، وَهُناكَ ، في شَهْرِ فِبْراير مِنَ العامِ الجَديدِ

وُلِدَ لنا أوّلُ طِفْلٍ – كانَ وَلَداً .

لَم يَبْقَ سِوى حَدَثٍ واحِدٍ في حَياتِنا لأَرْوِيَهُ : كُنْتُ قَدْ ذَهَبْتُ إلى أيرلندا لأَرْسُمَ بَعْضَ الصُّوَرِ لإِحْدى الصُّحُفِ ، وَلَمّا عُدْتُ دَهِشْتُ حين لَمْ أجِدْ أحَداً لِيَسْتَقْبِلَني في البَيْتِ . كانَت لورا وماريان وَالطِّفْلُ قَدْ رَحَلوا في اليَوْمِ السّابِقِ .

وَعَلِمْتُ مِنْ مُذَكِّرَةٍ تَرَكَتْها لي زَوْجَتي أَنَّهُمْ ذَهَبوا إلى ليميريدج هاوس ، وَأَنَّهُمْ يَطْلُبونَ مِنّي اللَّحاقَ بِهِمْ ، وَأَنَّهُ لا داعِيَ لِلْقَلَقِ إطْلاقاً . كانَ الوَقْتُ لا يَزالُ مُبَكِّراً ، فَاسْتَقَلَّتُ قِطارَ الصَّباحِ ، وَ وَصَلْتُ إلى ليميريدج عَصْرَ ذَلِكَ اليَوْمِ .

سَأَلْتُ عِنْدَما وَصَلْتُ : « ماذا ، بِاللَّهِ عَلَيْكُمْ ، جاءَ بِكُمْ إلى هُنا ؟ أ يَعْلَمُ السَّيِّدُ فيرلي بِمَجيئِكُمْ ؟»

أَخْبَرَتْني ماريان أَنَّهُ تُوُفِّيَ ، وَأَنَّ السَّيِّدَ كايل أَبْلَغَهُمْ بِوَفاتِهِ ، وَنَصَحَهُمْ أَنْ يَذْهَبوا ، لِتَوِّهِمْ إلى ليميريدج .

وَمَضَتْ تَقولُ وَهِيَ تَحْمِلُ الطِّفْلَ بَيْنَ ذِراعَيْها : « أ تَعْرِفُ مَنْ يَكونُ هَذا ، يا ولتر ؟»

قُلْتُ في شَيْءٍ مِنَ الضَّجَرِ : « أَظُنُّ أَنَّني أَعْرِفُ ابْني ! »

صاحَتْ ضاحِكَةً : « أ تَتَحَدَّثُ هَكَذا عَنْ أَحَدِ أَكابِرِ إنْجِلْترا ؟ دَعْني أُقَدِّمْ كُلًّا مِنْكُما لِلآخَرِ : السَّيِّدُ ولتر هارترايت – وَ وَريثُ ليميريدج !»

هَكَذا تَكَلَّمَتْ . وَبِكِتابَتي هَذِهِ الكَلِماتِ الأَخيرَةَ ، فَقَدْ كَتَبْتُ كُلَّ شَيْءٍ . كانَتْ ماريان هِيَ مَلاكَ الخَيْرِ في حَياتِنا . وَبِذِكْرِ ماريان تَنْتَهي الحِكايَةُ .



الروايات المشهورة

١ - جين إير
٢ - فرانكنشتاين
٣ - مونفليت
٤ - دراكولا
٥ - لورنا دون
٦ - دكتور جيكل ومستر هايد
٧ - شي الملكة الأسطورة
٨ - كونت مونت كريستو
٩ - الرجل الخفي
١٠- الزمن العصيب
١١- الزنبقة السوداء
١٢- الأمير و الفقير
١٣- سايلاس مارنر
١٤- الوادي الغاضب
١٥- أوليڤر تويست
١٦- داڤيد كوپرفيلد
١٧ - ذات الرداء الأبيض

مكتبة لبنان
ساحة رياض الصلح - بيروت



رقم الكمبيوتر 01 C 198118